مطارحات

في الفكر المادي والفكر الديني

تأليف

سماحة آية الله الشيخ محمد مهدي شمس الدين قدس سره

تحقيق
محمّد صادق الغريري

بإشراف
الأستاذ سامي الغريري

دار الكتاب الإسلامي

مطارحات

في

الفكر المادي والفكر الديني

تأليف

العلّامة محمد مهدي شمس الدين

تحقيق

محمد صادق الغريري

باشراف

الاستاد سامي الغريري

مؤسسة

دار الكتاب الاسلامي

جميع حقوق الطبع محفوظة و مسجلة للناشر

الكتاب ..... مطارحات فى الفكر المادي و الفكر الديني

المؤلف ..... العلامه محمدمهدى شمس‌الدين رحمه‌الله

الناشر..... دارالكتاب الاسلامي

الطبعة ..... الاولى ١٤٢٧ هـ. ق / ٢٠٠٦ م

المطبعة ..... مطبعة ستار

عدد النسخ ..... (٢٠٠٠) نسخه

الترقيم الدولي: ٩ - ١٦٦ - ٤٦٥ - ٩٦٤

ISBN: 964 - 465 - 166 - 9

بسم الله الرحمن الرحيم

فَـهْـرَس الْمُوضُوعَات

تَقْدِيم ١١

القِسْم الأَوَّل

المَادِيّة فِي الرّأسمَالِيّة والمَارْكسيّة ١٧
ومَأسَاة إنْسَان عَصْرنَا ١٧
المَارْكسيّة وَالعِلْم وَالسّيَاسَة ٤١
المَدْلُول السّيَاسي لقَانُون حَرْكَة التّطور ٤٣
المَدْلُول السّيَاسي لقَانُون تَنَاقُضَات التّطور ٤٥
المَدْلُول السّيَاسي لقَانُون قَفْزَات التّطور ٤٩
المَدْلُول السّيَاسي لقَانُون الإرْتبَاط العَامّ ٥٣
الخُلاَصَة ٥٥

مُطَارْحَات فِي الفِكْر المَادِيّ وَالفِكْر الدِّينيّ

تَصْفِيّة حِسَاب صَغِير ٦١
مَدْخَل ٦٣

آ ـ أَهْلِيَّة المُؤَلّف ٦٥
ب ـ وَظِيفَة الدِّين، مَا هِي؟ ٦٦
ج ـ مَنْهَجَة البَحْث ٧٠

الله أَمْ المَادّة

تَمْهِيد ٧٥
مَسْأَلَة العِلَّة الأُولىٰ ٧٩
الله أَمْ المَادَة ٨٥
النَّتِيجَة ٨٧
الإِسْلاَم وَالعِلْم ٩٥
خَلْق الإِنْسَان ١٠٧

الجِنّ وَالمَلاَئِكَة وَأَبْحَاث أُخرىٰ

الجِنّ وَالمَلاَئِكَة ١٢٣
النَّظرة الغَائِيَّة ١٢٥
تَدَخُل القُدْرَة الإِلَهيَّة فِي عَمَل الطَّبِيعَة ١٢٧
تَزْوِير وَتَنَاقُض ١٢٨
التَّوفِيق التَّبرِيرِي ١٣٠
التَّوفِيق التَّعَسفُي ١٣٠
التَّوفِيق عَلَىٰ الطَّرِيقَة اللُّبنَانيَّة ١٣١

تَنَاقُض: ١٣٢

قِصَّة إبْلِيس

قِصّة إبْلِيس ١٣٧
مَصَادِر المُؤَلّف ١٣٨
الحُرّيَّة الدَّاخليَّة ١٤١
الإرَادَة التَّكْوِينيَّة = الأَمر التَّكْوِيني ١٤٧
الإرَادَة التَّشرِيعيَّة = الأَمر التَّشرِيعي ١٤٨
قِصّة إبْلِيس القُرآنِيّة ١٥١
مَوقِفَان: ١٥٣
الحُرّيَّة وَشُبْهَة الإغوَاء ١٥٥
الأَوّل ـ لِمَن السُّجُود؟ ١٥٩
الثَّاني ـ مَعْنَىٰ السُّجُود ١٦١
الثَّالِث ـ مَغْزىٰ السُّجُود ١٦٢
تَنَاقُض: ١٦٧
كِبْريَاء إبْلِيس: ١٧٣
بَيْنَ قِصّة إبْرَاهِيم وَقِصّة إبْلِيس ١٧٧

المَكْر الإلٰهي

المَكْر الإلٰهي ١٨٣

نَظْرَة نَقْدِيَّة إِلَىٰ رَكَائِز المَارْكسيَّة

الرَّكَائِز الأَسَاسيّة للفَلْسَفَة المَاركسيّة ٢١١

تَحْدِيد المَفَاهِيم ٢١٣

المَفْهُوم المِثَالي ٢١٥

المَفْهُوم الوَاقِعي المَادِيّ ٢١٥

المَفْهُوم الوَاقِعي الإِلٰهي ٢١٥

حَرَكَة التَّطَوّر ٢١٩

طَبِيعَة الحَرَكَة ٢٢٠

التَّنَاقُض ٢٢٠

الحَرَكَة فِي المَارْكسيَّة ٢٢١

الحَرَكَة فِي الوَاقِعيَّة الإِلٰهيَّة ٢٢٢

مَجَال الحَرَكَة ٢٢٥

المُحَاولَة الأُولىٰ ٢٢٦

المُحَاولَة الثَّانِيَة ٢٢٨

المُحَاولَة الثَّالِثَة ٢٣٠

تَنَاقُضَات التَّطَوّر ٢٣٣

قفزات التَّطَوّر ٢٣٥

فِي طَرِيقَة البُرهَان ٢٣٥

فِي مَبَادِيء القَانُون ٢٣٦

تَحَوّل التَّغيّر الكَمّي إِلَىٰ تَغَيّر كَيفي ٢٣٦

الْإِنْتقَال بِالقَفْزَة وَالدُّفعَة ٢٣٧
إِنَّ التَّطَوّر لَيْسَ دَائِرِيًّاً، وَإِنَّمَا هُو تَقَدّمي صَاعِد أَبَدَاً ٢٣٨
الإِرْتبَاط العَامّ ٢٤١
فَهرَس الآيَا ت ٢٤٧
فَهرَس الأَحَادِيث ٢٥٧
فَهرَس المَصَاد ر ٢٥٩

تَقْدِيم

هَذِه مُطَارَحَات فِي الفِكْر الدِّينيّ وَالفِكْر المَادِيّ كَتَبتُ القِسْم الثَّاني مِنْهَا وَنَشرتُ مُعظَمه مُنْذُ سِنِين فِي مُلحَق جَرِيدَة النَّهَار البَيْرُوتيّة فِي حَلقَات أُسبُوعيَّة فِيمَا بَيْنَ (٢٢ شُبَاط سَنَة ١٩٧٠ و ١٧ أَيَار سَنَة ١٩٧٠ م).

وَكُنتُ أُقَدر أَنَّ الحَاجَة إِلَىٰ هَذِهِ المُطَارحَات قَد ٱنْتَهَت بنَشْرهَا وَإِذَاعتهَا فِي النَّاس عَن طَرِيق الصَّحَافَة الْأُسبُوعيَّة ، وَلِذَا فَلاَ دَاعي لِإِعَادَة نَشرهَا فِي كِتَاب .

وَلَكن نَفرَاً كَبِيرَاً كَرِيمَاً مِن عُلمَاء الدِّين وَالمَعنيِّن بقَضَايَا الفِكْر الْإِسْلاَميّ أَو الفِكْر الدِّينيّ بوَجْه عَامّ ، وَمِن الطُّلاَب الجَامعيِّن يَرَون أَنَّ الحَاجَة إِلَىٰ هَذِهِ المُطَارحَات لَم تَنْتَه بنَشرهَا فِي الصَّحَافَة ، بَل الحَاجَة إِلَيهَا مُتجَدّدة لْأَنَّهَا مَلأَت فُرَاغَاً كَبِيرَاً فِي الحَقل مِن حقُول المواجهَة الفِكْريَّة بَيْنَ الدِّين والمَادِيَّة ، ولْأَنَّهَا أَضَاءَت مَسَاحَات كَبِيرَة وَهَامّة ، رُبَّما كَان غمُوضهَا بَاعثَاً عَلَىٰ الحَيرَة والشَّك عِندَ المُؤْمِن ، وَحَافزَاً عَلَىٰ التَّجني وَإِطلاَق الْأَحْكَام الخَاطِئَة عَلَىٰ الدِّين عِنْدَ مَن فِي قُلوبِهِم مَرض .

وَهُم يَرَون أَنَّ هَذِهِ الحَاجَة المُتجَدّدة تَقتَضي بنَشر هَذِهِ المُطَارحَات فِي كِتَاب يَسْهل تَدَاولَهُ وَالرُّجُوع إِلَيهِ.

وَقَد رَغَّب إِليَّ بَعْض مَن ذَكَرتُ أَنْ أُوضّح ـ فِي هَذِهِ المُطَارحَات ـ أَثَر المَادِيَّة فِي مَأسَاة العَالَم الثَّالِث مِن خِلاَل مُعَانَاته الْأَلِيمَة مِن الرَّأسْمَالِيَّة، وَالمَارْكسيَّة. وَقَد اسْتَجبتُ لِهَذِه الرَّغبَة الكَرِيمَة النَّبيلَة فَكَتبتُ القِسْم الْأَوَّل مِن هَذِهِ المُطَارحَات عِندَمَا قَرّرتُ نَشْرهَا فِي كِتَاب.

إِنَّ القِسْم الْأَوَّل يُكَمّل القِسْم الثَّاني. فَحِينَ يُعرَض القِسْم الثَّاني للمَادّيّة عَلَىٰ مُستَوىٰ الفِكْر وَالفَلْسَفَة يُعرض القِسْم الْأَوَّل عَلَىٰ مُستوىٰ السِّيَاسَة وَالعِلاَقَات الدَّوليَّة، وبَذَلِكَ يُقدّم الوَجْه التَّجربي للمَادّيَّة فِي السِّيَاسَة.

وَإِذْ كُنتُ أُعدّ هَذَا الكِتَاب للنَّشر كَانَت تُدوي فِي أُذني أَنْبَاء العُدوان الْإِسرَائِيلي عَلَىٰ وَطَني لُبنَان فِي أَقدّس بُقَاعه، وهِي جُنُوبه ـ جَبل عَامل ـ أَرْض العِلم والتَّقوىٰ، والْإِنْسَانيَّة العَاليَة وَنُبل الْأَخْلاَق. وَأَرىٰ بعَيني أَثَار العُدْوَان الوَحْشي فِي عَشرَات الْأُلُوف مِن النَّازحِين مِن القَرويِّين المَدنيِّين العُزّل يَتَدفقُون عَلَىٰ بَيرُوت وَغَيرهَا فَأَعِيش مَأسَاة العَالَم الثَّالِث كُلّه فِي لَوحَة حيَّة تَرسمُهَا الصَّهيونيَّة بِالحَدِيد وَالنَّار عَلَىٰ لحَمْي وَدَمي، أَعِيش المَأسَاة، لاَ كشَاهد عَلَيهَا، وَإِنَّما كضَحيَّة وَوقُود لَهَا، وَأَرىٰ كَيْف أَنَّ مَادّيّة عَصرنَا تُنَفذ فَصلاً مِن جَرِيمتهَا ضِدّ الْإِنْسَانيَّة عَلَىٰ يَد آلة شَيطانيَّة مِن آلْآتهَا الْإِجرَاميَّة المُجرمَة هِي القُوّة الصَّهيُونيَّة الَّتي تُمثّل ذرَاعَاً مِن أَذْرُع المَادِيَّة الَّتي تَسوط بهَا العَالَم الثَّالِث..... آهٍ مَا أَشدّ مرَارَة الحَيَاة فِي هَذَه الْأَيَّام بَعْد سَنوَات ثَلاَث مِن المُعَانَاة اليَوميَّة لْآلاَم النَّاس فِي الفِتْنَة اللُّبنَانيَّة البَشعَة الَّتي هِي مَشْهَد آخر مِن مَشَاهد تُلاَعب المَادِيَّة بمصَائِر

العَالَم الثَّالِث.

وعَلَىٰ أَي حَال فَلَيْسَ أَمَامنَا الآنْ سِوىٰ أَنْ نَنْتَظر مَا يَقُوم بهَا المُجْتَمع الدُّوَلي مِن خِلاَل مَجْلس الأَمن وَمُنظمَة الأُمَّم المُتّحدَة ٱتّجَاه العُدْوَان الإِسرَائِيلي عَلَينَا، وَبِإنْتَظار ذَلِكَ أَشعُر أَنَّ عَلَينَا العَمَل لإِعَادَة النَّازِحِين إِلَىٰ قُرَاهُم لئَلَّا تَجد الصَهيُونيَّة أَمَامهَا أَرضاً خَاليَة مِن السُّكّان تَبْعَث فِيْهَا مَطَالع جَدِيدَة.

وَمَهمَا حَاوَلَت القِوىٰ الَّتي تَقف ورَاء الصَّهيُونيَّة أَنْ تُسقَي غَرسهَا الشَّيطَاني هَذَا بدمَاء العَرب وَتُغَذِيه بأَرْضهِم فَلَن تَسْتَطيع أَبداً أَنْ تَجْعل الصّهيُونيَّة أَصِيلَة فِي فَلسطِين سَتَبقىٰ نَبْتَة غَرِيبَة مَلعُونَة تَرفضهَا الأَرْض، وَتَرفضهَا الأُمَّة، وَتَرفضهَا حَركَة التَّأرِيخ، وَتَقتَلعها إرَادَة الله بأَيدي عِبَادَه الأَبـرَار وَإِرَادتـهِم وَعَـزمهِم. إِنَّ الصَّهاينَة يَجْتمعُون فِي فَلسطِين لشَّر يَوم لَهُم فِي التَّأرِيخ، مَتىٰ يَشرق هَذَا اليَوْم....؟ إِنَّنا لاِ نَعْلَم، وَلَكنّهُ آتٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ ذَلِكَ وَعَـد الله، وَالله لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ:

١ ـ ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَبَقُوٓا۟ إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ﴾ (١).

٢ ـ ﴿لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ وَلَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ (٢).

إِنَّ عَلَينَا أَنْ نُعدَّ أُمّتنَا لِهَذَا اليَوْم المَوعُود، وَنصُونها مِن التَّلوث وَالفَسَاد وَالإِنْحلاَل بمَا تُفرزَه المَادِيَّة فِي الثَّقَافة وأَسَالِيب الحَيَاة مِن سمُوم تُفْسد شَخصيَّة الإِنْسَان وَتَذهَب بأَصَالَته وَتَجعلهُ بذَلِكَ إِحدىٰ نفَايَات أُمّته الَّتي تُضعِف

(١) ٱلأَنْفَال: ٥٩.

(٢) ٱلنُّور: ٥٧.

تمَاسكهَا ، وتُوهن قُوتهَا .

* * *

آمُل أَنْ تُسَاهم هَذِهِ المُطَارحَات فِي تَعزِيز المَنَاعَة الفِكْريَّة أَمَام غَزو المَادِيَّة مِن خِلاَل المَارْكسيَّة أَو مِن خِلاَل الرَّأسْمَالِيَّة ، وفِي مَعُونة البَاحثِين عَن ضِيَاء يُنِير ظَلاَم دُروبِهم ، وعَن هُدىً يُخرجُهم مِن ظُلمَات الكُفر أَو حَيرَة الشَّك إِلَىٰ نُور الْإِيمَان بالله ، وَالحَمْد لله رَبّ العَالمِين .

مُحَمَّد مَهْدّي شَمْس الدِّين

رَبِيع الثَّاني ١٣٩٨ هـ

آذَار (مَارس) ١٩٧٨ م

القِسْمُ الأَوَّل

١ ـ المَادِيَّة فِي الرَّأسْمَالِيَّة، وَالمَارْكسيَّة، وَمَأسَاة إِنْسَان عَصْرنَا

٢ ـ المَارْكسيَّة وَالعِلم وَالسِّيَاسَة

المَادِيَّة فِي الرَّأسْمَالِيَّة والمَارْكسيَّة
ومَأسَاة إِنْسَان عَصْرنَا

هَذَا كِتَاب يتضمن مُطَارحَات بَيْنَ الفِكْر المَادِيّ ـ كَمَا تَعْرضهُ النَّظريَّة المَارْكسيَّة ـ وَالفِكْر الدِّينيّ مُتّمثلاً بالإِسلاَم.

وهَذِهِ النَّظرة المَادِيَّة الخَالصَة إِلَىٰ أَصْل الكَون، والحَيَاة والإِنْسَان هِي النُّقطَة الأَرْخَمِيديَّة، نُقطَة الخِلاَف الرَّئيسيَّة بَيْنَ الإِسْلاَم وبَيْنَ المَارْكسيَّة، وعَنْهَا تَتفَرّع الخِلاَفَات الأُخرىٰ.

وَنُرِيد أَنْ نُثِير هُنَا سُؤالاً هَامَّاً:

إِذَا كَانَت المَارْكسيَّة مَادِيَّة فَهَل الرَّأسْمَالِيَّة ـ ضِدّهَا الأَيْديُولُوجي وَخَصّمهَا السِّيَاسي ـ رَوحَانيَّة تُؤمِن بقُوّة وَرَاء الطَّبِيعَة يَرجع إِلَيهَا الخَلق وَالأَمر؟.

إِذَا كَانَت المَارْكسيَّة، إِنْطلاَقَاً مِن مَادِيّتهَا، تَرفض الإِيمَان بالله، ومَن ثُمَّ فَهي تَرفض الإِعْتِرَاف بالنُّبوّة وَالوَحي، وَمَن ثُمَّ فَهي تَرفض الإِعْتِرَاف بالدِّين، بَل وَتُحَاربهُ وَتَعْتَبره خَصّمَاً عَلَيهَا أَنْ تَقضي عَلَيهِ فِي ظَاهر التَّركِيب المُؤسّسي الإِجْتِمَاعي وفِي بِاطن الضَّمِير الإِنْسَاني لتُخَلصّ الإِنْسَان مِن آثَاره الضَّارَة فِي تَحْذِير الشُّعُوب، وَلتُمكّن لنَفسهَا فِي الوَعي الإِنْسَاني فَتَدفع بالإِنْسَان إِلَىٰ إِسعَاد

نَفْسَه وَعَالمه . . . إِذَا كَانَت المَارْكسيَّة هَكَذَا هَل الرَّأسْمَالِيَّة مُضَادّة لَهَا فِي هَذِهِ النَّظرات ، وَالمواقف ؟ هَل تَعْتَرف الرَّأسْمَالِيَّة بالله ؟ ومَن ثُمَّ فَهَل تَعْتَرف بالنُّبوّة وَالوَحي ؟ ومَن ثُمَّ فَهَل تَعْتَرف بالدِّين ، وكَيْف تَعْتَرف بالدِّين ؟ .

الحَقّ أَنَّ الرَّأسْمَالِيَّة ذَات مَظْهَر خَادع رَوَّاع مِن هَذِهِ الجِهَة تُغرِ النَّاظر السَّطحي إِلَيهَا فَيَحسب أَنَّها مَذْهَب فِي الحَيَاة للدِّين فِيهِ مَكَان مَكِين . وَلَكن البَاحِث الَّذي تَتَجاوز مُلاَحَظته السَّطح الخَادع سُرعَان مَا يَكْتَشف أَنَّ الرَّأسمَاليَة كَالمَاركسيَّة مِن هَذِهِ الجِهَة وَالخِلازف سُرعَان مَا يَكْتَشف أَنَّ الرَّأسمَالِيَة كالمَاركسيَّة مِن هَذِهِ الجِهَة وَالخِلاَف بَيْنَهُما فِي الْأُسلُوب لاَ فِي جَوهَر المَوْقف . وَسَيرىٰ البَاحِث المُتَعمّق أَنَّ الرَّأسْمَالِيَّة كَالمَاركسيَّة مَادِيَّة .

فَالرَّأسْمَالِيَّة تَتعَامل مَع الكَون ، والحَيَاة ، والْإِنْسَان مِن مُنْطَلق مَادِيّ لاَ يَترك مَجَالاً لمَسأَلة وجُود الله وَمَا يَتفَرّع عَنْهَا مِن وَحي ، وَنُبوّة ، وَأَديَان ، وَشَرَائع دِينيَّة . وَغَايَة الفَرق بَيْنَهُما هِي :

أَنَّ المَارْكسيَّة نظَام فَلْسَفي يَدّعي لنَفْسه الشّمُول . وهَذَا يَقضي مَنطقيَّاً بأَنْ يَنْفي لكُلّ نظَام فِكري آخر مُغَاير لَهُ وَيَدّعي مُجَافَاته للحَقِّيقيَة وَبُطلاَنه . وَلمَّا كَانَت عَقِيدَة وجُود خَالق للكَون خَارج عَنْهُ ، عَلَىٰ النَّحو الَّذي تُبَشّر بِهِ الْأَديَان السَّماويَّة ـ مُضَادّة لعَقِيدَة هَذَا النِّظَام الفَلْسَفي المَادِيّ النَّافيَة بحُكم تَفْسِيرهَا المَادِيّ للكَون ، وَالحَيَاة ، والْإِنْسَان ـ لوجُود خَالق للكَون وَمَا فِيهِ ، ومَن فِيهِ خَارج عَنْهُ ، فَلا بُدَّ لَهُ أَنْ يَنْفي العَقِيدَة الدِّينيَّة وأَنْ يَنْفي كُلّ مَا يَتفرع عَنْهَا مِن عَقِيدَة بالوَحي ، والنُّبوّة ، وَالشَّرائع ، وَالقِيم المُسْتَمدَة مِن الوَحي ، وَلاَ بُدّ لَهُ مِن أَنْ يَبْحَث لكُلّ هَذِهِ الثَّوَابت فِي ثقَافة الْإِنْسَان وَحضَارته عَلَىٰ مَدىٰ التَّأرِيخ عَن

تَفْسِير مَادِيّ يَتّفق مَع أُصُولَه وَقوَاعده الفَلْسَفيَّة المَادِيَّة .

أَمّا الرَّأسْمَالِيَّة فَلَيْسَت نظَامَاً فَلسَفيَّاً ، إِنَّها طَرِيقَة حَيَاة ، ولَكنَّها لَيْسَت طَرِيقَة سَاذجَة ، بَل هِي قَائِمَة عَلَىٰ مُعطيَات فِكريَة لخَلِيط مِن الفَلسفَات أَدّت جَمِيعُها إِلَىٰ تَكوِين نَظرَة مَادِيَّة إِلَىٰ الكَون ، والحَيَاة والإِنْسَان . فَمِن المَعْلُوم أَنَّ الرَّأسْمَالِيَّة لَم تَغدُ نظَامَاً وَمَنْهَجاً إِلاَّ عَلَىٰ أَنقَاض الفِكْر الدِّينيّ المَسِيحي الَّذي قَضَت عَلَيهِ الفَلسفَات الَّتي رَفَضت معُتقدَات الكَنِيسَة وَنظَامهَا وَأَخلاَقها ، وَأَحلّت مَحلّها نَظرَة مَادِيَّة إِلىٰ الكَون ، والحَيَاة ، والإِنْسَان ، وَأَنظمَة وَأَخلاَقَاً مُسْتَمدّة مِن هَذِهِ النَّظرة المَادِيَّة .

وَلَكن الرَّأسْمَالِيَّة مَع كَونها طَرِيقَة حَيَاة مَادِيَّة ، تَقُوم عَلَىٰ أَفْكَار مَادِيَّة ، أَبقَت عَلَىٰ الكَنِيسَة بَعْد أَنْ جَردَتها مِن سُلطانهَا الزَّمني تَجرِيداً كَاملاً أَو شُبه كَامل . إِلاَّ أَنَّها لَم تُبق عَلَيهَا بِإعْتبَارها مُؤسّسة فَاعلَة فِي الحَيَاة مُوجّهَة لَهَا ، مُنَظمَة لنَشَاطاتهَا ، بَل بِإعْتبَارهَا مُؤسّسة تَستَهوي عَقَائِدهَا وطقُوسهَا فِئَة مِن النَّاس لاَ تَزَال مُؤمِنَة بهَا . وهَذَا أَمر لاَ يَظِير الرَّأسْمَالِيَّة فِي شَيء مَادَامت الكَنِيسَة لاَ تُقم نَفْسهَا فِي الشُّؤون الَّتي تَقُوم عَلَيهَا طَرِيقَة الحَيَاة الرَّأسْمَالِيَّة وَلاَ تُعطل أَيّ نشَاط مِن أَنْشطتهَا . بَل إِنَّ مُفكّري الرَّأسْمَالِيَّة فِي الإِقْتصَاد ، والسِّيَاسَة ، والإِجْتمَاع ، رَأوا أَنَّ المُؤسّسَة الدِّينيَّة لَيْسَت عَدِيمَة الفَائِدَة فِي شَأن تَنْفِيذ الخُطط الَّتي وَضَعتهَا الدَّوَائر الرَّأسْمَالِيَّة لإِحْتلاَل العَالَم القَدِيم وَالجَدِيد فِي آسيَا وَأَفرِيقيَا ، وَأَمريكَا اللَّاتِينيَّة . ولَيْسَت عَدِيمَة النَّفع فِي الصِّرَاع الَّذي تَخُوضهُ القِوىٰ الرَّأسْمَالِيَّة مَع الطَّبقَة العَاملَة . كَمَا أَنَّها ـ كَمَا تبَيّن أَخِيرَاً ـ لَيْسَت عَدِيمَة النَّفع فِي الصِّرَاع الأَيدَيُولُوجي ذِي الأَهدَاف السِّيَاسيَّة وَالإِقتصَاديَّة بَيْنَ الرَّأسْمَالِيَّة وَالشُّيوعيَّة

الَّتي لَم تَقلّ يَوماً مَا طمُوحاً عَن غَرِيمتهَا الرَّأسْمَالِيَّة إِلَىٰ إِحْـتلاَل العَـالم القَـدِيم وَالجَدِيد فِي آسيَا، وَأَفرِيقيَا، وَأَمرِيكَا اللاَّتِينيَّة.

وَإِذَن فَقَد أَبقَت الرَّأسْمَالِيَّة عَلَىٰ المُؤسّسَة الدِّينيَّة لاَ لأَنَّ الرَّأسْمَالِيَّة تُؤمِن بالله وَاليَوْم الآخر، وَتُؤمِن بالوَحي والنُّبوّة، وتُـؤمِن بـالأَديَان، وَالشَّـرائـع، وَالقِـيم الدِّينيَّة، فَهي ـ بإِعْتبَارها طَرِيقَة حَيَاة مَبْنيَّة عَلَىٰ نَظرَة مَادِيَّة ـ لاَ تَعني بِهَذِهِ الأُمُور عَلَىٰ الإِطلاَق[1]. قَد يَكُون فِي المُجْتَمعَات الرَّأسْمَالِيَّة مُؤْمنُون، وَقَد يَكُون فِيْهَا مُلحدُون، فَهي تَتَّسع لهَؤلاَء وهَؤْلاَء وَلَكن هَذَا لاَ يَعْنَي أَنَّها مَبْنيَّة عَلَىٰ الإِيـمَان

---

(١) قَالَ أَعرَابي لِبَنِيه: اجْمَعوا الدَّرَاهم فَإِنَّها تُلبِس اليَلْمَقَ ـ أَي القَبَاء الَـمحشُو ـ وتُـطعِم الجَـرْدَق ـ أي الرَّغِيف ـ.

وَقَالَ أَعرَابي وقَد نَظَر إِلىٰ دِينَار: قَاتَلَك اللهُ! مَا أَصْغَر قمَّتَك، وأَكْبَر هِمَّتك!.

وَسُئل أَفْلاَطُون عَن الْمَال، فَقَال: مَا أَقولُ فِي شَيء يُعطِيه الحَظّ، ويَحفَظه اللُّؤمُ، ويبلُغَه الكَرَمُ!.

وَكَان يُقَال: ثَلاَثة يُؤثرُون المَالَ عَلىٰ أَنفسِهم: تَاجرُ البَحْر، والمُقَاتِل بِالأُجْرَة، والمُرتَشي فِي الحُكْم وهُو شَرّهم، لأَنَّ الأَوَّلَين رُبَّما سَلِما، ولاَ سَلاَمَة لِلثَّالِث مِن الإِثم.

وَقَد سَمَّىٰ الله تَبَارك وَتَعَالىٰ الْمَال خَيْرَاً كمَا فِي قَوله: ﴿إِن تَرَكَ خَيْرًا﴾ اَلْبَقَرَة: ١٨٠، وَقَالَ تَعَالىٰ: ﴿وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ اَلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ﴾ اَلْعَادِيَاتِ: ٨.

وَقَالُوا فِي ذَمّ الْمَال: الْمَال مِثلُ المَاء غَادٍ ورَائِح، طَبْعُه كَطَبْع الصَّبي لاَ يُوقف عَلىٰ سَببِ رِضَاه، ولاَ سُخْطَه، المَالُ لاَ يَنفعك مَا لَم تُفَارِقْه.

وَقَد أَخذ الشَّاعر هَذا الْمَعنَىٰ وَقَالَ فيهِ:

وَصَاحِب صِدقٍ لَيْس يَنْفع قُربُه ... ولاَ وُدُّه حـتَّىٰ تُـفَارِقَه عَـمْداً

وَقَالَ آخر:

أَلَـم تَـر أَنَّ الْـمَال يُـهْلِك رَبَّـه ... إِذَا جَـمَّ آتِـيهِ وَسُـدَّ طَـرِيقُهُ

وَمَن جَاوز البَحْر الغَزِيرَبِقَحْمَةٍ ... وَسَدَّ طَرِيق المَاءِ فَـهُو غَـرِيقُهُ

أُنظر، شَرح نَهْج اَلْبَلاَغَة لِابْن أَبِي اَلْحَدِيد: ١٩٥/١٨.

الدِّينيّ بوَجهٍ مِن الوجُوه. وَإنَّما أَبقَت عَلَىٰ المُؤسّسَات الدِّينيَّة لأَنَّهَا:

أَوَّلاً: لَيْسَت مَوقفاً فَلسَفيَّاً يَنْفي مَا يُخَالفهُ وَيُضَادّه مِن أَفْكَار وَمُؤسّسَات مِن النَّاحيَة الفِكْريَّة النَّظريَّة.

وَلأَنَّهَا ثَانِيَاً: ـ قَدّرَت وهِي المُسَوقَة بفِكرَة الرِّبح ـ أَنَّ المُؤسّسَات الدِّينيَّة يُمكن أَنْ تَكُون ذَات فَائِدَة كُبرىٰ، فِي عَمليَات إِحتلاَل العَالَم، وفِي الصّرَاع الطَّبقي، وفِي الصّرَاع الْأَيديُولُوجي مَع المَاركسيَّة فِي السِّباق بَيْنَهُما لإِحتلاَل العَالَم.

وَإِذَن فَالتَّفَاوت فِي المَوْقف مِن الدِّين بَيْنَ المَارْكسيَّة والرَّأسْمَالِيَّة لَيْسَ نَاشئَاً مِن خِلاَف نَظري مَبدَئي حَول الدِّين، فَكلاَهُما مِن النَّاحيَّة النَّظريَّة المَبدئيَّة فِي مَوقع وَاحد بالنِّسبَة إِلَىٰ الدِّين، فَهُما لاَ يَعْترفَان بهِ، وَلاَ يَأخُذان بتَوجِيهه فِي سيَّاسَاتهمَا الدَّاخليَّة، وَالخَارجيَّة، وَمنَاهجهُما الإِجْتمَاعيَّة، وَالتَّعليميَّة، وَالثّقَافيَّة، وَالإِقتصَاديَّة. التَّفَاوت بَيْنَ المَارْكسيَّة والرَّأسْمَالِيَّة بالنِّسبَة إِلَىٰ الدِّين هُو فِي المَوْقف مِنْهُ مِن النَّاحيَة العِلْميَّة: المَارْكسيَّة تَنْفِيه وَتُحَاربهُ لأَنَّهَا نظَام فَلْسَفي يَفْتَرض فِيهِ ـ كَأي نظَام فَلْسَفي غَيْرَه ـ أَنْ يَنْفي وَيُبطل كُلّ مَا عَدَاه مِن أَنْظمَة، وَنَظريَات تُفَسّر الكَون، والحَيَاة، والإِنْسَان بطَرِيقَة أُخرىٰ. وَلَكن هَذَا المَوْقف المَبدئي مِن الدِّين لاَ يَمْنَع المَاركسيَّة مِن مُهَادنَة الدِّين ومُؤسّسَاته وَرجَالَهُ وَتَملقهُم حِينَ تَكْتَشف حَاجَاتهَا إِلَيهم فِي تُوجهَاتها السِّياسيَّة وصرَاعَاتها، وَحِينَ تَرىٰ أَنَّ الدِّين يُحقّق لَهَا فَائدَة عَمليَّة كَمَا حَدَث مِن قِيَادَات الإِتّحَاد السُّوفيَاتي أَثنَاء الحَرب العَالميَّة الثَّانيَة وَمَا بَعْدهَا فِي مُنَاسبَات كَثِيرَة جِدّاً. والرَّأسْمَالِيَّة تَنْفي الدِّين وَتُحَارب تَدخله فِي شُؤون الحَيَاة وَالسِّيَاسيَّة لأَنَّهَا طَرِيقَة حَيَاة قَائِمَة عَلَىٰ نَظرَة مَادِيَّة إِلَىٰ الكَون، والحَيَاة، والإِنْسَان. وهَذَا لاَ

يَمنعهَا مِن أَنْ تُهَادنَه بالْإِبقَاء عَلَىٰ مُؤسّسَاته، وبَعْض إِمتيَازَاتها لْأَنّـه لَـيْسَ لَـهَا مَوقِف فَلْسَفي مَبدئي مِنْهُ مِن جِهَة وَلْأَنّهَا قَد تُحَقّق عَن طَرِيقَهِ بَعْض المَنَافع الَّتي تُعزز قُدرتهَا عَلَىٰ الرِّبح وعَلَىٰ الكَسب السِّيَاسي مِن جِهة أُخرىٰ. ولَكنَّها تُحَاربهُ فِي رجَالهِ وفِي مُؤسّسَاته حِينَ يَقف مُن خِلاَلهَا بَعْض هَذِه المُؤسّسَات، وَبَعض هَؤلاَء الرِّجَال أَمَام عُدوانهَا، وَنَهبهَا للشّعُوب المُسْتَضعفَة وَتَسلطهَا السِّيَاسي كَمَا حَدَث فِي حَالاَت كَثِيرَة فِي العَصر الحَـدِيث فِـي أُروبَـا، وَأَفـرِيقيَا، وَأَمـريكَا اللَّاتِينيَّة. وَقَـد تُـحَالفه حِـينَ تَسْـتَطِيع تَـروِيض رجَـالَه، وَمُـؤسّساته لتَـغطِيَة مُخططَاتها فِي ٱستعمَار الشُّعُوب وَنَهب خـيرَاتـهَا، وَرَبـطهَا بـالفَلك السِّـيَاسي للرَّأسمَاليَّة الَّذي يَـجْعلهَا أَسِـيرَة مَـوَاقـف الرَّأسْـمَالِيَّة فِـي السِّـيَاسَة العَـالميَّة ومُؤسّسَاتها الْإِحْتكَاريَّة الكُبْرىٰ.

* * *

هَذَا هُو وَاقع الْأَمر فِي مَوقِف الرَّأسْمَالِيَّة، والمَارْكسيَّة مِن الدِّين عَلَىٰ رَغـم المَظَاهر الخَادعَة الَّتي قَد تَنْطَلي عَلَىٰ النَّظرة السَّاذجَة.

وَإِذَن فَهَذَا الكِتَاب الَّذي يَـدحَض المَـادِيَّة المَـارْكسـيَّة لاَ يَـعْنَي ٱعْـتِرَافَـاً للرَّأسمَاليَّة بالْإِيمَان. وَالدَّعوَة الَّتي يَتضمنهَا هَذَا الكِتَاب إِلَىٰ الْإِيمَان بوجُود الله سُبحَانه وتَعَالىٰ مُوجّهة إِلَىٰ المَادِيِّين كَيفَمَا كَانُوا وكَانَت مَادِيّتهم الَّـتي يَـدّعونهَا مَاركسيِّين كَانُوا أَو رَأسمَاليِّين، كَمَا أَنَّها دَعوَة مُوجّهَة إِلَىٰ كَهنَة الفِكْر المَاركسي وَالفِكْر المَادِيّ الَّذي أَفرَز الرَّأسْمَالِيَّة نظَامَاً سِيَاسيَّاً إِقْتصَاديَّاً، وطَرِيقَة حَيَاة.

وَالدّعوَة الَّتي يَتضمهنَا هَذَا الكِتَاب إِلَىٰ الْإِيمَان بوجُود الله تَعَالىٰ لاَ تَقف عِنْدَ حَدّ هَذَا الْإِيمَان بمَا هُو قَنَاعة عَقليَّة وَوجدَانيَّة فَقَط، فَـقضيَّة وجُـود الله تَـعَالىٰ

خَالقاً للكَون وَمُدبراً لَهُ لاَ تَقف عِنْدَ الإِيمَان النَّظري بوجُوده لأَنَّ هَذِهِ القَضيَّة مِن القَضَايَا الَّتي تَنْبَثق عَنْهَا وَتُلاَزمهَا بالضَّرورَة قَضَايَا أُخرىٰ لاَ بُدّ مِن الإِيمَان بهَا، وَالإِذعَان لَهَا، ومَن ثُمَّ بنَاء الحَيَاة عَلَىٰ هُدَاهَا.

فَالإِيمَان بوجُود الله تَعَالىٰ يَعْني ـ فِي حُدُود إدرَاك عَقلنَا البَشري ـ الإِيمَان بوجُود عِلاَقَات شَاملَة بَيْنَ الله، وبَيْنَ جَمِيع الكَون، وَمَا فِيهِ، ومَن فِيهِ، عِلاَقَة رُبُوبيَّة تَغْمر الكَون كُلّه، وَتَتغَلغل فِي أَعمَاقه، وفِي جَمِيع ثنَايَا مَظَاهر وجُوده. ومِن بَيْنَ هَذِهِ العِلاَقَات عِلاَقَة بالإِنْسَان ذَات طَابع إنْسَاني بَشري، وهِي عِلاَقَة الله بالإِنْسَان عَن طَريق النُّبوّة.

فَإِنَّ الله تَعَالىٰ يُرسل النَّبيِّين مُبَشّرين ومُنْذرِين أَدلاَء عَلَىٰ الله بالدِّين المُوحىٰ إلَيهم مِن عِنْدَ الله والَّذي يُنَظِّم حَيَاتهم، ويقودهُم إلَىٰ أَفْضَل السُّبل. هَذَا الدِّين ـ مُنْذُ فَجر النُّبوّات ـ هُو الإِسْلاَم جعَل الله فِيهِ وَبِهِ الهُدىٰ وَالنُّور لبَني الإِنْسَان عَلَىٰ مَدىٰ التَّأرِيخ. كُلّ حُقبَة تَأرِيخيَّة تَتلَقىٰ الإِنْسَانيَّة مِنْهُ فِيهَا المُستوىٰ الَّذي يُلاَئم نُمّوهَا الحَضَاري وَتَطورهَا العَقلي. فَينقلهَا فِي طَرِيق التَّكامُل إلَىٰ مَستوىٰ أَعْلَىٰ مِمَّا كَانَت فِيهِ، حَتَّىٰ خَتَم الله تَعَالىٰ أَنْبيَاءه الأَكرَمِين بمُحَمّد ﷺ وَخَتم رسَالاَته الهَاديَة برسَالَة الإِسْلاَم الكَامِل المُستَوعب الشَّامل لكُلّ حَاجَات الإِنْسَان التَّشرِيعيَّة، وَلكُلّ القِيم الأَخلاَقيَّة الَّتي تَجْعَل الإِنْسَان قَادراً عَلَىٰ بنَاء حَيَاة طَاهِرَة، كَرِيمَة، سَعِيدَة مُتكَامِلَة، قَويّة فَعّالة ذَات تَأثِير حَاسم فِي حَرَكة التَّأرِيخ الإِنْسَاني. وَقَد جَعل الله تَعَالىٰ حَقِيقَة الإِسْلاَم وجَوهرَة ومَبَادئه الكُبْرىٰ فِي كتَابه الكَرِيم (القُرْآن العَظِيم) الَّذي بَيَّن الله تَعَالىٰ أَثرَه فِي إصلاَح حَال الإِنْسَان وَهدَايَة البَشريَّة إلَىٰ الحَيَاة السَّعِيدَة بقَوْلَه مُخَاطباً أَهْل الكِتَاب مِن اليَهُود والنَّصارىٰ، كَمَا

أَنَّهُ خِطَاب لكُلّ مِن ٱنْحَرفَت بِهِ الْأَهوَاء وَالفَلسفَات عَن هُدىٰ الله :

﴿ يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ ٱلْكِتَـٰبِ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَـٰبٌ مُّبِينٌ يَـهْدِى بِـهِ ٱللَّـهُ مَـنِ ٱتَّـبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَـٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَـٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَـهْدِيهِمْ إِلَـىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾[1] .

إِنَّ نِدَاء الْإِيمَان هَذَا ، بوجُود الله تَعَالىٰ ، وَمَا يَقضي بِهِ هَذَا الْإِيمَان مِن إِيـمَان بالوَحي ، والنُّبوّة ، والدِّين ، والشَّريعَة ـ إِنَّ هَذَا النّدَاء مـوجّه بـإِخلاَص وَصِـدق وَحبّ إِلَىٰ جَمِيع الَّذِين تَلفهُم الحَيرَة ، وَيُطوّح بِهِم الضَّياع فِي حَيَاة فَقَدت جَوهَر مَعنَاهَا الْإِنْسَاني ، وفَقَد الْإِنْسَان فِيْهَا بَعْده الدَّاخلي فَشَعر بالفرَاغ وَالخوَاء الَّـذي جَعَلهُ يَفزَع مِن الخَلوة إِلَىٰ نَفْسَه ، لْأَنّه يَشْـعر بـالوحدَة والوَحشَـة وَاللَّامَـعنىٰ ، فَيَحملهُ ذَلِكَ عَلَىٰ الفِرَار مِن موَاجهَة ذَاته بإِغرَاق حوَاسه وَمشَاعره فِي صَـخب العَالم الخَارجي . وهَكَذَا يُزجي هَذَا الْإِنْسَان الحَدِيث حَيَاه بَائِسَة : مِن الْإِستغرَاق فِي العَمل ، إِلَىٰ الْإِستغرَاق فِي اللَّهو ، إِلَىٰ الْإِستغرَاق فِي كُلّ مَـا يَـجْعَل الْإِنْسَـان يَعِيش خَارج ذَاته طِيلَة يَوْمه إِلَىٰ أَنْ يَسْتَغرقه النَّوم ليَستَيقظ عَـلَىٰ يَـوْم جَـدِيد يَشْهَد فرَارَاً جَدِيداً مِن الذَّات .

إِنَّ الْإِيمَان الصَّحِيح ، وبنَاء الحَيَاة عَلَىٰ هُدىٰ الله يَمْنَح الْإِنْسَان سَلاَم النَّـفس وَسَلاَم الحَيَاة وَسعَادتهَا ، وَالنَّجَاة فِي اليَوْم الْآخر .

١ ـ ﴿يَـٰقَوْمَنَآ أَجِيبُواْ دَاعِىَ ٱللَّهِ وَءَامِنُواْ بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ

---

(١) ٱلمَائِدَة : ١٥ ـ ١٦ .

عَذَابٍ أَلِيمٍ وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِيَ ٱللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُۥ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءُ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾[1].

٢ ـ ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾[2].

٣ ـ ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾[3].

* * *

بَقيت كَلمَة يَنْبَغي أَنْ تُقَال عَن دَور الرَّأسْمَالِيَّة فِي عَذَاب إِنْسَانهَا، والْإِنْسَان فِي العَالَم.

لَقَد بدَأت الرَّأسْمَالِيَّة طَرِيقَة حَيَاة وُلدَت مِن جهُود فِكريَّة مُتنوعَة قَام بهَا عُلمَاء إِقْتصَاد، وَسيَّاسيُّون وَفلاَسفَة، وأُدبَاء وَفنَانُون، وَمَصلحُون إِجتمَاعيُون تضَافرت جهُودهُم طِيلَة عقُود كَثِيرَة مِن السّنِين لْإِخرَاج مُجْتمعَاتهم مِن نظَام الْإِقطَاع ومِن سُلطَة المُؤسّسَات الدِّينيَّة ورجَالَهَا.

ومِن المَعْلُوم أَنَّ الْإِرَادَات وَحدهَا لاَ تُغَيّر التَّأرِيخ. الْإِرَادَات حِينَ تَتزَامن مَع تَغيرَات مُنَاسبَة فِي البِيئَة الْإِجتمَاعيَّة، وَيُعبّر عَنْهَا أَصحَابهَا بالعَمل المَنْهَجي فَإِنّها حِينَئِذٍ تُغَيّر التَّأرِيخ. وهَكَذَا كَان الْأَمر فِي أُوربَا فِي نهَاية القُرون الوسْطىٰ.

---

(١) ٱلْأَحْقَاف: ٣١ ـ ٣٢.

(٢) ٱلنَّحْل: ٩٧.

(٣) ٱلتَّوْبَة: ٧٢.

كَانَت الحُرُوب الصَّليبيَّة قَد حَمَلت إِلَىٰ أُوربَا مَع الجنُود العَائدِين بذُور التَّغيِّير مِن العَالَم الْإِسْلاَميّ ـ العَرَبي ، ومِن بِيزَنْطَة .

ثُمَّ سَقَطت القُسطَنطِينيَّة ، وَاكتَشفت أَمريكَا ، وَاكتَشفت طُرق جَدِيدَة برّيَّة وَبَحرّيَّة أَثّرَت عَلَىٰ التِّجَارة العَالميَّة ، وَاخْتَرعت الْآلَة البُخاريَّة وَالنّول المِيكَانِيكي ، وَحَقّقت صنَاعَة السِّلاح تَقدّمُاً فِي التِّقنيَّة ، وَتَحسّنت وَسَائِل المَوَاصلاَت ... وَتفَاعل ذَلِكَ كُلّه مَع أَفْكَار الفَلاَسفَة ، وَنَظريَات الْإِقتصَاديِّين ، وَصَيحَات المُصلحِين الْإِجتمَاعيِّين ، وَطمُوحَات مُلُوك الحُكم المُطلَّق وسَاستهُم الْأَقويَاء الدّهَاة ، وَأَحلاَم الشُّعراء ، وَالقُصّاص ، وَالفَنَّانِين ... تَفَاعل ذَلِكَ كُلّه ، فَوَلدَت الرَّأسْمَالِيَّة عَلَىٰ مَرَاحل كَطرِيقَة حَيَاة وَأُسلُوب إِنتَاج للسِّلع .

وَبَدَأت بولاَدَة طَرِيقَة الحَيَاة هَذِهِ مَأسَاة جَدِيدَة فِي تَأرِيخ الْإِنْسَان الْأُوربي ، ومَن ثَمَّ فِي تَأرِيخ إِنْسَان العَالَم .

اَستَهلّت الرَّأسْمَالِيَّة عَهدهَا ، مدفُوعَة بشَهوَة الكَسب الَّتي لاَ يُقَيدّهَا شَيء ، هجُومهَا فِي كُلّ وَطَن عَلَىٰ إِنْسَان وَطنهَا هِي ، مُسَلّحَة بكُلّ قِوىٰ الْإِغرَاء وَالقَمع : بالمَال ، وَالسِّلاح ، وَالقَانُون .

فحَولّت الفَلاّحِين إِلَىٰ عُمّال ، وَأَفرَغَت ، بَذَلِكَ الرِّيف وَضَخّمَت المُدن بإِحيَاء الصَّفِيح لفَلاَّحي الْأَمس فِي ظِل أَسوَء ظُرُوف العَيش لهَؤلاَء العُمَّال الَّذِين وَقعُوا فِي المَصيَدَة حِينَ فَقَدوا مِن جِهَة أَرضهِم الَّتي حَولّهَا الْإِقطَاعيُون الكِبَار إِلَىٰ مَرَاع للمَاشيَة لخِدمَة صنَاعَات النَّسِيج المُربحَة ، وَوَاجهُوا مِن جِهَة أُخرىٰ الْآلَة الرَّأسْمَالِيَّة الوَحشيَّة الَهَائلَة دُون أَنْ يَقدرُوا عَلَىٰ مُقَاومتهَا .

وَفُرض عَلَيهم أَنْ يَقْبلُوا ، لقَاء عَمَلهُم ، بأُجُور لاَ تَكَاد تَكفي للقُوت

الضَّرُوري، وَتَعرضُوا لشَي الخُدع فِي إنفَاقهم لِهَذَا الأَجر الزَّهِيد... وهَكَذَا مَضَت الآلَة الرَّأسْمَالِيَّة تَمْتصّهُم حَتَّىٰ المَوْت.

وَحَطَّمَت بإندفَاعهَا فِي التَّوسع وَالإِنْتشَار بُنْيَة الأُسرَة، وَفَكّكت عُرَاهَا حَيت فَرّقت بَيْنَ أَفرَادهَا الَّذِين ٱنْطَلَقُوا هُنَا وهُنَاك بَحْثَاً عَن العَمل وَالقُوت. وَٱضْطَّرت المَرأة ـ أُمَّاً وَزَوّجة وَفتَاة ـ إِلَىٰ أَنْ تُزَاول العَمل، وأَنْ تَهجُر أُسرتهَا إِذَا ٱقْتَضىٰ الحَال ذَلِكَ بحَثَاً عَن العَمل. وَقَد تَفَاعل وَضع المَرأَة هَذَا مَع تَنَامي رَغبَة الرِّجَال فِي إِطَالَة العُزُوبة فرَارَاً مِن الزَّوَاج وَمَا يُوجبَه مِن مَسؤوليَات، فَأَدّىٰ ذَلِكَ إِلَىٰ بدَايَات الفُوضىٰ الجِنسيَّة الَّتي تَعَاظمَت بإِستمرَار وَلَم تَقف عِنْدَ حَدّ حَتَّىٰ الآنْ، حَيْث غدَت وَاقعَاً مُعْتَرفَاً بِهِ، بَل يَجد فِي المُفكّرين وَالفلاَسفَة مِن يُفلسفه وَيَبْحث لَهُ عَن المُبرّرَات الأَخلاَقيَّة.

وَأُعيد تَعمِير أُوربَا بقُوّة الإِنْتَاج الكَبِير الَّذي وَفّرَته الرَّأسْمَالِيَّة بعَرق وَدمَاء المَلاَيِّين مِن العُمَّال الَّذِين كَان فِيْهم عَدَد كَبِير مِن العُمَّال الأَطْفَال.

وَتَفَتّحت، رُويداً رُويداً، أَعيُن العُمَّال عَلَىٰ بشَاعَة مَأسَاتهم، وَوعوا قَسَاوة الظُّلم وَالإِستغلاَل اللَّذَين تُمَارسهُما القِوىٰ الرَّأسْمَالِيَّة عَلَيهم؛ فَتَحركُوا بهَدَف تَغيِّير وَاقعهُم المَرِير بالإِضرَابَات وَالتَّظاهرَات الَّتي كَانَت تُقمَع بقُوّة السِّلاح مِن قِبل قِوىٰ السُّلطَة الشَّرعيَّة - لأَنَّهَا مُحرّمَة بحُكم القَانُون ـ وَيَسقط القَتلىٰ بِالعَشرَات وَالمِئَات، ويَعُود العُمَّال صَاغرِين إِلَىٰ مصَانعهِم لأَنَّ الإِضرَاب يَعْني الجُوع.

وَلَكن جهَاد العُمَّال فِي سبِيل تَحسِين أَوضَاعهم لَم يَتَوقف، وَلَم تُفلح أَسَالِيب القَمع فِي أَنْ تَضع لَهُ حَدّاً، لقَد تَكتَّل العُمَّال فِي جَمعيَات، ثُمَّ فِي نقَابَات طَالَبَت الحُكومَات بسَنّ تَشريعَات مُنَاسبَة للعُمَّال تُخَفف شَيئَاً مِن قَسوَة وَاقعهُم وَتَحدّ

مِن سُلطَة رَأس المَال عَلَيهِم. فَٱستَيقَظت ضَمَائِر نُخبَة مِن المُفكّرين وَالمُصْلحِين الْإِجْتمَاعيِّين عَلَىٰ بشَاعَة مَا يَحدث وَفدَاحَة الظُّلم الَّذي يَتعَرض لَهُ هَؤْلاَء العُمَّال فَعَملوا عَلَىٰ تَهيئَة الضَّمَائر فِي المُجْتَمع للتَّغيِّير فِي أُسلُوب ٱستغلاَل العُمَّال. وَسَاهَمت فِي ذَلِكَ الصَّحَافَة اليَوميَّة، والشِّعر والقِصّة، وَتَكوَّن بَذَلِكَ رَأي عَام فِي المُجْتَمعَات لمَصلحَة العُمَّال... وَبدَأت تُلِين قَنَاة الرَّأسْمَالِيَّة تَدرِيجاً أَمَام الضَّغط الهَائل الَّذي مَارَستهُ الشُّعُوب عَلَىٰ تَكَتّل الرَّأسمَاليِّين، وهَكَذَا وَجَدت طَريقهَا إِلَىٰ النُّور التَّشريعَات الَّتي تَصون حقُوق العُمَّال وَتُنصفهُم وَتُحسّن ظُرُوف العَمَل.

وأَخِيرَاً أَدرَك عُلمَاء الْإِقْتصَاد (الحُرّ) الرَّأسمَالي أَنَّ الْإِسْلاَم الْإِجْتمَاعي لاَ يُفِيد العُمَّال وَحدَهُم، وَإِنَّما يَعُود عَلَىٰ العَمل بفوَائِد كَبِيرَة أَيْضَاً، ومَن ثَمَّ فإِنَّهُ يَزِيد الْأَربَاح ـ هَاجس الرَّأسْمَالِيَّة وَمُحركهَا الْأَعْظَم ـ لْأَنّه يُقَلّل مِن تَعطِيل المَصَانع، وَيَحفظ سَلاَمَة الْآلاَت الَّتي كَان العُمَّال فِي بَعْض الْأَحيَان يَنْتقمُون بِتَحطِيمهَا، وَيَجوّد كفَاءَة العَامل... وَإِذَن فَتَحسِين ظُرُوف العَمَل وَرَفع مُستَوىٰ حَيَاة العَامل لَيْسَ صَدَقة وَلاَ إِحْسَانَاً وَإِنَّما هُو ٱستثمَار للمَال يَعُود بمَزِيد مِن الرِّبح... وَهَكَذَا زَادَت الفُرص أَمَام العُمَّال فِي أَوطَان الرَّأسْمَالِيَّة لتَحسِين أَوضَاعهم، وَنِعمَ العُمَّال فِي مرَاكز الرَّأسْمَالِيَّة الكُبْرىٰ فِي أُوربَا وَأَمريكَا بسمُتويَات مِن العَيش جَيدَة، وَبظُرُوف عَمَل مُرِيحَة، وَبعَطلاَت أَطوَل وَمَدفُوعَة الْأَجر، وَبمعَاشَات تَقَاعديَّة، وَغَير ذَلِكَ مِن الْإِمتِيَازَات.

وَلَكن حِينَ أَذِنَت مَأسَاة عُمّال الرَّأسْمَالِيَّة فِي أَوطَانهَا بالْإِنْتهَاء تَعَاظمَت مَأسَاة شُعُوب العَالم الثَّالِث الَّتي تَوجَّه الوَحش الرَّأسمَالي بأَنيَابه إِلَيهَا.

فَفي سَبِيل التَّوسع الصّنَاعي وَالموَاد الخَام، وَزيَادة الرِّبح وَتَصرِيف الْإِنْتَاج

الَّذي فَاض عَن حَاجَة الْأَسوَاق الدَّاخليَّة فِي أُوربَا، تَنَافسَت دُول أُوربَا الرَّأسْمَالِيَّة عَلَىٰ آسيَا، وَأَفريقيَا لْأَجْل فَرض السَّيطرَة السِّياسيَّة وَالعَسكريَّة الَّتي تَضمن حِيَازَة جَمِيع المَنَافع، فَهَجمَت عَلَىٰ هَاتَين القَارتَين فَاتحَة مُسْتَعمرَة، فَارضَة سِيَادَة الرَّجل الْأَبْيَض عَلَىٰ مَئَات المَلاَيِّين مِن النَّاس بكُلّ مَا تَعْنِيه هَذِهِ السِّيَادَة مِن تَسَلُّط سِيَاسي، وَٱستِيطَان، وَنَهب للثَّروَات، وَتجَارَة بالرَّقِيق، وَلحَيلُولَة دُون شُعُوب القَارتَين، ودُون ٱهتبَال أي فُرصَة للنّهُوض وَالتَّحرر، وَتَحوِيل المُسْتَعمرَات إِلَىٰ أَسوَاق لْإِستهلاَك مَا تُنْتجَهُ مَصَانع أُوربَا مِن سِلَع، وَنَجد دَائِمَاً عِنْدَ جَمِيع القِوىٰ الْأُوربيَّة المُسْتَعمرَة هَمَّاً كَبِيرَاً وَهَاجسَاً دَائِمَاً هُو الْإِسْلاَم الَّذي كَان وَلاَ يَزَال يُمثّل القُوّة المَعنويَّة وَالرُّوحيَّة للمُقَاومَة، وَالصِّيغَة الحَضَاريَّة البَدِيلَة، فكَان يُخِيفهَا مِنْهُ أَنْ تُتَاح لَهُ فُرصَة الْإِنْبعَاث فِي قُلُوب وَعقُول أَبْنَاء المُسْتَعمرَات فَيُهدد وجُودهَا، وَيَدفع بأَبنَاء المُسْتَعمرَات إِلَىٰ أَنْ يَسْتَعيدُوا وجُودهُم المَسلُوب وَحُرّيَّتهم المُصَادرَة، فَيُحَرّورا بهِ أَنْفسهِم مِن مُسْتَعمرِيهم، ومِن هُنَا فَقَد تَعرّض الْإِسْلاَم فِي عُقُول وَقُلُوب أَبنَاء المُسْتعمرَات لْأَكبَر عَمَليَّة تَشوِيه مَرّت بهَا عَقِيدَة مِن العَقَائِد وَشَريعَة مِن الشَّرائِع عَلَىٰ أَيدي أَعدَائهَا، وذَلِكَ لِكي يَشلّوا فَاعِليَته وَتَأثِيره، وَوجهّوا هَمّهم إِلَىٰ السَّيطرَة عَلَىٰ التَّعلِيم ليُحَولُوا بَيْنَ نَاشئَة أَبنَاء المُسْتَعمرَات المُسْلِمِين وبَيْنَ أَنْ يَكُون الْإِسْلاَم: عَقِيدَته، وَشَرِيعَته، وَقِيمَه وَمَفَاهِيمه جُزءً مِن شَخصِيتهِم المَعنويَّة، وَعَامِلاً فِي صِيَانَة هَذِهِ الشَّخصيَّة فَلاَ تَهُن وَلاَ تَسْتَلم، وَقَد أَفْلحُوا فِي ذَلِكَ إِلَىٰ حَدٍ بَعِيد.

لقَد كَانَت الرَّأسْمَالِيَّة ـ بمَا هِي ٱستعمَار وَٱسغلاَل ٱقتصَادي ـ لشُعُوب آسيَا وَأَفريقيَا كالحِذَاء الحَدِيدي الَّذي يُحكىٰ أَنَّ الصِّينيِّين القُدمَاء كَانُوا يَضعُون أَقدَام

فَتيَاتهم فِيهِ لغَايَات جمَاليَة فكَان يُشوّه أَقدَامهُنَّ وَيَجعلهُنّ عَاجزَات حِينَ يَحول بَيْنهنَّ وبَيْنَ النَّمو الطَبيعِي الحُرّ، وهَكَذَا كَانَت الرَّأسْمَالِيَّة: مَنْعَت شعُوب آسيَا وَأَفرِيقيَا مِن النَّمو وَشَوّهت صُورتهَا أَمَام نَفْسهَا حِينَ غَرَست فِيْهَا رُوح الشَّك وَالشُّعُور بالدُّونيَّة وَأَمَام العَالَم؛ وَلِكي تَتُم المُقَارنَة مَع الحذَاء الصِّيني نَذْكر أَنَّ الرَّأسْمَالِيَّة كَانَت تُمَارس عَملِيتهَا تَحت شعَار (رِسَالَة الرَّجل الْأَبْيَض) وَلَكن مِن المُؤكّد أَنَّ كَهنَة الرَّأسْمَالِيَّة لَم يَكن لَدَيهم ذَرّة مِن حَسنَة النِّية الَّتي كَانَت عِنْدَ الْآبَاء الصِّينيِّين ٱتّجَاه بنَاتهِم.

* * *

وَحِينَ تَعَاظمَت مَوجَة النِّقمَة لَدىٰ شعُوب آسيَا وَأَفرِيقيَا تَفْجّرت ثَورَات هَذِهِ الشُّعُوب ضِدّ تَسلّط القِوىٰ الْإِستعمَاريَّة الرَّأسْمَالِيَّة، وتَكُون، عَلَىٰ مَهل، رَأي عَامّ عَالمي أَدَان الْإِسْتعمَار عَلَىٰ أُسّس أَخلاَقيَّة. وَلَكن القِوىٰ الرَّأسْمَالِيَّة الَّتي كَانَت بَعِيدَة عَن أَنْ تَسْتَجِيب لدَاعي الْأَخْلاَق ٱضْطّرت أَنْ تَسْتَجِيب لحَقَائِق السِّيَاسَة الدَّوليَّة حِينَ وَجَدت أَمَامهَا قوّة عَالميَّة أُخرىٰ هِي المَجمُوعَة الْإِشترَاكيَّة الَّتي وَلَدَت بثوَرَة رُوسيَا سَنَة (١٩١٧ م) بَيْنَ أَطلاَل عَالم الحَرب العَالميَّة الْأُولىٰ. لقَد شَبّت هَذِهِ القوّة الجَدِيدَة عَن الطَّوق، وَغَدت تُنَافس الرَّأسْمَالِيَّة فِي السِّباق إِلَىٰ ٱستثمَار الرَّأسْمَالِيَّة أَسَاليبهَا فِي التَّعامل مَع الشُّعُوب المُسْتَعمرَة وَشُبه المُسْتَعمرَة، فَقُلصّت عَلَىٰ مَهل تَسلطهَا العَسكَري، والسِّيَاسي المُبَاشر الَّذي يَفرض عَلَيهَا ٱلتزَامَات مَاليَة تَنْقص مِن أَربَاحها. وَيَضعهَا ـ أَمَام الرَّأي العَامّ العَالمي الرَّافض للْإِستعمَار ـ فِي مَوَاقف مُحرجَة، وَيُتِيح للْإِتحَاد السُّوفيَاتي أَنْ يَتَسلل إِلَىٰ مَوَاقعهَا مِن خِلاَل الآمَال بالتَّحرّر، وَٱستُبدلَت

بالْإستعمَار المُبَاشر صِيغَاً أُخرىٰ للتَّسلط السِّيَاسي ، وَالْإقتصَادي ، وَالعَسكَـري تُؤَمّن لَهَا جَمِيع الْإمتيَازَات القَدِيمَة دُون أَي مُضَايقَات ـ هَذِهِ الصِّيغ يَجْمعهَا مَـا يُسمّىٰ بـ(الْإسْتعمَار الجَدِيد) .

لَقَد أُبـرمَت المُـعَاهدَات بَـيْنَ الدُّول الْإسـتعمَاريَّة وَمُسـتَعمرَاتـها السَّـابقَة . وَتَتضَمن هَذِهِ المُعَاهدَات إمتِيَازَات إِقْـتصَاديَّة ، وَسـيَاسيَّة ، وَعَسكـريَّة للـدَّولَة المُسْتَعمرَة سَابقَاً ، كَمَا أَعَادَت القِوىٰ الرَّأسْمَالِيَّة المَاليَّة وَالصّناعيَّة تَنظِيم نَـفْسهَا فِي تَكْتلاَت (تروست) ذَات قوّة مَاليَّة ، وَسيَاسيَّة ، وَٱقتصَاديَّة هَائِلَة ٱحْـتكَرت تجَارة الموَاد الخَام ، وَالمُنتجَات الصّناعيَّة فِي العَالم . مِمَّا جَعَل الدُّوَل المُتَحرّرة (المُسْتَعمَرة سَابقَاً) تَقف عَاجزَة فِي غَالب االْأَحيَان تَقف عَاجزَة أَمَـام سـيَاسَة الْأَسعَار الَّتي تَفرضهَا الْإحتكَارَات الرَّأسْمَالِيَّة الكُبْرىٰ ، فَتَجد نَفْسهَا مُضْطرَة إِلَىٰ أَنْ تَبِيع سِلعتهَا (فُوسفَات ، نَفْط ، حَدِيد ، كِبرِيت ، ٱورَانيُوم ، بُنّ ، شَاي ، كَاكَاو . . . إِلَخ) لتمُوّل مَشروعَات التَّنميَة وَلتُنفق عَلَىٰ جهَازهَا الْإدَاري وعَلَىٰ (جَيشهَا) .

وَحِينَ تَطْمَح بَعْض الدُّوَل إِلَىٰ ٱمتلاَك نَاصيَة الْأُمور ، وَتُقَرّر الْإسـتيلاَء عَـلَىٰ ثَروتهَا الوَطنيَّة ، وَالْإستقلاَل فِي التَّصرف فِيْهَا بمَا يَضمن مصَالح شَعبهَا أَو تَقْتَرح أَسعَاراً عَادلَة لسِلعتهَا لاَ تَعدم الدُّوَل الْإستعمَاريَّة والْإحْتكَارَات العَالميَّة وَسَائِل مُتنَوعة تَشل فِيْهَا قُدرَة الدَّولَة الضَّعيفَة عَلَىٰ تَسوِيق سِلعتهَا ، وَتَخلق لَهَا المَتَاعب الدَّاخليَّة الَّتي قَد تُؤدّي إِلَىٰ قَلب نظَام حُكمهَا وَٱستبدَالَهُ بنظَام آخر مُطوّاع (وَاقِعي وأَكْثَر تَعقُلاً) ومَن ثُمَّ أَكْثَر ٱضطرَاراً للبَيع بالسِّعر الَّذي تَرَاه الْإحْتكَارَات مُنَاسبَاً .

كَمَا عَملَت القِوىٰ الْإستعمَاريَّة السَّـابقَة عَـلَىٰ إِثَـارَة النِّـزَاعَـات الْإقـلِيميَّة وَالعُنصريَّة ، وَالدِّينيَّة ، وَالقَبليَّة بَيْنَ الدُّوَل المُتخلفَة فِي العَـالَم الثَّـالِث ، مُسْـتَغلَة

للتَوصل إِلَىٰ ذَلِكَ مَا غَرَستع أَثنَاء الْإِسْتعمَار مِن مَفَاهِيم ثقَافيَّة لَهَا طَابع التَّفرِيق وَالتَّقسِيم فِي شعُوب هَذِهِ الدُّوَل، دَافعَة بهَا مِن خِلاَل هَذِهِ النّزَاعَات إِلَىٰ الحُرُوب الْأَهليَّة وَالْإِقلِيميَّة، وإِلَىٰ تَوريطهَا فِي مُنَازعَات وَأَزمَات سيَاسيَّة كُبرىٰ بَيْنَ بَعْضهَا وفِي دَاخل كُلّ دَولة مِنْهَا، مُلجئَة لْأَنظمَتها المُخْتَلفَة ضَعِيفَة إِلَىٰ البَحْث لدَىٰ الدُّوَل المُسْتَعمرَة السَّابقَة عَن مُحَالفَات سيَاسيَّة تُقَوي مَركزهَا فِي الدَّاخل أَمَام شَعبهَا أَو فَرِيق مِنْهُ وأَمَام خصُومهَا فِي الخَارج، وَدَافعَة لَهَا إِلَىٰ البَحْث، بأَي ثَمَن، عَن السِّلاح الَّذي تَحْتَكر صنْعه الدُّوَل الْإِستعمَاريَّة؛ بَاذلَة فِي سَبِيل الحصُول عَلَيهِ ثَمَن موَادهَا الخَام، مُعَطلة مشَارِيع التَّنميَة لشُعوبهَا وَأوطَانها، مُزدَادَة فَقرَاً وَتَخلُفَاً ومَن ثُمَّ عَجزَاً عَن المُقَاومَة، ومَن ثُمَّ خضُوعَاً لمَا تُملِيه إِرَادَات القِوىٰ الرَّأسْمَالِيَّة وٱحْتكَارَاتها الكُبْرىٰ... مُسْتَمتعَة بحُرّيَّة وَسيَادَة وَهمِيَتَين!!؟؟.

وَقَد كَانَت حَصِيلَة المُسْلِمين عَامّة وَالعَرب مِنْهُم بوَجهٍ خَاصّ مِن بَلاَء هَذَا الْإِسْتعمَار الرَّأسمَالي كَبِيرة جدّاً، لقَد تَسَلطَت القِوىٰ الرَّأسْمَالِيَّة عَلَىٰ جَمِيع العَالَم الْإِسْلاَميّ تَقريبَاً، بَل عَلَىٰ جَمِيعه إِذَا ٱعْتَبرنَا السَّيطرَة غَير المُبَاشرَة، وَقَد خَرّب الْإِسْتعمَار فِي العَالم الْإِسْلاَميّ كُلّمَا ٱستطَاع أَنْ يُخرّبه، وكَان أَعظَم تَخرِيبه فِي شَخصيَّة الْإِنْسَان المُسْلِم. وَأَعظَم مِحَن العَالَم الْإِسْلاَميّ مِن الْإِسْتعمَار مِحْنَة فَلسطِين الَّتي تُعتَبر أَعْظَم مِحَن المُسْلِمين فِي التَّأرِيخ ـ حَتَّىٰ بالقيَاس إِلَىٰ ضَيَاع الْأُندُلس ـ فَقَد طَرَد الْإِسْتعمَار القَدِيم بالتّعاون مَع الصّهيونيَّه شَعبهَا المُسلِم، وَأَسكَن فِيهَا اليَهُود الَّذِين نَفرُوا إِلَيهَا مِن جَمِيع بُقَاع الدُّنيَا ليُنشئُوا مَا أَسمَوه بـ (دَولَة إِسرَائِيل) مَدفُوعِين بأَحلاَم خُرَافيَّة ٱستمدّوهَا مِن ثورَاتهم، وَقَد ثَبّت

الْإِسْتعمَار الجَدِيد هَذِهِ الدَّولَة، وَوَفّر لَهَا أَسْبَاب القوّة وَالتّسلط، فَشَتّت بهَا العَرب، وَاسْتَنفَد ثروَاتهم ـ وعَلَىٰ رَأسها ثروَة النّفط ـ بالسِّلاح الَّذي يُبيعَه إيَّاهُم ليَحمُوا أَنْفسهم مِن طَلِيعَته وَربِيبَته الَّتي غَرسهَا فِي قَلب وَطَنهم. وَحَرمهُم الْإِسْتقرَار السِّيَاسي، وَجَعلهُم طِيلَة ثُلث قَرن يَعِيشُون فِي ظِلّ الخَوف مِن عُدوَان إِسْرَائِيل الَّتي شَجّعهَا الْإِسْتعمَار الجَدِيد عَلَىٰ أَنْ تَحْتَل فِي النّهايَة جَمِيع أَرْض فَلسطِين وَجُزءً مِن سُوريَا، وَمَصْر، وَالْأُرْدُن[1].

هَذِهِ هِي الرَّأسْمَالِيَّة الَّتي تَقُود خُطَاها فِي اَستغلاَل العَالَم قِيَم الجَاهليَّة: المَادِيَّة، وَالحَيوَانيَّة، وَاللَّاأَخْلاَقيَّة، وَرُوح العُدوَان[2].

* * *

لَقَد كَانَت المَارْكسيَّة أَحد التَّعابِير السِّياسيَّة ـ الفِكْرِيَّة عَن صَرخَات العَذَاب الَّتي أَطْلقتهَا الطَّبقَة العَامِلَة فِي أُوربَا ضِدّ رَأسمَاليَّة القَرن التَّاسع عَشر الطَّاغيَة البَاغيَة عَلَىٰ شُعوبهَا وعَلَىٰ العَالَم. وَلَكنّ النِّظَام الَّذي بني عَلَىٰ قوَاعدهَا وَمَبادئهَا سُرعَان مَا مَارس فِي الدَّاخل وَالخَارج سيَاسَات إِنْ كَانَت قَد تَجَنّبَت الوقُوع فِي بَعْض المَآخذ عَلَىٰ الرَّأسْمَالِيَّة فِي صِيغتهَا القَدِيمَة أَو صِيغتهَا الجَدِيدَة، فإنّها لَم تَعدم أَخطَاء كُبرىٰ فِي سيَاسَاتها اَتّجَاه شعُوبهَا وَاَتّجَاه شُعُوب العَالم الثَّالِث،

(١) وَهَا هِي دَولَة الصَّهاينَة تَحتَل أَخِيراً جَبَل عَامل (لُبنَان الجَنُوبي) فَتُشَرّد عَشرزات الْأُلُوف مِن قُرَاهُم وَتَقْتُل المِئَات، وَتَهدم مِئَات المَنَازل وَتَضع بِإِحتلاَلهَا الجنُوب فِي غَمرَة أَخطَار سيَاسَة غَامِضَة طَالمَا حَذّرنَا مِنْها، نَسأَل الله أَنْ يَرزقنَا البَصِيرَة لنوَاجه مَسؤوليَاتنا بشجَاعَة، وَنَتَحمل وَاجبَاتنَا بإِخلاَص. (مِنْهُ ﵀).

(٢) عَن طَبِيعَة الجَاهليَّة وَتَركِيبهَا لاَحظ كتَابنَا (بَيْنَ الجَاهليَّة والإِسْلاَم) نَشر دَار الكِتَاب اللُّبنَاني ـ دَار الكِتَاب المَصْري (١٣٩٥هـ / ١٩٧٥م). فَصْل الجَاهليَّة الحَدِيثَة. (مِنْهُ ﵀).

وَكَشَفت عَن طمُوحَات للسَّيطرَة وَبَسط النّفوذ جَعَلتهَا فِي نَظر شعُوب العَالم الثَّالِث قوّة يَنْبَغي الحَذَر مِنْهَا ، لْأَنَّ طمُوحَاتها فِي السَّيطرَة السِّياسيَّة والْإِقْتصَاديَّة تُمَاثل تِلْكَ الطّمُوحَات الَّتي تُحرك القِوىٰ الرَّأسْمَالِيَّة نحَو العَالَم الثَّالِث ، وَتَرسم خُطَطها فِي التَّعامل مَعَهُ .

وكَانَت ثَورَات شُعُوب العَالم الثَّالِث صَرخَات العَذَاب الْأَلِيم الَّتي تُطلقهَا هَذِهِ الشُّعُوب ضِدّ الرَّأسْمَالِيَّة الْأُوربيَّة مُمَثّلة بالْإِستعمَار .

وكَانَت أُوربَا الرَّأسْمَالِيَّة ـ الْإِستعمَاريَّة ـ إِلَىٰ حِينَ الحَرب العَالميَّة الثَّانيَة ـ تَحكُم العَالَم الثَّالِث وِفقاً لمُعَادلَة مُتضَادّة الطَّرفَين ، غَدَا مِن المُسْتَحِيل بَعْد الحَرْب الْإِستمرَار فِيْهَا . كَانَت تَحكُم العَالَم برُوحيّة وأُسلُوب العِلم الحَدِيث فِي التَّنظِيم المُجْتَمعي وَآستثمَار الطَّبِيعَة وَالطَّاقة ، هَذَا العِلم الَّذي وَضع الْإِنْسَانيَّة فِي العَصر الذَّرّي ـ مِن جِهَة ـ وَبرُوح وأُسلُوب عَصر الْإِنطلاَق الْإِستعمَاري الْأَعظَم فِي القَرنَين الثَّامِن عَشر وَالتَّاسع عَشر للمِيلاَد فِي مجَال العِلاَقَات الدُّوليَة ، ومِن جِهَة أُخرىٰ ، وَقَد وَلّدت هَذِهِ المُعَادلَة تنَاقُضَاً فِي الوَاقع بَيْنَ القِوىٰ الَّتي تَنْسج الوَاقع وَتُولّد الْأَفكَار ـ وهِي قِوىٰ العِلم المُنْفَتح ـ وبَيْنَ الْأَفكَار الَّتي يُرَاد صيَاغَة الوَاقع وفقاً لَهَا . لَقَد غَدَا الْإِستمرَار فِي هَذِهِ المُعَادلَة مُستَحِيلاً بَعْد الحَرب العَالميَّة الثَّانِيَة ، إِنَّ أَفكَار الوَاقع كَانَت تَضغط بآتّجَاه أُسلُوب أَكثَر أَخْلاَقيَّة فِي العِلاَقَات الدَّوليَّة عَلَىٰ خِلاَف رَغبَات القِوىٰ الرَّأسْمَالِيَّة الَّتي كَانَت تَضْغط بالقوّة المُسلحَة لرَسم وَاقع العِلاَقَات الدَّوليَّة عَلَىٰ ضَوء أَفكَار القَرن التَّاسع عَشَر .

وَقَد تَمَثّلت المَعَالم العَامّة لِهَذَا الْأُسلُوب الْأَخلاَقي فِي العِلاَقَات الدَّوليَّة فِي الْآمَال الَّتي آخْتَلجَت بهَا قُلُوب مِئَات المَلاَيِّين مِن شعُوب العَالَم الثَّالِث نَتِيجَة لمَا

وَلّدَته الحَرب العَالميَّة الثَّانيَة بمَا رَافقهَا مِن عُنف وَوَحشيَّة فِي الصّرَاع المَجنُون بَيْنَ النَّازيَّة والدّيمُقراطيَات الغَربيَّة والإتّحَاد السّوفيَاتي ـ فِي هَذِهِ الشُّعُوب مِن وَعي لوَاقعهَا الأَلِيم، كَمَا وَأَنَّها رَفَعت دَرجَة إحسَاسها بقَهرهَا وَذُلّهَا وَٱنحطَاط حيَاتهَا، وَكوّنَت لَديهَا آمَالاً جَدِيدَة فِي الحُرّيَّة، وَالعَدَالة، وَالرَّخاء عَزّزتهَا وعُود المُنْتَصرِين، وَقَد دَفَعت هَذِهِ الآمَال الجَدِيدَة الزَّاهيَّة، وَالتَّطلعَات إِلَىٰ نظَام عَالمي جَدِيد بالشُّعوب المَقهُورَة إِلَىٰ أَنْ تَبحَث لنَفسهَا عَن صِيغ فِي التَّعاون الدُّوَلي تُحقّق آمالَهَا وَتَطلعَاتها.

وَلَكنَّ العَالم الغَربي حَاول أَنْ يَحتَال عَلَىٰ هَذِهِ الحَقِيقَة، وأَنْ يَقف فِي وَجْه حَركَة التَّأرِيخ، وأَنْ يَجهَض القِوىٰ الرُّوحيَّة العُظمىٰ الَّتي ٱختَلج بهَا العَالَم الثَّالِث مُندَفعاً نَحو الانعتَاق بإستعمَال أَسَالِيب القَمع المُبَاشر تَارَة وأَسَالِيب الإِسْتعمَار الجَدِيد تَارَة أُخرىٰ، وَسَاعَده عَلَىٰ ذَلِكَ أَنَّ القوّة العَالميَّة الأُخرىٰ (العَالم الإِشترَاكي) سَقَط ـ كَمَا ذكَرنا ـ فِي إغرَاء التَّسلط العَسكَري والسِّيَاسي وَبَسط النّفوذ مِمَّا أَعطىٰ كِلتَا القوّتين العُظمَيَّين قُدرَة عَلَىٰ المُسَاومَة مَع غَرِيمَتها لتَحقّيق أَهدَافها.

وهَكَذَا ٱكْتَشف العَالَم الثَّالِث أَنَّهُ وَقع بَيْنَ فكّي كَمَاشَة فَتَكَتلت شعُوبه المُسْتَقلة وتِلْكَ الَّتي كَانَت لاَ تَزَال مَقهُورَة وَمُستَعمرَة تَخُوض ثَورَات دَاميَة فِي سَبِيل التَّحرر الوَطني. تَكتّلت فِي تَجمع عَالمي يمُثّل أَخلاَقيَة جَدِيدَة فِي السِّيَاسَة الدَّوليَّة، تَجْعل العِلاَقَات الدُّوليَّة قَائِمَة عَلَىٰ العَدل والأَخْلاَق وَحُكم القَانُون؛ فكَان مُؤتَمر (بَاندونج) الَّذي وَضعت فِيهِ مَبَاديء الحيَاد الإِيجَابي وَعَدم الانحيَاز بَيْنَ القُوتَين العَظمَيِّين فِي العَالم.

وهَكَذَا وُلد فِي (باندونج) مَفهُوم جَدِيد للسّيَاسَة الدَّوليَّة وَالعلاَقَات بَيْنَ الدُّوَل

يقُوم عَلَىٰ رُؤية رُوحيَّة ـ أَخْلاَقيَّة ، فِي مُقَابل المَفهُوم السَّائد الَّذي يَـقُوم عَـلَىٰ منَطْق القوّة .

لَقَد كَان مُؤتَمر (باندونج) صَرخَة عَذَاب أَيْضَاً أَطـلقهَا العَـالَم الثَّـالِث الَّـذي اكتَشف أَنَّهُ وَقع بَيْنَ فَكّي كَمَاشَة النّظامَين الأَعظمَين ـ الرَّأسمَالي وَالإِشترَاكي ـ بَحثَاً عَن وَضعيَة جَدِيدَة فِي السِّيَاسَة الدَّوليَّة تَضمن لوحدَاته السِّياسيَّة مُـعَاملَة أَكْثَر عَدلاً ، وَوضعَاً أَكْثَر أَمنَاً ، وَحَركَة أَكْثَر حُرّيَّة فِي رَسم سـيَاسَاتها الوَطـنيَّة وَالخَارجيَّة .

وَلَكن رُوح (باندونج) ، وَالنّزعَة الَّتي حَركَت ضَمَائِر مِئَات المَلاَيِّين مِن البَشر فِي العَالَم الثَّالِث نَحو بنَاء قوّة عَالميَّة ثَالثَة لاَ تَقُوم عَلَىٰ مَبَاديء القوّة وَالسَّيطرَة ، وَإِنَّمَا تقُوم عَلَىٰ مَبَاديء الأَخْلاَق ، والقَانُون ، وَالتَّعاون ـ هَذِهِ الرُّوح وهَذَا الطّمُوح لاَ يُنَاسب مصَالح مرَاكز الثّقل فِي النِّظَام الرَّأسمَالي العَالمي والنِّظَام الإِشْترَاكـي العَالَمي ، فَعَملت مرَاكز الثّقل فِي النّظَامَين عَلَىٰ إِجهَاض مُحَاولاَت بنَاء هَذِهِ القوّة العَالميَّة الثَّالِثَة مُستَغلة تَخلّف هَذِهِ الشُّعُوب ، ضَعف أَنظمَة الحُكم فِيْهَا ، وَفَقرهَا ، وَعَجزهَا العِلمي وَالتَّقني الَّذي قَصر بها عَن إِستغلاَل ثَروَاتها بنَفسهَا ، وَأَلجَأهَا إِلَىٰ عَرض هَذِهِ الثَّروَات فِي السُّوق العَالمي الَّذي تَـحْكُم إِقـتصَاديَاته احـتكَارَات الرَّأسْمَالِيَّة الكُبْرىٰ ، ومُؤسّسات الإِقْتصَاد فِي النِّظَام الإِشْترَاكي ، فعَادَت ، نَتِيجَة لذَلِكَ ، القُوّتان العَظِيمتَان إِلَىٰ العَالَم الثَّالِث .

وَلئَلّا تَعود فِكرَة القوّة الجَدِيدَة فِي المُجْتَمع الدُّوَلي إِلَىٰ الظّهُور بصُورَة فَاعلَة اسْتَخدَمت القِوىٰ العَالميَّة القَادرَة كُلّ الوسَائل لإِيجَاد حَالاَت العدَاء المُسَلّح بَيْنَ مَجمُوعَات أَنْظمَة العَالم الثَّالِث ، فَنَشبَت الحُـرُوب الإِقـلِيميَّة الَّـتي زَادَت هَـذِهِ

الشُّعُوب ضَعفاً وَاتكاءً عَلَىٰ القِوىٰ الرَّأْسْمَالِيَّة أَو عَلَىٰ القِوىٰ الْإِشتِرَاكيَّة العَالميَّة، وَاَسْتَنزَفت قُدرتهَا الْإِقْتصَاديَّة، وَخَلقَت حوَاجز مِن الشَّك وَالعـدَاء والمَـصَالح الوَطنيَّة الْإِقلِيميَّة تَحول دُون أَي تَحرك جَاد، وَفعّال وَمُستَمر فِي اتّجَاه تَكوِين قوّة عَالميَّة ضَاغطَة تُحقّق التّوازن فِي السِّيَاسَة الدَّوليَّة لمَصلحَة العَالم الثَّـالِث. وَبَدلاً مِن ذَلِكَ اتّفقت الدَّولتَان العَظِيمَان عَلَىٰ سيَاسَة الوفَاق الَّتي تَعني ـ بشَكلٍ أَو بِآخر ـ وَصَايتهُما عَلَىٰ العَالَم الثَّالِث.

وَقَد وضعَت المُبَادىء الْأُولىٰ لسِيَاسَة الوِفَاق مُنْذُ عَبّرت إِرَادَة العَالَم الثَّـالِث عَن نَفْسهَا فِي مُؤتَمر (بالندونح سَنَة ١٩٥٥م)، وذَلِكَ فِي مُؤتَمر جُـنَيف الَّـذي عُقد بَيْنَ الولاَيَات المُتّحدَة، والْإِتّحَاد السّـوفيَاتي، وَإِنْكـلتَرا، وَفـرنْسَا وَأَنْـهَىٰ الحَرب البَاردَة بَيْنَ الشَّرق وَالغَرب مُفتَتِحاً عَهداً جَدِيداً مِن الْإِنفرَاج الدُّولي تَحت شعَار (التَّعايش المُشْتَرك).

وَقَد كَشَفت التَّعلِيقَات الغَربيَّة بمُنَاسبَة صَفقَة الأَسلحَة التَّشيكيَّة مَع مَصْر عَن حَقِيقَة مَا كَان يُسمّىٰ آنذَاك (رُوح جُنَيف) وأَنَّهُ كَان فِي الحَقِيقَة بدَايَة الطَّرِيق الَّتي سَلكتهَا القُوتَان العَظِيمَان لفَرض وَصَايَتهُما أَو نفُوذهُما ـ بشَكلٍ أَو بآخر ـ عَلَىٰ العَالَم.

فَقَد صَرّح (سيرأَنتُوني ايدن) رَئِيس الوزرَاء البِريطَاني فِي خُطبَة أَلقَاهَا فِـي (يُورتمُوث فِي ٨/ ١٠/ ١٩٥٥ م) مُعَلّقاً عَلَىٰ صَفقَة الأَسلحَة التّشيكيَّة ـ قَالَ:

«هَذِهِ بالضَّبط فُرصَة أَمَام الدُّوَل الكُبْرىٰ لِكَي تَتّفق عَلَىٰ أَنْ تُحَاول التّحكم فِي نَفْسهَا وَتَتّحد لكَي تَتَّحكّم فِيالآخرِين، وفِي هَذَا يَكمن فِي رَأيي التَّفْسِير الحَقّ لِفكرَة جُنَيف...».

وَكَتَبت صَحِيفَة (المنَاشستر جَارديَان فِي عَدَدهَا الصَّادر فِي ١٩ / ١٠ / ١٩٥٥م) مُعَلّقة عَلَىٰ الصَّفقَة بقَولهَا:

«رُبَّما كَان مِن الخَير أَنْ يَتّفق الغَرب مَع رُوسيَا فِي الشَّرق الْأَوْسَط عَلَىٰ أَسَاس سِيَاسَة جَدِيدَة لاَ تَسمَح لدُول صَغِيرَة فِي هَذِهِ المَنْطقَة مِن العَالَم بأَنْ تَقُوم بمُحَاولاَت خَطِيرَة، وهِي للْأَسف غَير جَدِيرَة بتَحمل المَسؤوليَّة».

وَكَتَبت صَحِيفَة (لُومُوند الفَرنسيَّة فِي عَدَدهَا الصَّادر فِي ٢٢ / ١٠ / ١٩٥٥م) مُعَلّقة عَلَىٰ الصَّفقَة بقَولهَا:

«أَنَّ نَشَاط إِنْجلتَرا الدّبلُومَاسي فِيمَا يَخصّ العَالَم العَرَبي يَجْب أَنْ يَتّجه إِلَىٰ إِقنَاع الْإِتّحَاد السّوفيَاتي بالْإِعترَاف بالوَضع الرَّاهن فِي الشَّرق الْأَوْسَط، فِي نطَاق منَاقشَات بَيْنَ الْأَربعَة الكِبَار».

* * *

إِنَّ العَالَم الثَّالِث الْآنْ مَحكُوم بقَانُون سيَاسَة الوفَاق بَيْنَ القُوتَين العَظمَيِّين، وهِي سيَاسَة لحَظت فِيْهَا مصَالح القُوتَين العَظميِّين بالدَّرجَة الْأُولىٰ. وهِي سيَاسَة مَبنيَّة عَلَىٰ مَنْطق القوّة. وَمِن الطَّبِيعِي أَنَّ البَدِيل الصَّالح لسيَاسَة الوفَاق لَيْسَ اللَّاوفَاق الَّذي قَد يُؤدّي بالعَالم كُلّه إِلَىٰ كَارثَة نَوويَّة تَقضي عَلَىٰ الجِنْس البَشري، وَإِنَّما البَدِيل لسيَاسَة الوفَاق هُو التَّوصل إِلَىٰ قَاعدَة فِي السِّيَاسَة الدّوليَّة وَالعِلاَقَات بَيْنَ الدُّوَل وَالكُتَل الدَّوليَّة تَقُوم عَلَىٰ مَبَادِيء الْأَخْلاَق وَالقَانُون ويَكُون لَهَا مَضمُون رُوحي. إِنَّ البَدِيل لسيَاسَة الوفَاق هُو الطّمُوح النَّبيل لشعُوب العَالَم الثَّالِث نَحو عَالم لاَ تقُوم العِلاَقات فِيهِ عَلَىٰ مَنْطق القوّة وَالسَّيطرَة. وَإِذَا كَانَت الْأَديَان قَادرَة عَلَىٰ أَنْ تُقَدّم لِهَذِه القَاعِدَة مَضمُوناً أَخلاَقيَّاً وَرُوحيَّاً فَإِنَّ

الْإِسْلاَم أَقدَر هَذِهِ الْأَديَان عَلَىٰ ذَلِكَ لْأَنّه بحُكم تَكوينَه العَـقِيدي وَالتَّشـرِيعي، وَبحُكم تَجربَته التَّأرِيخيَّة قَادر عَلَىٰ أَنْ يُقَدِّم المَضمُون الْأَخْلاَقي ـ الرُّوحي فِي صِيغَة عِمليَّة تَتّصل بالوَاقع المَادِيّ والنَّفسي للْإِنْسَان. وَيَبقىٰ لكُلّ دِين دَورَه فِي إغنَاء التَّجربَة الْإِنْسَانيَّة فِي مُحِيطه الثّقافِي وفِي العَالَم.

إنَّ العَالَم الثَّالِث المَسحُوق تَـحت وَطأَة تَـخَلّفه المَـادِيّ وَالتَّـنظِيمي دَاخـل وَحدَاته السِّياسيَّة، هَذَا التَّخلف النَّاشيء عَن عَجْزِهِ وعَن تَدخل القِوىٰ العُـظمىٰ فِي شُؤونهِ، هَذَا العَالم الثَّالِث سَيَبقىٰ نُقطَة الخَطَر وَمَبعَث الْأَمل.

هُو نُقطَة الخَطَر لْأَنّه سَاحَة تَصفيَة أَو تَسويَة الصّرَاعَات بَيْنَ القِـوىٰ العَـالميَّة الكُبْرىٰ الَّتي تَتّعَامل مَع بَعْضهَا ومَع العَالَم الثَّالِث بمَنطق القوّة، وَأَقل خَـلَل فِـي حسَابَات التَّصفيَة وَالتَّسويَة قَد يَقُود العَالَم كُلّه إِلَىٰ كَارثَة نَوويَّة. وَقَد وَصَل العَالم إِلَىٰ حَافّة الكَارثَة عِدّة مرّات فِي رُبع القَرن الْأَخِير بسَبَب المُوَاجهَات بَيْنَ القِوىٰ الكُبْرىٰ عَلَىٰ أَرْض العَالَم الثَّالِث.

وَهُو مَبْعَث الْأَمل لْأَنَّ وَضعهُ الحَاضر، وَتَطلعَات شعُوبه يُقدّمَان الفُرصَة للقِوىٰ العُظمىٰ فِي العَالَم لتُعَادل مَنْطق القوّة فِي السِّيَاسَة بمَنطق الْأَخْلاَق والقَانُون فِـي العِلاَقَات بَيْنَ الدُّوَل، وبَـذَلِكَ (تُـؤنسَنَّ السِّـيَاسَة) لاَ حَسَب مَـفهُوم الحـضَارَة الحَدِيثَة حَيْث تَكُون السِّيَاسَة إِنْسَانيَّة دَاخل كُلّ وَطَن لشَعب ذَلِكَ الوَطن وَتَفقد إِنْسَانِيتهَا خَارج حدُود وَطنهَا لتَغدُو سيَاسَة قوّة، وَإِنَّما حَسَب مَـفهُوم الْأَخْـلاَق وَالقَانُون الَّذِين يُعطيَان للسِّيَاسَة بُعْدَاً إِنْسَانيَّاً عَلَىٰ صَعِيد الجِنس البَشـري كُـلّه. وَتَبعَاً لذَلِكَ يَجعلاَن العِلاَقَات البَشريَّة عَلَىٰ مُستوىٰ الدُّوَل والجَمَاعَات أَكثَر دِفئَاً وَمَودّة بمَا لهُما مِن مَضمُون رُوحي ٱفْتَقدهُ عَالم القوّة، عَالم الحضَارَة الحَدِيثة مُنْذُ

زَمَن بَعِيد، وَلاَ يَزَال الذَّخيرَة الَّتي مَثّلت إِنْسَانيَّة العَالم الثَّالِث فِي وَجْه جَمِيع مُحَاولاَت التَّشويَه وَالمَسخ الَّتي تَعَرّض لَهَا إِنسَانه، كَمَا لاَ يَزَال هَذَا المَضمُون الرُّوحي لصِيغَة فِي العِلاَقَات الدُّوليَّة قَائِمَة عَلَىٰ الْأَخْلاَق والقَانُون هُو الشَّرط الْأَسَاسي لخلاَصّ الحضَارَة الحَدِيثَة وَإِنسَانهَا مِن أَزمَة الْإِنْسَان الحَدِيث الَّتي قَادَتهُ إِلَيهَا النَّظرَة المَادِيَّة إِلَىٰ الكَون والحَيَاة والْإِنْسَان، وَمَا تَرتَب عَلَىٰ ذَلِكَ مِن آتّباع مَنْطق القوّة فِي العِلاَقَات البَشريَّة.

إِنَّ صَرخَات العَذَاب الَّتي تُطلقهَا شُعُوب العَالَم الثَّالِث سَتَظل تُدوي فِي آذَان عَالَم (مَنْطق القوّة) مَهْمَا حَاوَل قَادَة عَالم مَنْطق القوّة أَنْ يَحتَالُوا عَلَىٰ العَالَم الثَّالِث لْإِسكَات صَرخَات عذَابَه الَّتي يوَاجه بهَا عَالَم الْأَقويَاء القُسَاة المَادِيِّين الْأَنَانيِّين، أَنَّ العَالَم الثَّالِث يَتَحدّىٰ، وَخلاَص الْإِنْسَانيَّة يَتَوقف عَلَىٰ نَوع الْإِستجَابَة.

المَارْكسيَّة وَالعِلْم وَالسِّيَاسَة

المَوْقف المَنْطقي الأَمِين والأَخلاَقي فِي قَضَايَا السِّيَاسَة الدَّاخليَّة وَالخَارجيَّة هُو أَنْ تَنْطلق النَظَرِيَّة السِّياسيَّة مِن المَوْقف الفَلسَفي، وأَنْ تُبنىٰ المُمَارسَة السِّياسيَّة الدَّاخليَّة وعَلَىٰ المُستوىٰ الدُّوَلي عَلَىٰ نَظَرِيَّة سيَاسيَّة نَابعَة مِن نَظَرِيَّة فَلْسَفيَّة شَاملَة إِلَىٰ الكَون، والحَيَاة، والإِنْسَان.

وَالمَارْكسيَّة تَدّعي لنَفسهَا هَذَا الشَّرف.

تَدّعي أَوَّلاً: أَنَّها فَلْسَفَة كَونيَّة شَاملَة تُقَدّم التَّفْسِير الصَّحِيح لجَمِيع الظَّواهر فِي الطَّبِيعَة والمُجْتَمع.

وَتَدّعي ثَانِيَاً: نضَالَهَا السِّيَاسي لَيْسَ نَاشئَاً مِن طمُوحَات فَرديَّة أَو جمَاعيَّة أَو فِئويَّة لاَ صِلَة لَهَا بالوَاقع المَوْضُوعي للمُجْتَمع، كَمَا تُتَّهم بَذَلِكَ الجَمَاعَات السِّياسيَّة المُنَافسَة لَهَا ـ وَإِنَّما هُو حَركَة مَبنيَّة عَلَىٰ فَلْسَفَة فِي المُجْتَمع هِي المَادِيَّة التَّأرِيخِيَّة، نَابعَة عَن فَلْسَفَة عَامّة وشَاملَة للكَون بمَا فِيهِ مِن طَبيعَة وإِنْسَان، هِي المَادِيَّة الدِّيَالكتِيكيَّة. وَلِذَا فَإِنَّ القوَانِين الأَسَاسيَّة فِي المَادِيَّة الدَّيالكتِيكيَّة (قَانُون حَركَة التَّطور، وقَانُون تَنَاقُضَات التَّطور، وقَانُون قَفزَات التَّطور، وقَانُون الإِرْتبَاط العَامّ) هَذِهِ القوَانِين أَملىٰ الإِيمَان بهَا الفِكْر الفَلسَفي العِلمي السَّلِيم، ومَن ثُمَّ اتّخذْنَاها سلاَحاً نَظريَّاً فِي تَعَامُلنَا مَع الطَّبِيعَة والمُجْتَمع،

فِي عَملنَا العِلمي فِي الطَّبِيعَة وفِي عَملنَا السِّيَاسي فِي المُجْتَمع .

المَارْكسيَّة إِذَن تَدّعي لنَفسهَا هَذَا الشَّرف ، ولَكنَّها دَعوىٰ يَقُوم وَاقع المُمَارسَة السِّياسيَّة عَلَىٰ خِلاَفهَا ، فَإِنَّنا بمُرَاجعَة بَسِيطَة نَكْتَشف أَنَّ المَارْكسيَّة لاَ تَبني موَاقفهَا السِّيَاسيَّة عَلَىٰ أَسَاس مِن تَفْكِيرهَا الفَلسَفي وَإِنَّما تُحَاول أَنْ تَجْعَل مِـن التَّـفكِير الفَلسَفي مُبرّرَاً لعَملهَا السِّيَاسي ، مِمَّا يَحملهَا فِي كَثِير مِن الحَالاَت عَلَىٰ الْإِعْتسَاف وَالتَّزوِير لصيَاغَة أَفكَار تَدَّعي لَهَا صِفَة الحَقِيقَة لتَكُون سَنداً لموَاقفهَا السِّياسيَّة .

وهَذَا مَا يَظْهَر بجَلاَء كَبِير عِنْدَ مُرَاجعَة الخَلفِيَّة السِّياسيَّة للموَاقـف الفَـلْسَفيَّة الَّتي أَعْلَنتهَا المَارْكسيَّة فِي كَثِير مِن الحَالاَت ، ومِن هَذَا البَاب اْعْتبَارهَا القوَانِين الْأَرْبعَة السَّالفَة الذِّكر أُسّساً مُطلقَة الْإِعتبَار وَثَـابتَة للـمَادِيَّة الدِّيـالكتيَّة ، فَـإِنَّ البَاحِث يَلمَس ورَاء هَذَا المَوْقف أَو ذَاك الرَّغبَة فِي تَبرِير العَمَل السِّيَاسي ، فِيمَا هُم يُوهمُون النَّاس بأَنَّ العَمَل السِّيَاسي عَلَىٰ هَذَا النَّحو المُمَيّز جَاء نَتِيجَة حَتميَّة للضَّرورَة العِلْميَّة الَّتي لاَ تُدحَض .

وَسَيَأتي البَحْث النَّقدي الفَلسَفي لقوَانِين الدّيَالكتِيك ، أَمَّا هُنَا فغَايَتنا الكَشف عَن الحَافز السِّيَاسي إِلَىٰ وَضع هَذِهِ القوَانِين وإِعطَائها صِفَة الحَقِيقَة العِلْميَّة ، وَمَا هِي فِي الحَقِيقَة سِوىٰ أَدوَات سيَاسيَّة .

والْآنْ إِلَىٰ شَيء مِن التَّفصِيل .

المَدْلُول السِّيَاسي لقَانُون حَرْكَة التَّطور

لمَاذَا تَذْهَب المَارْكسيَّة خِلاَفَاً للحقِيقَة المَوْضُوعيَّة ـ إِلَىٰ أَنَّ قَانُون الحَرْكَـة يَتجَاوز الوَاقع المَوْضُوعي المَادِيّ إِلَىٰ عَالم الفِكْر فَتَرىٰ أَنَّ الفِكْر يَـنمُو وَيَـتغَيَّر بالحَركَة كَمَا تَنمُو المَادّة وَتَتغَيّر بالحَرْكَة ؟ .

ويَكْشف لنَا التَّحلِيل عَن جوَاب هَذَا التَّسَاؤل فِي مَجَالَين :

الْأَوَّل : أَنَّ المَارْكسيَّة عِندَمَا وَضعَت قَانُونهَا هَذَا كَانَت تَعْلَم أَنَّـها سَـتَخُوض صرَاعَاً مَع الفَلسَفَة المِـيتَافِيزيقيَّة ، ومَـع المُـؤسّسَات السِّـياسيَّة والْإِجـتمَاعيَّة وَالثَّقَافيَّة الَّتي تَنْتَسب ـ حَقَّاً أَو بَاطلاً ـ إِلَىٰ هَذِهِ الفَلْسَفَة .

والفَلْسَفَة المِيتَافِيزيقيَّة تَسْتَند إِلَىٰ جُملَة مِن الحقَائِق المُطْلَقَة وَالنّـهائيَّة غَـير القَابلَة للجَدَل . والْإِعْترَاف بأَنَّ قَانُون الحَرْكَة لاَ يَتَعدىٰ عَالم المَادّة إِلَىٰ عَالَم الفِكْر يَعْنَي أَنَّ ثَمّة حقَائِق فِكريَّة مُطلَقة وحِينَئْذٍ لاَ يُمكن للمَاركسيَّة تّجَاهلهَا ، بَل لاَ بُدّ لَهَا مِن الْإِيمَان بهَا وهَذَا يَعْنَي قوّة فِي مَوقِف المِيتَافِيزيقيَّة وَمِن ثَمَّ قوّة فِي مَوقِف مُؤسّساتهَا فِي المُجْتَمع .

أَمَّا إِعلاَن أَنَّ قَانُون الحَرْكَة شَامل يَستَوعب عَالم المَادّة وَعَـالم الفِكْـر مَـعَاً فَيَقضي بأَنَّه لاَ تُوجد حَقَائق مُطلقَة فِي عَالم المَادّة وَكَذَلِكَ فِي عَالَم الفِكْر ، وهَذَا يَجْعَل المَاركسيَّة فِي وَضع أَفْضَل فِي المُعتَرك السِّيَاسي ، وَيُجَرّد المِيتَافِيزيقيَّة مِن

رَكَائِزهَا الْأَسَاسيَّة ، وَيَجعلهَا تُمثّل مَرحَلَة ـ مَرحَلة فَقَط ـ فِي سَبر الطَّبِيعَة والْإِنْسَان نَحو التَّكامُل والتَّطور الصَّاعد أَبدَاً ودَائِمَاً .

وَهَكَذَا يَكُون الطّموح السِّيَاسي هُو الَّذي أَملىٰ عَلَىٰ آبَاء المَادِيَّة الدِّيالكتِيكيَّة مَوقفهُم الفَلسَفي ، وَلَيْسَ العَكس . لَم يَكُن المَوْقف السِّيَاسي فِي حَقِيقَة الْأَمر نَتِيجَة للمَوقف الفَلْسَفي .

الثَّاني : نَفي وقُوع خَطَأ فِي الموَاقف السِّياسيَّة خِلاَل النّضال مِن أَجل فَرض السَّيطرَة . فكُلّ مَوقِف سيَاسي صوَاب ، وَإِذَا ٱنْكَشف خَطَأه كَان صوَابَاً نِسبيَّاً . وهَكَذَا تَجد المُعَاهدَة مَع هِتْلَر وَمُهَادنَة النَّازيّة مَكَانَاً لَهَا فِي خَانَة الحَقِيقَة ، كَمَا تَجد السِّيَاسَة الْإِقْتصَاديَّة الجَدِيدَة مَكَانَاً لَهَا فِي خَانَة الحَقِيقَة ، وبَذَلِكَ يَمكن أَنْ تَكُون الموَاقف السِّياسيَّة المُتنَاقضَة صَحِيحَة كُلّها ، كَمَا أَنَّنا نَسبَغ صِفَة الحَقِيقَة عَلَىٰ نَظَرِيَّة نُيوتن وعَلَىٰ نِسبيَّة ٱنْيشتِين مَعَاً .

الحَقِيقَة هِي أَنَّ ٱعتبَار المَارْكسيَّة قَانُون الحَرْكَة شَاملاً لعَمليَات الفِكْر نَاشيء مِن الرَّغبَة فِي إِيجَاد التَّبرِير السِّيَاسي وأَنْ أَدّىٰ ذَلِكَ إِلَىٰ تَجَاوز الحَقِيقَة الفَلْسَفيَّة .

المَدْلُول السِّيَاسي لقَانُون تَنَاقُضَات التَّطور

لَقَد ٱعْتَمدَت المَارْكسيَّة فِـي العَـمَل السِّـيَاسي مَـبْدَأ صِـرَاع الطَّـبقَات فِـي المُجْتَمع ، وَجَعَلت هَمّها الْأَعْظَم رَفع دَرجَة الصّراع فِي المُجْتَمعَات المُـضْطَربَة ، وَتَحرِيك الصّراع فِي المُجْتَمعَات الَّتي تَتمَتع بالْإستقرَار ، وَالمُـضي فِـي تَأجِـيج الْأَحقَاد الطَّبقيَّة وَالفِئويَّة إِلَىٰ أَنْ تَصل بالمُجْتَمع إِلَىٰ حَالاَت الْإنْقسَام وَالعدَاء ومِن ثَمَّ تَفجِير الصّراع بالثَّورَات وَالحُرُوب الْأَهليَّة ، وإِنْ تَوقف ذَلِكَ عَلَىٰ تَأيِّيد أَنْظمَة الحُكم الرَّجْعِيَّة ، وَتَأييد الحُكّام الطُّغَاة ، وَمُحَاربَة الْأَنظمَة التَّـقدّميَّة عَـلَىٰ غَـير الْأُسلُوب المَاركسي وَإِسقَاط الحُكّام ذَوي النَّزعَات الْإصلاَحيَّة ، وذَلِكَ لْأَجْل أَنْ تُسَاهم أَنظمَة الحُكم الرَّجْعِيَّة ، وَالحُكّام الطُّغَاة فِي إِنزَال أَفْـدَح الظُّـلم بـالفِئَات الْإجتمَاعيَّة الْأَقل حَظّاً مِن خَيرَات الْإنْتَاج العَامّ للثَّورَة ، فَتَزدَاد نِقمَة هَذِهِ الفِئَات ، ويُؤدي ذَلِكَ إِلَىٰ إِرتفَاع حدّة الصِّرَاع الطَّبقي ، وهَذَا يُعَجّل بالثَّورَة الَّتي تُؤدي إِلَىٰ سَيطرَة المَارْكسيَّة عَلَىٰ السُّلطَة . بَـيْنَما تَـعمَل أَنـظمَة الحُكـم التَّـقدّميَّة ـ غَـير المَارْكسيَّة ـ وَالحُكّام ذَووا النَّزعَات الْإصلاَحيَّة عَلَىٰ إِنصَاف الفِئَات المَحرُومَة ، وَيُؤدي ذَلِكَ إِلَىٰ شعُورهَا بالْإنصَاف وَالعَدَالَة ، فَيَنْزَع مِن صُدُورهَا الغِلّ وَالحِقد ، وَيَدفع بهَا نَحو التّعَاون مَع غَيرهَا مِن الفِئَات بَدَل الصِّراع ، وهَذَا مَا يُـبْعد فُـرصَة إِستِيلاَء المَاركسيِّين عَلَىٰ السُّلطَة .

لَقَد ٱعْتَمَدت المَارْكسيَّة هَذَا المَبْدَأ فِي عَمَلهَا السِّيَاسي. ولَكنّهُ ـ كَمَا يَرىٰ الجَمِيع ـ مَبْدَأ غَير أَخلاَقي وَغَير إِنْسَاني، وَهُو مُعَرّض للْإِدَانَة مِن أَي إِنْسَان مُستَقِيم الفِكْر وَالضَّمِير إِنطلاَقاً مِن لاَ أَخْلاَقيَّة المَبْدَأ المَذكُور وَلاَ إِنسَانِيتَه. وَلِذَا فَثمَّة عَاملاَن يَحملاَن المَارْكسيَّة عَلَىٰ أَنْ تَجد سَنداً فَلسفيّاً ـ عِلميّاً لِهَذَا المَبْدَأ:

الْأَوَّل: هُو دَفع الْإِعْتِرَاض الْأَخلاَقي عَلَيهِ فَإِنَّ القوَانِين العِلميَّة لاَ تَخْضَع للْإِعتبَارَات الْأَخلاَقيَّة، إِنَّها حَتميَّة وَلاَ شَأن فِيْهَا للْإِختيَار البَشري وَالضَّمِير، وَلِذَا فَلاَ مَجَال للْإِعْتِرَاض عَلىٰ هَذَا المَبدَأ مِن النَّاحيَة الْأَخلاَقيَّة.

الثَّاني: هُو إِعطَاء المَبْدَأ صِفَة العِلميَّة وَالحَقِيقَة الفَلْسَفيَّة لَئلّا يَخْطر فِي بَال أَحد مِن النَّاس أَنَّهُ مُجَرّد تَغطِيَة أَدبيَّة إِنشَائِيَّة لْأُسلُوب سيَاسي، وَبذَا يَكْتَسب المَبْدَأ قوّة التَّأثِير بِإعتبَاره حَقِيقَة عِلْميَّة فَلسَفيَّة وَيَدفع عَنْهُ صِفَة اللَّا أَخْلاَقيَّة وَاللَّا إِنْسَانيَّة.

* * *

إِنَّ الصّرَاع وَالتَّنَافِي مَوجُود فِي المُجْتَمع السِّيَاسي بِلاَ شَكّ، وَلَكنَّ التَّعَاون مَوجُود فِي المُجْتَمع السِّيَاسي أَيْضَاً، فَالصّرَاع وَالتَّنَافِي لَيْسَ قَانُونَاً عَامّاً وَشَاملاً وَثَابتَاً فِي حَركَة التَّأرِيخ وَإِنَّما هُو أَحد مَظَاهرهَا، والتَّأرِيخ يَتَحرك وَيَنمُو مِن خِلاَل تَفَاعُل جُملَة مِن العَوَامل.

أَمَّا فِي الطَّبِيعَة فَالقَانُون الظَّاهر هُو قَانُون التَّكامُل، وَلَيْسَ مَبْدَأ التَّنَاقُض، وتَطَور الطَّبِيعَة وَنمُوهَا يَتم مِن خِلاَل تَكَامُل قِوَاها وَعنَاصرهَا وَتعَاونهَا، وَلَيْسَ مِن خِلاَل تنَاقضهَا، وَمَا يَبدُو تنَاقُضاً فِي الطَّبِيعَة فَيْكشف ـ حِينَ درَاسَته عَلَىٰ ضَوء شُرُوط التَّناقض ـ أَنَّهُ لَيْسَ مِن التَّنَاقض فِي شَيء، وَإِنَّما ٱعْتَبرَهُ

المَاركسيُون تَنَاقضَاً بسَبب جَهلهِم بقَانُون التّنَاقض أَو بسَبَب حِرْصهم عَلَىٰ إِيجَاد المُبَرّر الفَلْسَفي لعَملهِم السِّيَاسي كَمَا ذَكَرنَا.

وَيَبدُو أَنَّ وَاضِعي أُسّس المَارْكسيَّة غَفَلوا عَن أَنَّ هَذَا القَانُون يَقضي عَلَيهِم بأَحد أَمرَين كِلاَهُما نَفي للمَاركسيَّة:

أَحْدهُما: أَنْ نَفْرض أَنَّ قَانُون تَنَاقضَات التَّطور يَسْتَمر حَتَّىٰ بَعْد تَكوّن المُجْتَمع الشُّيوعي الكَامِل، وهَذَا يَقضي بِأَنْ يَعْمَل هَذَا، القَانُون عَمَله فِي نَفي المَاركسيَّة نَحو مَرحَلَة تَتجَاوزهَا فِي نَمو التَّأرِيخ، وهَذَا يَعْنَي أَنَّ المَارْكسيَّة مَرْحَلَة ولَيْسَت نهَايَة حَركَة التَّأرِيخ، وهَكَذَا تَأتِي مَرْحَلَة تَأرِيخيَّة تُلغي الشُّيوعيَّة وتَكُون أَكثَر تَطَوراً، وَتَقدّماً مِنْهَا عَلَىٰ أعْتبَار إِنِّ حَرَكَة التَّأرِيخ تَسِير فِي خَطّ صَاعد دَائِمَاً؟؟.

وَثَانِيهُما: أَنْ نَفْتَرض أَنَّ قَانُون تَنَاقضَات التَّطور يتَوقف عَن العَمَل وَيُبطل أثَرَه. وحِينَئْذٍ فَهَل يَكفّ المُجْتَمع عَن الحَرْكَة؟ وهَل تَتَوقف حَركَة التَّأرِيخ عِنْدَ حَدٍّ لاَ تَتعدَاه؟ أَي الْإِفترَاضَين يَخْتَار المَاركسيُون يَكُون إِبطَالاً لدَعوَاهُم وَفَلسفتهُم مِن أَصْلهَا.

المَدْلُول السِّيَاسي لقَانُون قَفْزَات التَّطور

آعْتَمدَت المَارْكسيَّة فِي عَمَلها السِّيَاسي لتَسَلم السُّلطة مَبْدَأ الْإنقلاَب المِسَلّح وَالثَّورَة ، وَرَفضَت مَبْدَأ العَمَل الدِّيمُقرَاطي البَرلمَاني الَّذي آعْتَمدهُ الفِكْر السِّيَاسي فِي أُوربَا ، وَمَن ثَمَّ فَهي تُحَارب الْإِصلاَحيِّين الَّذِين يَنْتهجُون سَبِيل التَّغيِّير التَّدرِيجي السِّلمي ليَصلُوا بالمُجْتَمع السِّيَاسي إِلَىٰ مُستويَات أَفْضَل فِي أَوضَاعه الحيَاتِيَة ، وَتَرىٰ أَنَّ تَغيِّير المُجْتَمع السِّيَاسي وَتَحقِّيق العَدَالَة لاَ يَكُون إِلاَّ بالعُنف وَالثَّورَة الَّتي تَجْتَث جَمِيع قوَاعد المُجْتَمع مِن جذُورهَا دُفعَة وَاحدَة . وَالنُّصُوص المَارْكسيَّة الْأَسَاسيَّة فِي هَذَا المَسْأَلَة وَاضحَة صَرِيحَة لاَ تَترك مَجَالاً للتَّأوِيل ، قَالَ مَاركس وَإِنْجلز :

« وَلاَ يَتَدنىٰ الشُّيوعيُون إِلَىٰ إِخفَاء آرَائهِم ، وَمقَاصدهم ، وَمَشارِيعهم ، يُعلنُون صَرَاحَة أَنَّ أهدَافَهُم لاَ يُمكن بلُوغهَا وَتَحقِّيقها إِلاَّ بهَدم كُلّ النِّظَام الْإِجْتمَاعي التَّقْلِيدي بالعُنف وَالقوّة »[1] .

وقَالَ لِينِين :

---

(١) أُنظر ، البَيَان الشُّيوعي : ٨.

«إِنَّ الثَّورَة البُروليتَاريَّة غَير مُمكنَة بدُون تَـحطِيم
جهَاز الدَّولَة البُرجوَازي بِالعُنف»[١].

وَلَكَنَّ العُنف الثَّوري يُقَابلهُ فِي العَمَل السِّيَاسي الأُسلُوب الدِّيمُقرَاطي الَّـذي يَعْتَمد التَّغيِّير عَن طَرِيق التَّشـرِيع، وَتَكـوّين القَـنَاعَات لَـدىٰ فـئَات المُـجْتَمع السِّيَاسي للقَبُول بالتَّغيِّير، وهَذَا الأُسلُوب هُو الَّذي يَتّبعهُ الخـصُوم السِّـيَاسيُون للمَاركسيَّة فِي كُلّ مُجْتَمع.

وَقَد رَأىٰ المُفَكّرون السِّيَاسيُون أَنْ يَلتَمسُوا لموَاقِفهم السِّيَاسي سَنداً عِلميَّاً ـ فَلسَفيَّاً يُحقّق لَهُم هَدَفين:

الأَوَّل: إِسكَات خصُومهم السِّـيَاسيِّين فِـي الجَـدَل حَـول أُسـلُوب التَّـغيِّير السِّيَاسي للمُجْتَمع بأَنَّ الثَّورَة المُسلحَة وَالقضَاء عَلَىٰ المُؤسّسَات القَديمَة بالعُنف لَيْسَ أَمرَاً خَاضعَاً للإِخْتيَار البَشري الَّذي يَسمَح بالجَدل وَتَفضِيل أُسلُوب عَـلَىٰ آخر، وَإِنَّما هُو قَانُون حَتمي ثَابت فِي الطَّبِيعَة والتَّأرِيخ، وَلِذَا فَـلاَ مـنَاصّ مِـن المَصِير إِلَيهِ.

الثَّاني: إِظهَار أَنَّ موَاقفهُم السِّيَاسيَّة نَابعَة مِن مَوقِف عِلمي ـ فَلْسَفي، ولَيْسَت نَتِيجَة إِختيَارَات آنيَّة تُملِيها الضَّرُورَات السِّياسيَّة فِي الحَـيَاة المُـتغَيِّرَة المُـتَقلبَة للمُجْتَمع السِّيَاسي.

لأَجْل جَمِيع ذَلِكَ اخترَعَت المَارْكسـيَّة مَـبْدَأ قَـفزَات التَّـطور، زَاعـمَة أَنَّ التَّغيِّيرات الَّتي تَحْدث نَتِيجَة لقَانُونَي الحَرْكَة وَتنَاقضَات التَّطور لاَ تَـحْدث فِـي

(١) أُنظر، أُسّس اللِّينِينيَّة: ٦٦.

الطَّبِيعَة وَالمُجْتَمع تَدرِيجاً وَإِنَّما تَحْدث دُفعَة وَاحدَة وَبشَكلٍ فَوري ثَوري يُـغَيّر فِي لَحظَة الوَضعِيَّة وَالبُنيَة القَدِيمة بوضعِيَة وَبُنيَة جَديدَة تَفرضهَا القَفزَة فِي الطَّبِيعَة وَالثَّورَة فِي المُجْتَمع السِّيَاسي.

وَلَم تُقَدّم المَارْكسيَّة أَي دَلِيل عَلَىٰ دَعوَاهَا هَذِهِ. وَإِنَّما عَـرَضت جُـملَة مِـن الأَمثلَة الَّتي يَكْشف النَّقد المَوْضُوعي زَيفهَا وَخَطأهَا.

وَسَيَتّضح بُطلاَن هَذَا المَبْدَأ مِن النَّاحيَة الفَلْسَفيَّة فِي المَبَاحث الآتيَة، وكُلّ مَا نُرِيد تَوضِيحه هُنَا هُو إِنَّ هَذَا المَبْدَأ كسَائِر المُبَادِيء الأُسّس فِي المَارْكسيَّة لَيْسَ عِلميَّاً وَلاَ فَلسَفيَّاً وَإِنَّما هُو تَغْطيَة وَتَبرِير لأُسلُوب فِي العَمَل السِّيَاسي هُو الثَّورَة المُسَلحَة الَّتي قَد تَكُون ضَروريَّة حِينَ تَـفْشَل جَـمِيع الوَسَـائِل فِـي الإِصـلاَح السِّلمي، ولَكنَّها مَع تَوفّر إِمكَانَات الإِصلاَح والتَّغيِّير نَحو الأَفـضَل بـالأَسَالِيب السّلميَّة تَكُون، بَلاَ رَيبٍ، عَملاً غَير أَخلاَقي ومَن ثُمَّ غَير شَرعي.

المَدْلُول السِّيَاسي لقَانُون الْإِرْتبَاط العَامّ

قَانُون الْإِرْتبَاط العَامّ قَانُون صَحِيح وَصَادق فِي الطَّبِيعَة والمُجْتَمع ، وَقَد سَبَقت الوَاقعيَّة الْإِلَهيَّة إِلَىٰ الكَشف عَن هَذَا القَانُون . ولَكنّهُ يَسْتَند إِلَىٰ أَسَاس العِلِّيَّة ، لاَ إِلَىٰ مَا تَدّعِيه المَارْكسيَّة مِن مَبْدَأ التَّنَاقض ، وَسَيأَتي فِي الْأَبحَاث التَاليَة بَيَان وَجْه الحَقّ فِي الْأَسَاس الَّذي يَسْتَند إِلَيهِ هَذَا القَانُون ، أَمّا هُنَا فَنُرِيد أَنْ نَكشف عَن المَدْلُول السِّيَاسي لِهَذَا القَانُون فِي التَّطبِيق المَاركسي .

المَاركسيُون يَنْتَفعُون بجَمِيع الفُرص الَّتي يُتِيحهَا لَهُم أَي نظَام سيَاسي يَعملُون فِي ظلّه : فَهُم : مَثلاً ، يَنْتَفعُون بحُرّيَّة الكَلاَم ، والتَّظاهر ، وَالتَّنظِيم الحِزبي وَالنَّقابي وَغَير ذَلِكَ مِن الحُرّيَّات الَّتي يُتِيحهَا لَهُم النِّظَام الدِّيمُقرَاطي البَرلمَاني إِذَا كَانُوا يَعْملُون فِي ظِلّ نظَام كهَذَا كَمَا تَنْتَفع بهَا سَائِر الجَمَاعَات السِّياسيَّة الَّتي تَعمَل فِي ظِلّ هَذَا النِّظَام . وهَذَا أَمر طَبِيعي ، فَمن الْأُصُول الْأَسَاسيَّة الَّتي يَقوم عَلَيهَا النِّظَام البَرلمَاني هُو إِتَاحَة هَذِهِ الحُرّيَّات للجَمَاعَات السِّياسيَّة العَاملَة فِي المُجْتَمع ، ومِن حَقّ هَذِهِ الجَمَاعَات أَنْ تَسْتَفِيد فِي عَمَلها السِّيَاسي مِن هَذِهِ الحُرّيَّات .

وَلَكن المَارْكسيَّة عِندَمَا تَنْتَصر تَتّخذ مِن مَسأَلة الحُرّيَّات مَوقفَاً آخر ، فَهي تُصَادر حُرّيَّة الجَمَاعَات السِّيَاسيَّة الْأُخرىٰ فِي المُجْتَمع فِي التَّعبِير عَن الرَّأي ، وَالتَّنظِيم الحِزبي وَالنَّقابي وَغَير ذَلِكَ ، وَتَستَأثر لْأَجهزتهَا وَحدهَا بكُلّ هَذِهِ الحُرّيَّات . بدَعوىٰ أَنَّ هَذِهِ الجَمَاعَات السِّياسيَّة الْأُخرىٰ تُمَثّل تَطلعَات سيَاسيَّة

مُعَاديَة للشَّعب (وَلاَ حُرِّيَّة لأَعدَاء الشَّعب) . والحَقِيقَة هِي أَنَّ الجَمَاعَات السِّياسيَّة قَد لاَ تَكُون عَدوّة للتَّطلعَات الشَّعبيَّة وكُلّ ذَنبهَا أَنَّها تَعْتَمد عَقِيدَة سيَاسيَّة غَير المَارْكسيَّة ، وَلَكن هَذَا وَحدَه فِي نَظر المَارْكسيَّة ، سَبَب كَافٍ لمُصَادَره حُرِّيَّاتهَا .

وَالمَارْكسيَّة تَسْتَند فِي مَوقفهَا هَذَا إِلَىٰ رَغبَة طَبِيعيَّة ، ولَكنَّها غَير عَادلَة ، وِفقاً للشَّعارَات الَّتي تُنَادي بهَا ، فِي الإِسْتئثَار بالسُّلطة وفِي تَفوِيت جَمِيع الفُرص الَّتي تُتِيح للشَّعب أَنْ يَطّلع عَلَىٰ وجهَات نَظر أُخرىٰ فِي قَضَايَاه الحَياتيَة وَالسِّياسيَّة . وهِي تَعْلم أَنَّ قَانُون الإِرْتبَاط العَامّ يَقضي بأَنَّ لكُلّ نَشَاط إِنسَاني فِي الطَّبِيعَة أَو المُجْتَمع أَثراً يَنْعَكس عَلَىٰ شَبكَة العِلاَقَات بَيْنَ الأَشْيَاء وَالموَاقف وَالجَمَاعَات . وأَنَّ الجَمَاعَات السِّياسيَّة الأُخرىٰ فِي المُجْتَمع إِذَا أُتِيحَت لَهَا الحُرِّيَّات السِّياسيَّة فَسَتَكشف أَخطَار المُمَارسَات الَّتي يَقوم بهَا النِّظَام الحَاكم ، وهَذَا يُؤدي إِلَىٰ تَكوِين قَنَاعَات لَدىٰ الشَّعب لَنْ تَكُون فِي مَصلحَة هَذَا النِّظَام الَّذي سَيَفقد تَدرِيجيَّاً سُلطَته وَقُدرَته عَلَىٰ التَّأْثِير ، وَلِذَا فَهي تُصَادر حُرِّيَّات الآخرِين لتَحول بَيْنَهُم وبَيْنَ الإِنْتفَاع بقَانُون الإِرْتبَاط العَامّ فِي التَّأْثِير عَلَىٰ الوَضع السِّيَاسي للمُجْتَمع ، وَتُعطي لنَفسهَا حُرِّيَّة الإِنْتفَاع بقُدرَة التَّأْثِير الَّتي يُوفرهَا هَذَا القَانُون .

أَنَّ المَارْكسيَّة ، حِينَ تَحكُم ، تَمْنَع عَن الآخرِين مَا تُطَالب بهِ هِيَّ ، وَتَحْصَل عَلَيهِ فِي الغَالب ، حَيْت يكُونُون حَاكمِين .

أَنَّ المَارْكسيَّة تَسْتَثمر قَانُون الإِرْتبَاط العَامّ لمَصلحتهَا وَحدهَا حِينَ تَكُون هِي الحَاكمَة ، بَيْنَما يَكُون اسْتثمَار هَذَا القَانُون فِي العَمَل السِّيَاسي مُمكنَاً لجَمِيع الفِئَات السِّياسيَّة فِي ظِلّ الأَنظمَة الَّتي تُعطي الحُرِّيَّة لجَمِيع الفِئَات السِّياسيَّة .

أَنَّ المَارْكسيَّة لَم تَكْتَشف قَانُون الإِرْتبَاط العَامّ ، وَلكنَّها بَرَعت فِي اسْتخدَامه عَلَىٰ الصَّعِيد السِّيَاسي .

الخُلاَصَة

فِي الْأَبحَاث الْآتيَة نَقد شَامل لْأَهم الرَّكَائِز الَّتي يَقوم عَلَيهَا الفِكْر المَادِيّ مِن خِلاَل المَسَائِل الَّتي أُثِيرَت فِي نَقد الفِكْر الدِّينيّ. وَلِذَا لَم يَكُن مِن مَقْصدي فِـي الْأَبحَاث الْآنفَة إِلاَّ الكَشف عَن الخَـلفيَّة السِّـياسيَّة الَّـتي أَمّـلَت عَـلَىٰ المَـادِيَّة الدِّيَالكتِيكيَّة صيَاغَة مَبَادئهَا الْأَسَاسيَّة فِي الطَّبيعَة والمُـجْتَمع، مُـرجـئَاً البَـحْث الفَلْسَفي إِلَىٰ مَوضعهِ مِن هَذَا الكِتَاب.

وَأَود أَنْ أُنَبّه هُنَا إِلَىٰ أَنَّ المَادِيَّة بجَمِيع مَظَاهرهَا رَأسمَاليَّة كَانَت أَو دِيَالكتيكيَّة أَو غَيرهُما، بالْإِضَافَة إِلَىٰ أَنَّها خطَأ عِلمي وَفَلْسَفي، مُخَالفَة للـطَّبيعَة الْإِنْسَـانيَّة وَلْأَعمَق وَأَصدَق مَا يَشتمل عَلَيهِ التَّكوِين الْإِنْسَاني مِن مَعْنَىٰ، ومَن ثُمَّ فإِنَّها لَن تُؤدي إِلاَّ إِلَىٰ إِنحطَاط النَّوع الْإِنْسَاني فِي مَعنَاه وفِي جَوهرهِ وإِنْ أَدَّت إِلَىٰ تَفوق بَعْض فئَاته فِي الشَّأن المَادِيّ وَلَكن بثَمن باهِظ هُو شقَاء مِئَات المَلاَيِّين مِن البَشر، بَل أُلُوف المَلاَيِّين إِذَا أَخذنَا بنَظر الْإِعتبَار التَّضخم السُّكّاني فِي العَالم الثَّالِث.

إِنَّ العَالَم الثَّالِث بوَجه عَامّ، وَالعَالم الْإِسْلاَميّ بوَجْهٍ خَاصّ، وَالعَالَم العَـرَبي بوَجه أَخصّ قَد عَانىٰ مِن تَيَّار المَادِيَّة الَّذي كَوّن الحضَارَة الحَدِيثَة وَٱنْقَسم عَلَىٰ نَفْسَه فِي الثُّلث الْأَوَّل مِن هَذَا القَرن المِيلاَدي إِلَىٰ رَأسـمَاليَّة وَشـيُوعيَّة ـ أَشـدّ الْآلاَم، وَتَعذّبت شعُوبه كلّها عذَابَاً نُكْرَاً، وَنُكبَت فِي أَوطَانها وَإِنْسَانهَا، وَكَرامَاتهَا

وَثَرواتها بسَبب رُوح العُدوَان، وَالحَيوانيَّة وَاللَّا أَخْلاَقيَّة الَّتي تُكـوّن المُـحتَوىٰ الثَّابت للمَادِيَّة بجَمِيع أَشكَالهَا ومَـظَاهرهَا مَـهمَا تَسَـترَت وَرَاء دَعَـاوىٰ العِـلم وَالمَوْضُوعيَّة وَالشّعَارَات الخَادعَة.

لَقَد آنَ للعَالَم العَرَبي أَنْ يُمسك بمَصِيره، ويُوّجه سيَاسَاته برُوحٍ مُستَمدّة مِن حضَارَته هُو، ومِن فِكرِهِ هُو، وبَذَلِكَ يَبْعث الحَـيَاة القَـويَّة النَّـابضَة فِـي العَـالَم الْإِسْلاَميّ كُلّه، وَبذَلك تُتَاح للْإِنْسَانيَّة فُرصَة خَلاَصهَا مِن الكَارثَة الَّتي تَـقودهَا المَادِيَّة إِلَيهَا.

إِنَّ ثَمَّة دَورَاً عَظِيمَاً، يَبْحَث عَن بَطل. وهَذَا الدَّور لَيْسَ عَلَىٰ مُستوىٰ وَطَني، أَو قَومي، أَو قَاري، إِنّه عَلَىٰ مُستوىٰ الْإِنْسَانيَّة كلّها فِي عَصرنَا. فَقَد جَعَل العِلم الحَدِيث الْإِنْسَانيَّة بأَجمَعها كُلّاً مُترَابطَاً مُتفَاعلاً تَدَاخَلت مصَائِر أَوطَانه وَشعُوبه وَقَارَاته فِي وحدَة مِن المُسْتَحِيل فَصم عُرَاهَا.

وهَذَا الدَّور الَّذي يَبْحث عَن بَطل هُو إِنقَاذ هَذِهِ الْإِنْسَانيَّة المُعَذّبَة المَذعُورَة مِن مَصِير رَهِيب تُؤدي بهَا إِلَيهِ المَادِيَّة الَّتي ٱمْتَلكَت أَعْظَم قوّة قَادرَة عَلَىٰ التَّدمِير فِي التَّأرِيخ كُلّه. ومِن المُسْتَحِيل عَلَىٰ الجَمَاعَات البَشريّة الَّتي تَـقوم حـيَاتهَا عَـلَىٰ مَفَاهِيم هَذِهِ المَادِيَّة ـ رَأسمَاليَّة كَانَت أَو شيُوعيَّة ـ أَنْ تَكُون إِحدَاها هِـي بَـطل الْإِنقَاذ، لْأَنّهَا تَحمل الدَّاء نَفْسَه فَلاَ تَستَطِيع أَنْ تَنْقُذ الْآخرِين مِن آثَاره وَأَخطَاره.

إِنَّ المُؤهَل لهَذَا الدَّور هُو العَالَم الْإِسْلاَميّ، بمَا يَملك مِن فِكرٍ صَالحٍ للْإِنقَاذ. وَبتَحمِيل العَرب مَسؤوليتَه خَاصّة فِي هَذَا المُهمّة الَّتي تَعْجز الكَلمَات عَن تَصوِير عَظمتهَا وَشَرفهَا وَنُبلهَا، فَالعَرب هُم قَلْب العَالَم الْإِسْـلاَميّ جُـغرَافـيَّاً، وَفِكـرَاً، وَثَروَة، وَإِذَن فَهُم فِي مَوقع الرِّيَادَة لِهَذَا الدَّور العَظِيم. أَنَّ العَالَم الْإِسْلاَميّ قَادِر إِذَا

ثَاب إِلَىٰ نَفْسَه، وَعَاد مِن غُربَته الرُّوحيَّة وَالفِكْريَّة إِلَىٰ فِكرهِ الْأَصِيل، وَعَانَق دَورَه فِي تَحرك تَأرِيخي مَسؤول، لاَ فِي مَظَاهر النَّرجسيَّة، وَالْإِفتتَان بِالذَات، وَالْإِفْتخَار بالمَاضي، قَادر عَلَىٰ أَنْ يُحَرّك العَالَم الثَّالِث كُلّه نَحو المَسَار العَظِيم المُؤدّي إِلَىٰ إِنقَاذ الْإِنْسَانيَّة كلّها مِن مَصِير مُرعِب رَهِيب.

وَلاَ يَنْبَغي أَنْ يُؤدّي أَخذ العَالَم الْإِسْلاَميّ لِهَذَا الدَّور إِلَىٰ بَعث ذَرّة مِن الشَّك لدَىٰ شعُوب العَالَم الثَّالِث وفِي العَالَم فِي أَنْ يُؤدي هَذَا الدَّور إِلَىٰ صِيغَة إِمبرَاطوريَّة تَسَلُطيَّة يُمَارسهَا المُسْلمُون عَلَىٰ الْأُمَم الْأُخرىٰ. فَإِنَّ شَخصيَّة المُسْلِم قَائِمَة فِي جَمِيع عنَاصرهَا المُكوّنَة لَهَا عَلَىٰ رُوح الْإِنْسَانيَّة لاَ عَلَىٰ الرُّوح الْإِمبرَاطُوريَّة التَّسلُطيَّة، وَالمَصِير الْأُخرَوي للمُسْلِم وَالنَّجَاة عِنْدَ الله مُرتَبطَة بكَونه يَرفض التَّسلط و «العُلو فِي الْأَرْض»، قَالَ الله تَعَالىٰ:

﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْأَخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَايُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾[1].

* * *

وأَخِيرَاً أَودّ أَنْ أُشِير، قَبل الْإِنتقَال إِلَىٰ الْأَبحَاث الفَلْسَفيَّة مِن هَذَا الكِتَاب، إِلَىٰ أَنَّ هَذِهِ الفُصُول كُتبَت برُوح الحُبّ للنَّاس، وَالْإِخلاَص للحَقِيقَة، وَلَم تَصْدُر عَن رُوح مُعَاديَة أَو مُبغضَة، فأَنَا أَعْلَم أَنَّ كَثِيراً مِن أَصحَاب المَوَاقف الخَاطِئَة وَالْأَفكَار المُجَافيَة للحَقّ، هُم مِن ذَوي النِّيَات الحَسنَة الَّذي يُحركهُم الْإِخلاَص وَالرَّغبَة الحَارّة فِي تَغيِّير وَاقع أُمّتهم إِلَىٰ الْأَفضَل. وَلَكن إِخلاَصهم لاَ يَمنَع مِن

(١) ٱلْقَصَص: ٨٣.

لوَمهم عَلَىٰ أَنَّهُم لَم يُسحنُوا البَحْث، وَلَم يَكونُوا مَوضُوعيِّين، وَلاَ عِـلميِّين، وَلاَ مُنصفِين فِي موَافقهِم الفِكْريَّة، والسِّياسيَّة، وَإِنَّـما ٱنـدَفعُوا بـفجَاجَة وَصِـبيَانيَّة وَتَعصب أَعمىٰ فِي موَافقهِم يَهدمُون كُلّ شَيء، وَيطّوحُون بكُلّ شَيء حَتَّىٰ آلَت بنَا الحَال إِلَىٰ مَا نَحْنُ عَلَيهِ مِن فُرقَة وَتَمزق وَضَيَاع.

وَإِذَا نَضَحت بَعْض الجُمل والكَلمَات فِي هَذِهِ الفُصُول بالمَرَارَة وَالغَضب فَلَيْسَ ذَلِكَ نَاشئَاً مِن ضَغِينَة فِي النَّفس، وَإِنَّما هُو نَاشيء مِن مَرَارَة الوَاقع، ومِن الغَضَب للحَقّ حِينَ يُجْحَد وَيُهَان تَوصلاً لغَايَات سيَاسيَّة لاَ تُؤدي إِلَىٰ خَير فِي الحَـاضَر وَالمُسْتَقبَل.

القِسْمُ الثَّانِي

مُطَارَحَات

فِي الفِكْر المَادِيّ وَالفِكْر الدِّينيّ

تَصْفِيَّة حِسَاب صَغِير

فِي الْأَبْحَاث الْآتيَة مَا يَكْشف بوضُوح عَجْز المَارْكسيَّة ـ عَلَىٰ ٱفْتِرَاض تَسلِيم جَمِيع مُقَدّمَاتهَا ـ عَن تَقدِّيم تَفْسِير مُقنّع لنَشأَة الكَون. وَسَنرىٰ أَنَّها تَعْمَد إِلَىٰ غَيبِيّة تَتنَاقَض مَع أَحْكَام العَقْل. وَسَأَكشفُ مِن الزَّيف العِلمي، وَالتَّضلِيل الفَلْسَفي فِي المَارْكسيَّة.

وَقَد أَعْلَن الْأُستَاذ نَسِيب نِمر[1] بَعْد أَنْ ٱنْكَشَف عَجْز المَارْكسيَّة وَإِفلاَسهَا ـ برَاءَة المَارْكسيَّة مِن الدّكتُور صَادِق جَلاَل العَظم، ومِن أَفْكَاره، بدَعوَىٰ أَنَّ أَفْكَاره لَيْسَت مَاركسيَّة بدَرجَة كَافيَة، وأَنَّهُ لَم يَتنَاول مَوضُوعَه تَنَاولاً عِلميَّاً صَحِيحَاً وَإِلاَّ لمَا تَغلب عَلَيهِ نَاقدهُ مُحَمَّد مَهْديّ شَمْس الدِّين.

وَلاَ أَدْري لمَاذَا طَبّل المَاركسيُون هُنَا وفِي كُلّ مَكَان للدّكتُور وَزَمّرُوا، وَٱعْتَبرُوا كتَابه نَمُوذجَاً رَائعَاً للفِكْر المَاركسِي فِي مُقَابل الفِكْر الدِّينيّ، وَرَأوا فِيهِ ٱنْتصَاراً كَاسحَاً للمَاركسيَّة عَلَىٰ الدِّين. كَان هَذَا مَوقفهُم قَبل أَنْ نُذِيع سِلسلَة مَقَالاَتنَا فِي نَقْد الكِتَاب مَوْضُوع البَحْث، فَلَمَّا تَبَيَّن مِن خِلاَل هَذِهِ المَقَالاَت البُؤس الفِكْري الَّذي يَظْهَر جَليَّاً فِي الكِتَاب المَذكُور، وتَبَيَّن عَجْز المَارْكسيَّة

---

(١) أُنظر، مَجلّة الْأَحْد: (٢٩ آذَار ١٩٧٠م ـ العَدَد/٩٧٢). (مِنْهُ ﷺ).

وَإفلاَسهَا ، تَبرأ المَاركسيُون مِن الدّكتُور ومِن كـتَابهِ ، وَأَعْـلنُوا بـلسَان الْأُسـتَاذ نَسَيب نِمر أَنَّهُ لاَ يُمَثّلهُم ، وَلاَ يُمَثّل فِكرهُم ... لمَاذَا ؟ !! .

هَل هَذَا تَكْتِيك مَاركسِي للمَاركسيَّة الَّتي تَتَخطىٰ ذَاتهَا بـإِسْتمرَار ؟ !! ، وَإِذَن فَلْنُسَمِّ مَا كَتَبهُ الْأُستَاذ نَسِيب نِمر فِي شَأن مَقَالاَتي ، وكِتَاب نَقْد الفِكْر الدِّينيّ نَوعَاً مِن تَخْطي الذَّات !! .

وَقَد تَحَدّث الْأُستَاذ نَسِيب نِمر عَمّا أُتِيح لِي مِن حُـرّيَّة ، وَعـمَّا تَـعَرض لَـهُ الْأُستَاذ صَادق جَلاَل العَظم مِن مَصَادرَة لحُرّيّتَه . وهَذَا مَا أَثَار عَجَبي وَدَهشَتي ، فَلَقد أُتِيح للدّكتُور مِن حُرّيَّة التَّعْبِير عَن الرَّأي مَا لَم يُتِيح لِي عِشر مِعشَاره ، وَأُتِيح لْأَفْكَاره مِن فُرص الذّيُوع وَالْإِنْتشَار مَا لَم يُتح لْأَحَادِيثي فِـي الرَّد عَـلَيه . لَـقَد نَاصَرتهُ الصَّحَافَة عَلَىٰ إِخْتلاَف ميُولَهَا وٱتّجَاهَاتهَا ، وَٱنْبَرت للدّفَاع عَنْهُ وَلشَرح أَفْكَاره كُلّ المُؤسّسَات الْإِعلاَميَّة وَالحِزْبيَّة المُـوَاليَـة لخَـطّهِ الفِكْـري ، وَنَـهْجهِ السِّيَاسي . وَكَم رَوّجَت لَهُ هَذِهِ الْأَوْسَط وَهَلّلت فِي الصَّحَافَة وَالنَّوادي الثّقَافيَّة .

وَأَمّا مَا تَعَرّض لَهُ مِن مُلاَحقَة ، وَتَعرّض لَهُ كتَابَه مِن مَنْع وَمُصَادَرة ، فَقَد قُلتُ فِي مَطْلَع أَحَادِيثي أَنَّهُ أَمَرٌ لاَ مُوجب لَهُ وَلاَ دَاعي إِلَيهِ . وعَلَىٰ أَي حَال فَقَد كَـان هَذَا الْإِجرَاء فُرصَة أَتَاحَت للكتَاب ذيُوعَاً وَٱنْتشَاراً مَا كَان ليَحصَل عَلَيهما لَو أَنَّ الكِتَاب تُرك وَشَأنّه دُون ٱعْترَاض .

مَدْخَل

شُغِلتُ بَعْض الوَقت عَن قِرَاءَة كِتَاب الدُّكتُور صَادِق جَلاَل العَظم «نَقْد الفِكْر الدِّينيّ» وَقَدّرتُ فِي نَفْسي أَنَّ هَذَا الكِتَاب لاَ يُعد وَأَنْ يَكُون كَأَمثَالٍ لَهُ أَلِفنَاهَا فِي السَّنوَات الْأَخِيرَة، هِي حَصِيلَة أَفْكَار شبَابنَا الَّذي تَعَلّم فِي أُوربَا فَأَخذ مِنْهَا ـ إِلَىٰ جَانِب عُلُومهَا ـ أَوهَامهَا وَتَصورَاتها الخَاطِئَة عَن الدِّين بوَحْهٍ عَام، دُون أَنْ يَكُون قَد وَعي مِن تُرَاثِهِ، ومِن عَقِيدَتِهِ، ومِن تَأرِيخِهِ مَا يَعْصمهُ مِن الزَّلل، وَيَحملَه عَلَىٰ غَربَلَة مَا يَسمع وَيَرىٰ وَيُلَقّن، فَأَخذ كُلّ شَيء عَلَىٰ أَنَّهُ حَقِيقَة، وَطَفق يُرَوّجهَا فِي وَطَنِهِ، بَعْد أَنْ شُدِه بحضَارَة أُوربَا المَادِيَّة، الغَالبَة الْآنْ عَلَىٰ كُلّ شَيء، وبَعْد أَنْ رَأىٰ أَنَّ مُثُلَها وَمفَاهِيمهَا وَأَخلاَقها تَكْتَسح أَمَامهَا كُلّ المَوَاضعَات وَالْأَعْرَاف وَالتَّقالِيد سَيئَة كَانَت أَو حَسَنَة، جَمِيلَة كَانَت أَو قَبِيحَة.

وهَذِهِ الكُتُب أَيْضَاً حَصِيلَة مُوَجَة الْإِلحَاد الَّتي اَنْطَلقَت فِي السّنِين الْأَخِيرَة، وَشَمَلت قطَّاعَاً كَبِيرَاً مِن الشَّباب المُتَعلّم ـ وَلاَ أَقوْل المُثَقّف ـ الشَّباب الَّذي لَم يَتَزَود بأَي مَعْرفَة دِينيَّة عِلْميَّة عَلَىٰ الْإِطْلاَق، والَّذي يُحَشىٰ فِكرَه بأَفكَار المَلاَحدَة الْأَجَانب فِي صِيغ جَازمَة. وَمُسلمَات حَاسمَة.

وَمِن الغَرِيب فِي ظوَاهر هَذِهِ المَوجَة الْإِلحَاديَّة أَنَّها تَسمَح لنَفسهَا بالشَّك فِي المَسِيحيَّة، والْإِسْلاَم وَتُحَاول تَهدِيمهَا بالضَّلاَلاَت الَّتي تَنْشرهَا، وَالْأَبَاطِيل الَّتي

تُرَوّج لَهَا. دُون أَنْ تَمس اليَهُوديَّة بشَيء، وإِنْ مَستّهَا بكَلمَة فإِنّها تُصَاغ بمُنْتَهىٰ الرِّقّة وَالعُذُوبَة، وَلاَ أَعرف سِرّاً لِهَذِه الظَّاهرَة إِلاَّ فِكرَة مَاركس أَو إِنْجلز ـ لاَ أَتَذَكّر ـ «إِنَّ اليَهُود إِذَا فَقَدُوا دِينَهم فَقَدوا أَنْفسهُم».

قَدَّرتُ فِي نَفْسي أَنَّ الأَمر فِي هَذَا الكِتَاب لاَ يَعدُو أَنْ يَكُون كَذَلكَ، وَلَكن بَعْض الأَصدقَاء أَلَحُوا عليّ أَنْ أَنْتَزع نَفْسي مِن بَعْض مشَاغلي عَلَىٰ الأَقل لبَعْض الوَقت، وأَنْ أَتفرغ لقرَاءَة الكِتَاب، وَالتَّعلِيق عَلَيهِ، لأَنّه «خَطِير» يَجْب أَنْ يُنَاقش وَتُفضَح أَكَاذِيبه وَأَبَاطِيلَه، وهَكَذَا ٱسْتَجَبتُ لَهُم، وَخَصّصت للكتَاب وَقتاً فِي جُملَة أَوقَاتي، وَجَعلتُ النَّظر فِيهِ مِن بَعْض أَعمَالي.

وعِندَمَا قَرَأتُ الكِتَاب لَم يَتغيَّر حُكمي عَلَيهِ قيَاسَاً عَلَىٰ نظَائِرِهِ وَأَمثَالَه، فهُو لاَ يَعدُو أَنْ يَكُون تَردِيداً أَمِيناً لأَفكَار عَصر النَّهْضَة الأُوربيَّة عَن الدِّين وَعَن أَسَاسَه، وَعَن أَهدَافه... هَذِهِ الأَفْكَار الَّتي ٱنْدَفع إِلَيهَا بِلا تَبصّر عُلمَاء ذَلِكَ الحِين تَحتَ وَطأَة الصّرَاع بَيْنَهُم وبَيْنَ الكَنِيسَة فِي ذَلِكَ الحِين. والكِتَاب إِنْ تَمَيَّز عَلَىٰ أَمثَالَه بشَيء فهُو يَتمَيّز بالوقَاحَة الزَّائِدَة، وسُوء الأَدب فِي التَّعْبِير. إِنّه عَمَل تَافه يتّسم بالنَّزق الفِكْري، وَالعَاطفيَّة، وَالفَجَاجَة فِي كَثِير مِن موَارِدِهِ، وَلاَ يَخلو عَن كَثِير مِن التَّنَاقضَات.

وَقَد كُنتُ أَقرَأ الكِتَاب وأُعَلّق عَلَيهِ، فٱجْتَمعَت لِي مِن تَعليقَاتي عَلَيهِ هَذِهِ الحَصِيلَة الَّتي يَرَاها القَاريء، وَالَّتي عَسَاه أَنْ يَجد فِيْهَا مَا يَجْعَله يوَافقني فِي أَنَّ الكِتَاب المَذكُور لاَ يَسْتَحق كُلّ هَذِهِ الضَّجَّة الَّتي أُثِيرَت حولَه وَحَول كَاتبه، فإِنَّهُ لاَ يَعدُو ـ كَمَا قُلت ـ أَنْ يَكُون كسَائِر الكتَابَات مِن هَذَا النَّوع تَمر دُون أَنْ تَنَال مِن الدِّين أَي منَال، لأَنَّ الدِّين يَنْبَع مِن فِطرَة فِي الإِنْسَان لاَ تَقوىٰ عَلَىٰ ٱقْتلاَعهَا

التَّرهَات وَالْأَبَاطِيل مَهمَا كَسَبت ثَوب العِلم زُوراً وَبُهتَاناً، وَأَسبَغ عَلَيهَا شَكل الحَقِيقَة كَذباً وَهذيَاناً.

وَلاَ بُّد لِي ـ قَبل الدّخُول فِي نَقْد الكِتَاب ـ أَنْ أُقَدّم بَعْض المُلاَحظَات حَول طَبِيعَة المَوْضُوع المَبحُوث عَنْهُ «الدِّين» وَحَول مَدىٰ أَهْلِيَة الدُّكتُور المُؤَلّف لتَحَمل المُهمّة الَّتي كَرّس كتَابَه لأَجلهَا.

أ ـ أَهْلِيَّة المُؤَلّف:

هَل الدُّكتُور مُؤهَل للكتَابَةِ عَن نَقْد الفِكْر الدِّينيّ؟.

هَذَا أَوَّل سُؤال يُوَاجهنَا.

يُفْتَرض فِيمَن يَكتُب عَن شَيء ـ نَقداً أَو تَأيِّيداً ـ أَنْ يَكُون مُلمَّاً بِصُورَة كَافيَة بالمَوضُوع الَّذي يَكْتُب عَنْهُ، وأَنْ يَكُون مُطّلعاً عَلَيهِ اطّلاَعاً تَامّاً، وذَلِكَ ليَكُون مُؤهلاً للحُكم لَهُ أَو عَلَيهِ. فَهَل الدُّكتُور بِهَذِهِ المَثَابَة مِن المَعرفَة الدِّينيَّة؟.

لَقَد ظَهَر لِي مِن قِرَاءَة كتَابه أَنَّ مَعرفَته الدِّينيَّة بالإِسلاَم سَاذجَة وَسَطحيَّة إِلَىٰ أَبْعَد الحدُود. إِنَّها التَّصورَات الَّتي امتَصهَا خَيَالَهُ وَعَقله مِن مُجْتَمعه ومِن أَهْله، ولَيْسَت مَعْرفَة مَبْنيَّة عَلَىٰ المُعَانَاة وَالدّارسَة وَالبَحْث.

إِنَّ فِكرَته عَن الإِسْلاَم أَخَذهَا ـ لَيْسَ عَن مَصَادر الإِسْلاَم الأَسَاسيَّة «القُرْآن الكَرِيم وَالسُّنَّة الصَّحِيحَة» وَإِنَّمَا أَخذهَا عَن العَجَائز وَأَشبَاه العَجَائز وعَن الجُهّال وَأَشبَاه الجُهّال، وعَن الكتَابَات المُتَأثره بالأَفكَار الإِسرَائِيليَّة، وَالقَصَص الَّتي لَم تَثْبت إِسلاَميّاً مِن مَصَادر الإِسْلاَم الصَّحِيحَة.

وَسَيمر عَلَينَا خِلاَل نَقدنَا التَّحلِيلي للكتَاب كُثر مِن الأَمثلَة الدَّالة عَلَىٰ أَنَّ

المُؤَلّف يَنْقد مَوضُوعاً لاَ يَعْرفهُ مَعْرفَة كَافيَة . إنّه يَعرف الْإِسْلاَم مَعْرفَة مُشَوهَة ، وَيُرِيد أَنْ يَجْعَل الْإِسْلاَم مِن خِلاَل مَعْرفَته المُشوهَة ـ مَوضُوعاً لنَقدهِ ، مُسْتَخدمَاً فِي ذَلِكَ الْآرَاء الَّتي آستعَارهَا مِن أُوْلَئِكَ الَّذِين أَطْلَقُوهَا ضِدّ الدِّين فِي فَتْرَة الصِّرَاع بَيْنَ الكَنِيسَة وَملُوك الحُكم المُطلَّق فِي أُوربَا ، تِلْكَ الْآرَاء الَّتي تَجَاوزهَا الفِكْر وَأَثبَت زَيف كَثِيرٍ مِنْهَا ، وَفجَاجَته ، وإغرَاقه فِي الذَاتيَة وَالعَاطفيَة .

سَنَرىٰ أَنَّ الفَصل الَّذي عَقَدهُ المُؤَلّف تَحتَ عُنْوَان : « الثَّقَافَة العِلْميَّة وبُؤس الفِكْر الدِّينيّ » لاَ يَكْشف عَن بُؤس الفِكْر الدِّينيّ ، وَلاَ يَكْشف عَن بُؤس الفِكْر العِلمي ، وَإِنَّما يَكْشف عَن البُؤس الفِكْري للدّكتُور المُؤَلّف .

ب ـ وَظِيفَة الدِّين ، مَا هِي ؟ :

إِنَّ الدِّين عَقِيدَة إِلٰهيَة يَنْبَثق عَنْهَا نظَام كَامِل للحَيَاة الْإِنْسَانيَة . يُقَوّم السّلُوك الْإِنْسَاني ، وَيَرسم المنَاهج الصَّحِيحَة لِهَذَا السّلُوك ، وَيَرفع الكَائِن البَشري مِن مُستوىٰ الحَيوَانيَّة إِلَىٰ مُستَوىٰ الْإِنْسَانيَّة العَاليَة .

ولَيْسَت وَظِيفَة الدِّين أَنْ يُقَدّم تَفسِيرَاً تَفصِيليَّاً للكَون : كَيْف نَشَأ ؟ وَمَا هِي الْأَطوَار الَّتي مَرّ فِيْهَا ؟ وَمَا هِي العَنَاصر الَّتي يَتكوّن مِنْهَا ؟ وَمَا هِي التَّفَاعُلاَت بَيْنَ هَذِهِ العَنَاصر ؟ إِلَىٰ غَير ذَلِكَ مِن هَذِهِ المَسَائِل . وَلَيْسَ فِي الْإِسْلاَم شَيء مِن ذَلِكَ إِذَا مَا رَجعنَا إِلَىٰ المَصَادر الْأَسَاسيَّة للْإِسلاَم .

كُلّ مَا يَقولَهُ الدِّين فِي هَذَا المجَال أَنَّهُ يَرد الكَون إِلَىٰ عِلّة عُليَا إِنّه يَعْتَبر « الله » هُو السَّبب النّهائي الْأَعمَق وَالأعلَىٰ للتَّكوِين « وَيُحتم عَلَىٰ تَسلسُل العِلل وَالْأَسبَاب أَنْ يَتصَاعد إِلَىٰ قوّة فَوق الطَّبِيعَة وَفَوق المَادّة » أَمّا المَسَائِل المُتقدّمَة

وزأَمثَالَهَا فَهي مَجَال العِلم.

وَمَوقِف الدِّين الْإِسْلاَميّ مِن العِلم يَتكوّن مِن عُنصرَين:

الْأَوَّل: التَّشجِيع عَلَىٰ البَحْث وَالمَعْرفَة، وذَلِكَ بفَتح الآفَاق أَمَام العَقل البَشري، وَإِزَالَة المُعوّقات الَّتي تَعْتَرض طَرِيقَه وَتُعَرقل سَيرَه «حَرّم الْإِسْلاَم السِّحر، وَالشَّعبذَة، وَالكهَانَة، وَالقِيَافَة»[1] فَالْإِسلاَم يُشَجّع، وَلاَ يُخَطّط، لْأَنَّ

(١) وَرَدَت فِي القُرْآن الكَرِيم آيَات كَثِيرَة فِي مُنَاسبَات عِدّة وَجّه الله فِيْهَا الْإِنْسَان إِلَىٰ طَلَب المَعْرفَة وَالبَحْث فِي الكَون المَادِيّ والحَيَاة الْإِنْسَانيَّة وَالحَيوانيَّة وَالنّباتيَّة المُحِيطَة بِهِ.

وبَيَّن الله تَعَالىٰ فِي طَائفَة أُخرىٰ مِن الْآيَات أَنَّ الكَون المَادِيّ كُلّه مُسَخّر للْإِنْسَان ليَنْتَفع بِهِ، وَلاَ يُمكن ذَلِكَ بطَبيعَة الحَال إِلاَّ بَعْد اكتشَافه، وَاكتشَاف القوَانِين الَّتي تُيَسّر التّعامل مَعَهُ.

وَالطَّائفَة الْأُولىٰ مِن الْآيَات هِي آيَات التَّفكر، مِنْهَا الْآيَات التَّاليَة:

١ ـ ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَـٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَأَيَـٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَـٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَـٰذَا بَـٰطِلًا سُبْحَـٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ آل عِمْرَان: ١٩٠ ـ ١٩١.

٢ ـ ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ يُفَصِّلُ ٱلْأَيَـٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنْهَـٰرًا وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ وَفِى ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَـٰوِرَٰتٌ وَجَنَّـٰتٌ مِّنْ أَعْنَـٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلْأُكُلِ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ ٱلرَّعد: ٢ ـ ٤.

٣ ـ ﴿وَٱلْأَنْعَـٰمَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَـٰفِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا۟ بَـٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلْأَنفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ وَعَلَى ٱللَّهِ قَصْدُ ٱلسَّبِيلِ وَمِنْهَا جَآئِرٌ وَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ ↔

التَّخطِيط لَيْسَ مِن وَظِيفَته وَإِنَّما هُو وَظِيفَة العَقل البَاحِث، ولأَنَّ للعِلم قوَانِين تَطَورَه الخَاصّة الَّتي تَنْجم عَن تَطَور المَعرفَة، وَتَنوع الإِكْتشَافات.

الثَّاني: إِنَّ مَوقِف الدِّين الإِسْلاَميّ بالنِّسبَة إِلَىٰ كشُوف العِلم وَاْنْتصَارَاته مَوقِف مُؤيّد ـ وَأُكَرّر: بالنّسبة إِلَىٰ العِلم، أَي إِلَىٰ مَا ثَبَت باليَقِين، وَالحِس، وَالتَّجربَة، فهُو يَعْتَرف بِهِ، وَيُبَاركهُ وَيَعْتَبره مَظْهراً مِن مَظَاهر خِلاَفَة الإِنْسَان فِي الأَرْض. أَمَّا

⇔ تُسِيمُونَ يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرْعَ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلْأَعْنَٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ ٱلنَّحْل: ٥ ـ ١١.

٤ ـ ﴿وَٱللَّهُ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ وَإِنَّ لَكُمْ فِى ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِى بُطُونِهِۦ مِنۢ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَآئِغًا لِّلشَّٰرِبِينَ وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلْأَعْنَٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ثُمَّ كُلِى مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسْلُكِى سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا يَخْرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ ٱلنَّحْل: ٦٥ ـ ٦٩.

٥ ـ ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُواْ فِىٓ أَنفُسِهِم مَّا خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ بِلِقَآيِ رَبِّهِمْ لَكَٰفِرُونَ﴾ ٱلرُّوم: ٨.

٦ ـ ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَكُمُ ٱلْبَحْرَ لِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ ٱلجَاثِيَة: ١١ ـ ١٣.

وَالطَّائفَة الثَّانيَة مِن الآيَات هِي آيَات التَّسخِير، وَقَد مَرّ بَعْضهَا فِي آيَات التَّفكر، ومِنْهَا مِمَّا لَم يَتَقدّم ذِكرَه الآيَات التَاليَة.

١ ـ ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ ٱلحَجّ: ٦٥.

٢ ـ ﴿أَلَمْ تَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ﴾ لُقمَان: ٢٠.

الظَّنُون ، أَمَّا الفَرضيَّات والنَّظريَات فَلاَ قِيمَة لَهَا ، وَلاَ تَنَال مِـن الدِّيـن الإِحـترَام بوَصفهَا عِلمَاً لأَنَّهَا لَيْسَت عِلمَاً ، وَإِنَّما هِي ظنُون :﴿إِنَّ ٱلظَّـنَّ لَايُـغْنِى مِـنَ ٱلْـحَقِّ شَيْـًٔا﴾(١) .

إِنَّ الفَرضيَّة وَالنَظَرِيَّة مُجرّد « مَشرُوع » وَلَيْسَت حقِيقَة نـهَائيَّة حَـتَّىٰ تُـؤخذ مَأخذ القَبُول المُطلَّق ، وَإِلاَّفَإِذَا أَرَدنَا أَنْ نُطفي عَلَىٰ الفَرضيَات قَدَاسَـة الحَـقِيقَة « المَعْرِفَة العِلْميَّة النَّهَائيَّة الجَازِمَة » نَكُون قَد نَقَضنَا بذَلِكَ المَنْهَج العِلمي الَّذي ـ لاَ يُجِيز لنَا الْإِيمَان إِلاّ بمَا ثَبَت باليَقِين صِحْتَه وَصِدقَه .

* * *

إِنَّ مَا أَشَرتُ إِلَيهِ مِن جهلِ المُؤَلّف بمَوضُوع بحَثْه « الدِّين الإِسْلاَميّ » يَكْشف عَن نَفْسَه بوضُوح فِي كَثِير مِن المَوارد الَّتي يَنْسب فِيْهَا إِلَىٰ الإِسـلاَم أَنَّـهُ يُـقَدّم « نصُوصَاً مُقَدّسَة » تُفَسّر الظَّوَاهر الكَونيَّة ، وَهُو مُـخطيء فِـي نِسـبَته ذَلِكَ إِلَـىٰ الإِسْلاَم .

وَمَا أَشَرتُ إِلَيهِ مِن بُؤس المُؤَلّف الفِكْري يَكْشف عَن نَفْسَه بـوضُوح عِـندَمَا يَفْتَرض فِي الدِّين مَوضُوعَاً غَير مَوجُود فِي الدِّين وَيَنْقدهُ بفَرضيَّة مِن الفَرضيَّات ، ونَظَرِيَّة مِن النَّظريَّات الَّتي لَم تَثْبت صِحتهَا ، وَلَم تَرتَفع عَن دَرجَة « الظَّـن » إِلَـىٰ دَرجَة « اليَقِين » .

---

(١) سُورَة ٱلنَّجم : ٢٨ .

وَقَد وَرَدَت المُقَابلَة فِي القُرْآن دَائِمَاً بَيْنَ العِلم الصَّحِيح (الحَقّ) فِي جَمِيع الحقُول أَو فِي حَقل بـعَيْنِهِ ، وبَيْنَ الظَّنُون وَالأَوهَام غَير الثَّابتَة ، والَّتي هِي ، فِي أَحسَن الأَحوَال ، «مشَارِيع» تَفْتَقر إِلَىٰ مَـزِيد مِـن البَحْث لإِثبَاتها أَو نَفْيهَا .

ج ـ مَنْهَجَة البَحْث :

تَحْتَ عُنْوَان : « **الثَّقَافَة العِلْميَّة وَبُؤس الفِكْر الدِّينيّ** » عَالَج المُؤَلّف مَوقِف الدِّين (الْإِسْلاَم عَلَىٰ الْأَخَصّ) مِن العِلم ، ومَوقِف العِلم مِن الدِّين فِي ٱثْنَتَين وَستِين صَفحَة مِن كتَابه .

وَقَد ٱنْطَلق فِي بَحْثِهِ هَذَا مِن فَرضيَّة لَمْ يُبَرهن عَلَىٰ صِحتهَا (وَمَا أَكثَر مَا لَدَيه مِن فَرضيَّات لاَ تَزِيد عَن كَونهَا دَعَاوىٰ بِلاَ بُرهَان) ـ أَقَوْل ٱنْطَلق مِن فَرضيَّة لَمْ يُبَرهن عَلَيهَا وَهِي :

أَنَّ النَّظرة العَصْريَّة « **يُسَمِّيهَا هُو عِلْميَّة** » حَقّ بَجَمِيع مَا ٱشْتَملت عَلَيهِ وَأَدّت إِلَيهِ ، وأَنَّ الفِكْر الدِّينيّ بَاطل كُلّه ، ٱبْتدَاءً مِن قَضيَّة وجُود الله إِلَىٰ أَصْغَر قَضيَّة دِينيَّة ، وَرَتّب عَلَىٰ هَذِهِ الفَرضيَّة العَاريَة عَن البُرهَان أَنَّ عَلَىٰ الفِكْر العَصْري أَنْ يَنْقد الفِكْر الدِّينيّ .

إِنَّ أَبسَط النَّاس ثقَافَة لاَ يَستَطِيع أَنْ يوَافق المُؤَلّف عَلَىٰ هَذَا المَوْقف . وإِلاَّ ، فَإِذَا كَانَت المَسْأَلَة تَقُوم عَلَىٰ مُجَرّد الْإِفتِرَاض وَالْإِدّعَاء فَلمَاذَا لاَ يَكُون الصَّحِيح هُو العَكْس ، وَهُو أَنَّ عَلَىٰ الفِكْر الدِّينيّ الصَّحِيح الْأَصِيل أَنْ يَقوم بنَفْس المُهمّة ٱتّجَاه الْأَفكَار العَصريَّة القَائِمَة عَلَىٰ الهَوىٰ وعَلَىٰ سُوء الفَهْم لقَضَايَا الدِّين والعِلم .

أَعْتقد أَنَّ المُؤَلّف ٱنْطَلق فِي هَذِهِ المَسْأَلَة بسَبب تَشِيع فِكرَة «بكَلِيشَات» أَنصَاف المُثَقفِين عَن العِلم وعَن التَّفكِير العِلمي وعَن قوّة العِلم وَٱنْتصَاره ، دُون أَنْ تَكُون لدَيهم القُدرَة عَلَىٰ التَّمييز بَيْنَ العِلم وبَيْنَ الفَرضيَّات وَالنَّظريَّات ، أَضف إِلَىٰ ذَلِكَ مَا ذَكرنَاه عَن ضحَالة تَفْكِيره وَمَعرفَته فِيمَا يَتّصل بالدِّين وَمَصَادرَه الْأَسَاسيَّة وَوَظِيفَته ، فوَقع فِي هَذَا الخَطَأ الَّذي أَشرنَا إِلَيهِ .

وعَلَىٰ أَي حَال فَقَد أَثَار المُؤَلّف فِي مُقَدّم بَحْثَه قَـضيَّة الصّـرَاع بَـيْنَ الدِّيـن وَالعِلم، وَعَالَج فِي نهَايَة البَحْث مَسأَلة وجُود الله.

وَأَعْتَقد أَنَّ التَّرتِيب الطَبِيعِي للبَحْث يَقضي بـالعَكس: أَنْ نَـبْحَث أَوَّلاً مَسأَلة وجُود الله، وبَعْد ذَلِكَ تَكُون جَمِيع القَضَايَا ثَانويَّة، لأَنَّ قَضيَّة وجُود الله هِي أَسَاس الفِكْر الدِّينيّ، فَإِذَا خَرجنَا مِنْهَا برَأيٍ حَاسم ٱستَطعنَا أَنْ نُـصَفي بـقيَّة المَسَـائِل بسهُولَة.

اللهُ أَمْ المَادّة ؟!

آ ـ تَمْهِيد

ب ـ العِلّة الأُولَىٰ

ج ـ الله أَمْ المَادّة؟

تَمْهِيد

فِي الصَّفحَات (٢٥ ـ ٢٩) عَرَض المُؤَلّف بأُسلُوب غَير عِلمي لمَسأَلَة وجُود الله، وَخَلقَه للكَون، وَعَرض للـمَسأَلة أَيْـضَاً فِـي الصَّـفحَات (٧٤ ـ ٧٨) عِـنْدَ مُنَاقَشَته لرَأي ولِيَم جِيمس. وَقَد لخَصّ رَأيه فِي المَسْأَلَة فِي صَفحَات (٢٨ ـ ٢٩) بالنَّصّ التَالي:

«فِي الوَاقع عَلينَا أَنْ نَعْتَرف ـ بكُلّ تواضع ـ بـجَهلنَا حَـول كُـلّ مـنَّا يَـتَعلّق بمُشكْلَة المَصْدر الْأَوّل للكَون. عِندَمَا تَقول لِي أَنَّ الله هُـو عـلَّة وجُـود المَـادّة الْأُولىٰ الَّتي يتَأَلّف مِنْهَا الكَون، وَأَسأَلُك بدَوري: وَمَا علّة وجُود الله. إِنَّ أَقْصىٰ مَا تَستَطِيع الْإِجَابة بهِ: «لاَ أَعْرف، إِلاَّ أَنَّ الله مَوجُود غَير مَعلُول» ومِن جِهَة أُخرىٰ عِندَمَا تَسأَلني: وَمَا علّة وجُود المَادّة الْأُولىٰ؟ فَإِنَّ أَقْصىٰ مَا ٱستَطِيع الْإِجَابَة بهِ «لاَ أَعْرف، إِلاَّ أَنَّها غَير مَعلُولَة الوجُود» فِي نهَايَة الْأَمر أَعْتَرف كُلّ منَّا بـجَهلهِ حَيَال المَصدَر الْأَوّل للْأَشيَاء. وَلكنّك ٱعْتَرفتَ بَـذَلِكَ بَـعْدي بـخُطوَة وَاحـدَة، وَأَدخَلت عنَاصر غَيبَية لاَ لزُوم لَهَا لحَل المُشكْلَة.

الخُلاَصَة: وَإِذَا قُلْنَا أَنَّ المَادّة الْأُولىٰ قَدِيمَة وَغَير مُحدّثة، أَو أَنَّ الله قَدِيم وَغَير مُحدّث نَكُون قَد ٱعْتَرفنَا بأَنَّنا لاَ نَعْرف وَلَن نَعرف كَيْف يَكُـون الجـوَاب عَـلَىٰ مُشكْلَة المَصْدَر الْأَوّل للْأَشيَاء. فَالْأَفْضل إِذَن أَنْ نَعْتَرف بجَهلنَا صَرَاحَة وَمُبَاشرَة

عِوضاً عَن الإعْترَاف بِهِ بطُرق مُلتَوية .

وهَكَذَا نرىٰ المُؤَلّف يُسَجّل عَلَىٰ نَفْسَه بصَرَاحَة وَوضُوح أنَّهُ يَجْهَل حَقِيقَة المَصْدَر الأَوَّل للأَشيَاء : أَهُو الله أَمْ المَادّة ؟ .

وَمَع ذَلِكَ فَهُو يُصَرّح فِي كُلّ صَفحَة تَقرِيباً مِن صَفحَات كتَابه بأنَّه (المُـؤَلّف) مَادّي ، وَبأي الحَقِيقَة النّهائيّة هِي المَادّة ، وَيَخْتم كتَابه بالعِبَارَة التَالية :

« وَمِن المُؤكّد أَنَّ المَادِيَّة الدِّيالكتِيكيّة هِي أَنْجَح مُحَاولَة نَـعرفهَا اليَـوْم فِـي صِيَاغَة صُورَة كَونيَّة مُتكَاملَة تُنَاسب هَذَا العَصْر وَعُلُومه » .

وهَكَذَا يَقع المُؤَلّف فِي التَّنَاقض .

إنَّ تَبَني مَفهُوم مُعيَّن للكَون يَنْبَع بالضَّرورَة مِن تَبني قَرار حَاسم بالنّسبَة إِلَـىٰ العِلَّة الأُولىٰ للكَون :

إنَّ الإعْترَاف باللهِ عِلّةً أُولىٰ يُلزِم بتَبنّي المَفهُوم الإلٰهي للكَون .

وَالإعْترَاف بالمَادّة عِلّةً أولىٰ يُلزِم بتَبنّي المَفهُوم المَادِيّ للكَون .

وَعَدم الجَزم بالعِلّة الأُولىٰ للكَون ـ كَمَا يَكْشف عَنْهُ المُؤَلّف فِي نَـصّه الَّـذي نَقلنَاه ـ يَجْعَل مِن المُسْتَحِيل مَنطقيّاً تَبنّي أَي مِن المَفهُومَين ـ الإلٰهي أَو المَـادِيّ للكَون ، إذْ لاَ يُكمن بنَاء نَتِيجَة بدُون مُقدّمَاتهَا .

أَمَّا أَنْ نُعَلقّ الحُكم فِي مَسأَلَة العِلّة الأُولىٰ للكَون ، لأَنّنَا (فِي زَعم المُـؤَلّف) نَجْهَلها ، ثُمَّ نَجْزم بالمَفهُوم المَادِيّ للكَون كَمَا صَنع المُؤَلّف فَهَذَا تنَاقُض وَمحَال يَكْشف كَمَا قُلتُ وَأُكَرّر عَن البُؤس الفِكْري للمُؤلّف . إنَّ تَعلِيق الحُكم فِي العِـلّة الأُولىٰ يَقتَضينَا أَنْ نُعلّق أَيْضاً الحُكم فِي طَبيعَة مَفهُومنَا عَن الكَون : مَادِيّ هُو أَمْ إلٰهي ؟ .

وَيقع المُؤَلّف فِي تَنَاقض آخر بِالنِّسبَة إِلَىٰ مَسأَلة العِلّة الأُولىٰ، فَبعد أَنْ إِعْتَرف بصَرَاحَة فِي النَّص السَّابق بأَنَّه يَجْهَل الجوَاب عَن مُشكْلَة المَصْدَر الأَوَّل للأَشيَاء، نَرَاه فِي صَفحَة (٧٨) يُصَرّح بأَنَّه يَعْرف المَصْدَر الأَوَّل للأَشيَاء، وَيَنفي وجُود الله بشَكلٍ حَاسم، وَيُعَبّر عَن رَأيه هُنَا بالنَّص التَالي:

«وَأَنَّ الفِكْر الَّذي لاَ يَعْتَقد بوجُود الله أَو يُعَلّق الحُكم حَول المَوْضُوع بأَسرهِ قَد لاَ يَفْعَل ذَلِكَ مِن جِهَة تَكوِينه العَاطفي... إِنّه يَفْعَل ذَلِكَ لأَنَّ القنَاعَات الفِكْريَّة الَّتي تَشَكّلت لَدَيه عَلَىٰ أُسّس عِلْميَّة وَاضِحَة لاَ تَسمَح لَهُ بأَنْ يَعْتَقد بوجُود الله دُون أَنْ يَقع فِي تَنَاقض ذَاتي ودُون أَنْ يُضَحي بوحدَة تَفْكِيرَه وَمَنْطقه».

نَتَسَاءَل: كَيْف عَلّق الحُكم سَابقَاً فِي هَذِهِ المَسْأَلَة، وكَيْف جَزَم بالعَدَم هُنَا؟.

إِنّه عَلّق الحُكم سَابقَاً لأَنّه لاَ دَلِيل عَلَىٰ الوجُود (فِي زَعْمه) وَلاَ دَلِيل عَدَم العَدم، ومَع أَنَّهُ لَم يُقدّم أَي دَلِيل عَلَىٰ العَدَم نَرَاه جَزَم هُنَا بَعَدم وجُود الله.

* * *

إِنَّ المُصَور لاَ يَسْتَطِيع أَنْ يَلتَقط صُورَة دَقِيقَة لجِسم مَا يُرِيد تَصوِيرَه مَا لَم يَضْبط ـ بدّقة مُتنَاهيَة ـ زوَايَة الرُّؤيَة بَيْنَ عَدسته وبَيْنَ الجِسم المُرَاد تَصوِيرَه، فَإِذَا مَا أَخلَّ بِهَذَا الشَّرط الأَسَاسي حَصَل عَلَىٰ صُورَة مُشَوهَة، أَو لَم يَحصل عَلَىٰ صُورَة إِطلاَقَاً.

وَالأَمر فِي عَمليَات الفِكْر يَشْبَه هَذَا المثَال. فَإِذَا أَرَدنَا آكْتشَاف حَقِيقَة مَا أَو البَرهنَة عَلَىٰ فَرضيَّة مَا فَعَلينَا أَنَّ نُفكّر فِيْهَا مِن الزَّاويَة المُلاَئمَة لَهَا، المُتَّفقَة مَع طَبِيعتهَا ـ أَمَّا حِينَ نُفكّر فِيْهَا مِن زَاويَة أُخرىٰ، أَو نُطَبق عَلَيهَا شُروطَاً لاَ تَتَّفق مَع طَبِيعتهَا فَإِنّنا نُخْفق فِي مُهمتنَا، ويُؤدي ذَلِكَ بنَا فِي النّهايَة إِلَىٰ الضَّلال وسُوء الفَهْم

كَمَا حَدَث للمُؤلّف.

أَنَّ الشَّك فِي وجُود عِلّة نهَائيَّة للكَون، أَو الْإِعْترَاف بَذَلِكَ والشَّك بأَنّها الله أَو المَادّة يَنْتُج لَدىٰ رَجُل الفِكْر مِن أَحد عَاملَين: إِمّا عَن قُصُور فِكْري، وَإِمّا عَن سُوء ٱستخدَام للفِكر الطَّريقَة الصَّحِيحَة. إِنَّ مَا يَبدُو لِي هُو أَنَّ المُؤَلّف قَد نَظَر إِلَىٰ مَسأَلَة وجُود الله مِن غَير الزَّوايَة الصَّحِيحَة، فَأَدّىٰ بهِ ذَلِكَ إِلَىٰ الوقُوع فِي الخَطَأ: تَعلِّيق الحُكم فِي هَذِهِ المَسْأَلَة، أَو الجَزم بَعْدم وجُود الله، فَلَهُ رَأيَان فِي المَسْأَلَة كَمَا رَأينَا.

إِنَّ هَذَا يَكْشف عَن أَنَّ المُؤَلّف يُعَاني مِن ٱهتزَاز فِكْري حِيَال هَذِهِ المَسْأَلَة.

وعَلَىٰ أَي حَال فَهذِه المَسْأَلَة تُبْحَث عَلَىٰ مَرحَلتَين.

الْأُولىٰ: هَل نَحْنُ بحَاجَة إِلَىٰ الْإِلتزَام بعلّة أُولىٰ للكَون أَمْ لاَ؟.

الثَّانِيَة: إِذَا آمَنّا بلزُوم عِلّة أُولىٰ للكَون، فَهَل هَذِهِ العِلّة الْأُولىٰ هِي الله كَمَا تَقُول الفَلسَفَة الْإِلٰهيَّة أَمْ المَادّة كَمَا تَقُول الفَلسَفَةْ المَادِيَّة؟.

مَسْأَلَة العِلّة الْأُولىٰ

إِنَّ مَبْدَأ العِلِّيَّة (تَوقف كُلّ مَوجُود مُمكِن عَلَىٰ عِلّة لوجُودَه) مِن البَـدِيهيَّات الَّتي يُدركهَا العَقل البَشَري. إِنَّ الْإِنْسَان يَجد فِي صَمِيم طَبِيعَته مَا يَدفَع إِلَىٰ تَعْلِيل الْأَشيَاء وَالظَّوَاهر، وَٱكتشَاف أَسبَابها. وَقَد ٱعتَرف المُؤَلّف فِي صَفحَة (٢٥) بأَنَّ النَظَرِيَّة العِلْميَّة لاَ تَعْتَرف بالخَلق مِن لاَ شَيء.

وَكُلّ مَعْرفَة بشَريّة نَظَرِيَّة أَو تَـطبِيقيَّة تَـتَوقف عَـلَىٰ التَّسـلِيم بـمَبدأ العِـلِّيَّة وَالْإِذعَان لقوَانِينَه:

آ ـ مَبْدَأ العِلِّيَّة « إِنَّ لكُلّ شَيء سَبَباً ».

ب ـ قَانُون الحَتميَّة « إِنَّ كُلّ سَبَب يُولّد النَّتيجَة الحَتمِيَّة لَهُ بصُورَة ضَرُوريَّة وَلاَ يُمكن للنَّتَائج أَنْ تَنْفصل عَن أَسبَابها ».

ج ـ قَانُون التَّنَاسُب بَيْنَ الْأَسبَاب والنَّـتَائِج: « إِنَّ كُـلّ مَـجمُوعَة مُـتّفقَة فِـي حَقِيقتهَا مِن مَجَامِيع الطَّبِيعَة يُلزم أَنْ تَتّفق أَيْضَاً فِي الْأَسبَاب وَالنَّتَائِج ».

وَهَكَذَا يَتَوقف عَلَىٰ التَّسلِيم بمَبدَأ العِلِّيَّة وَقوَانِينه:

١ ـ إِثْبَات الوَاقع المَوْضُوعي للْإِحسَاس فِي التَّجربَة الشَّخصيَّة المَادِيَّة.

٢ ـ النَّظريَات وَالقوَانِين العِلْميَّة المُسْتَندَة إِلَىٰ التَّجربَة.

٣ ـ جوَاز الْإِستدلاَل وَإِنْتَاجه فِي أَي مَيْدان مِن المَيَادِين الفَلْسَفيَّة أَو العِلْميَّة

وَلَولاَ مَبْدَأ العِلِّيَّة لمَا أَمكَن إِثْبَات شَيء مِن ذَلِكَ .

* * *

وَهُنَا يُوَاجهنَا سُؤال أَسَاسي :

هَل مَبْدَأ العِلِّيَّة قَائِم عَلَىٰ أَسَاس تَجرِيبي أَو عَلَىٰ أَسَاس فَلْسَفي ؟ .

الحَقّ أَنَّ مَبْدَأ العِلِّيَّة لَيْسَ مَبدَأً يَسْتَند إِلَىٰ الحَسّ ، وَلاَ إِلَىٰ التَّجربَة وَإِنَّما هُو مَبْدَأ عَقلي ضَرُوري فَوق الحسّ وَفَوق التَّجربَة .

لَيْسَ مَبْدَأ العِلِّيَّة بُرهَانَاً حسيَّاً لأَنَّ الحسّ لاَ يَكْتَسب صِفَة الحَقِيقَة المَوْضُوعيَّة إِلاَّ عَن طَرِيق مَبْدَأ العِلِّيَّة ، فَلَيْسَ مِن المَعقُول أَنْ يَكُون مَبْدَأ العِلِّيَّة مَدِيناً للحسّ فِي ثبُوتهِ .

وَلَيْسَ مَبْدَأ العِلِّيَّة نَظَريَّة عِلْميَّة تَجرِيبيَّة ، لأَنَّ جَمِيع النَّظريَات العِلِّيَّة تَتَوقف عَلَيهِ . فَإِنَّ كُلّ ٱسْتنتَاج عِلمي قَائِم عَلَىٰ التَّجربَة يُواجه المُشكْلَة التَاليَة ، وهِي : أَنَّ التَّجربَة الَّتي يَسْتَند عَلَيهَا الإِستنتَاج مَحدُودَة بنمَاذج مُعَيَّنَة ، فَكَيف تَكُون بمُجردهَا دَلِيلاً عَلىٰ نَظَرِيَّة عَامّة ؟ وَالحَل الوَحِيد لِهَذِه المُشكْلَة فِي العِلِّيَّة وَقوَانِينهَا : مَبْدَأ العِلِّيَّة . قَانُون الحَتميَّة . قَانُون التَّنَاسُب .

فَإِذَا ٱفْتَرضنَا أَنَّ مَبْدَأ العِلِّيَّة نَفْسَه ، مُرتكز عَلَىٰ التَّجربَة فَسنُوَاجه مُشكْلَة العمُوم وَالشّمول مِن جَدِيد عَلَىٰ صَعِيد مَبْدَأ العِلِّيَّة نَفْسَه ، وذَلِكَ لأَنَّ التَّجربَة لَيْسَت مُستَوعبَة للكَون ، فَكَيف تُعتَبر دَلِيلاً عَلَىٰ نَظَرِيَّة عَامّة ، وَقَد كنّا نَحل هَذِهِ المُشكْلَة فِي مُخْتَلف النَّظريَات العِلْميَّة بالإِستنَاد إِلَىٰ مَبْدَأ العِلِّيَّة ، بصِفَته الدَّلِيل الكَافِي عَلَىٰ عمُوم النَّتيجَة وشمُولَهَا ، وَأَمّا إِذَا ٱعْتَبر نَفْس هَذَا المَبْدَأ تَجرِيبيَّاً ، ووَاجهنَا مَسأَلة العمُوم وَالشّمول بالنّسبَة إِلَيهِ ، فَسَوف نَعْجَز نهَائيَّاً عَن الجوَاب عَلَيهِ .

وَإِذَن، فَــلاَبُدّ أَنْ يَكُــون مَــبْدَأ العِـلّيَّة فَـوق التَّـجربَة، وقَـاعدَة أَسَـاسيَّة للْإستنتَاجَات التَّجرِيبيَّة عَامّة.

وأَخِيرَاً، إِنَّ مَبْدَأ العِلّيَّة مَبْدَأ ضَرُوري لاَ يُمكن الْإِسـتدلاَل عَـلَىٰ رَدّه، وذَلِكَ لْأَنَّ الدَّلِيل علّة للعِلم بالشَيء المُستَدل عَلَيهِ، وَإِذَن محَاولَة الْإِستدلاَل عَـلَىٰ رَدّ مَبْدَأ العِلّيَّة تَنطوي عَلَىٰ الْإِعْتِرَاف بمَبدَأ العِلّيَّة وَتَطبِيقَه.

وَالخُلاَصَة: أَنَّ مَبْدَأ العِلّيَّة لَيْسَ مَبدَأً حِسيَّاً، وَلَيْسَ مَبدَأ تَجرِيبيَّاً، وَلاَ يُمكن نَقضَه بأَي دَلِيل، وَإِنَّما هُو مَبْدَأ عَقلي ضَرُوري فَوق الحسّ وَالتَّـجربَة، وَثَـابت بصُورَة مُتقدّمة عَلَىٰ جَمِيع الْإِستدلاَلاَت الَّتي يَقوم بهَا الْإِنْسَان.

* * *

بَعْد أَنْ آمَنَّا بمَبدَأ العِلّيَّة وَقوَانِينَه، وأَنَّهُ مَبْدَأ عَقلي ضَرُوري، تَخْضَع لَهُ جَمِيع المَوجودَات المُمكنَة وَلاَ تَسْتَغني عَنْهُ، نِتْسَاءَل:

لمَاذَا تَحتَاج الْأَشْيَاء إِلَىٰ عِلَلّ، وَلمَاذَا لاَ تُوجد الْأَشْيَاء بدُون عِلَلّ؟.

وَقَد أَجَاب عَن ذَلِكَ الفَيلسُوف الْإِسْلاَميّ الكَبِير (صَدْر الدِّين الشِّيرَازي) بمَا ملُخَصّه: إِنَّ عِلاَقَة العِلّيَّة بَيْنَ العِلّة وَالمَعلُول هِي اَرتبَاط بَيْنَ شَيئَين، وَللْإِرتبَاط مَظَاهر مُتنوعَة، ولَكنَّها جَمِيعَاً تَرجع إِلَىٰ نَوعَين.

أَحَدهُمَا: أَنْ يَكُون لكُلّ مِن الشَّيئَين المُرتَبط أَحدهُما بالْآخر وجُود مُسْـتَقل سَابق عَلَىٰ حصُول الْإِرْتبَاط: يَكُون القَلم ـ مَـثَلاً ـ مَـوجُوداً بـصُورَة مُسْـتَقلّة، وَيَكُون الكَاتب مَوجُوداً بصُورَة مُسْتَقلّة، ثُـمَّ يَـحصَل الْإِرْتـبَاط بَـيْنَهُما حِـينَ يَسْتَخدم الْإِنْسَان القَلم للكـتَابَة. ويَكُـون القـمَاش ـ مَـثَلاً ـ مَـوجُوداً بـصُورَة مُسْتَقلّة، ويَكُون الشَّخص مَوجُوداً بصُورَة مُسْتَقلّة أَيْضَاً، ثُمَّ يَـحصَل الْإِرْتـبَاط

بَيْنَها حِينَ يَلبَس الشّخص القمَاش ثيَاباً، وهَكَذَا.

ثَانِيهُمَا: أَنْ لاَ يَكُون لأَحد الشَّيئَين وجُود مُسْتَقل عَن وجُود الآخر وهَذَا هُو رِبَاط العِلِّيَّة، مَثَلاً (ب) آرتبَاط بـ(آ) بربَاط العِلِّيَّة، فَفي هَذِهِ الحَالَةُ لاَ يَكُون (ب) وجُود مُسْتَقل عَن وجُود (آ) وَإِنَّما حَقِيقَة وجُود (ب) عبَارَة عَن آرتبَاطَه وَعلاَقَته بـ(آ) فَلو آنْقَطع هَذَا الإِرْتبَاط آنْقَطع وجُود (ب) بالضَّرُورَة ـ وهَذَا بخلاَف مَا إِذَا كَان الإِرْتبَاط لَيْسَ عَلَىٰ نَحو العِلِّيَّة، فَإِنَّ آنقطَاع الإِرْتبَاط بَيْنَ القَلم وَالكَاتب لاَ يُؤثّر عَلَىٰ الوجُود المُسْتَقل لكُلٍّ مِنْهُمَا، وَإِنَّما يَحتَفظ كُلّ وَاحد مِنْهُمَا بوجُود المُسْتَقل قَبل الإِرْتبَاط ومَعَهُ وبَعْده، بَيْنَما المَعلُول وجُود مُنْبَثق عَن العِلّة حَال آرتبَاطه بهَا أَمَّا قَبل ذَلِكَ فَلاَ وجُود لَهُ أَبدَاً، وَأَمّا بَعْد آنقطَاع الإِرْتبَاط فَيَنعَدم فَورَاً.

وَإِذَن: فَالحَقَائِق الخَارجيَّة لَيْسَت فِي الوَاقع إِلاَّ تَعَلُّقَات وَآرتبَاطَات، فَالتَّعلُّق والإِرْتبَاط مُقوّم لكيَانهَا وَوجُودهَا، وَالسّر فِي إِحتيَاجهَا إِلَىٰ العِلّة أَنَّ وجُودهَا وَكيَانها عَبَارة عَن الإِرْتبَاط وَالتَّعلُّق بمَنبَع وجُودهَا المُبَاشر، وَهُو العِلّة.

* * *

إِنَّ مَبْدَأ العِلِّيَّة فِي الكَون يقَودنَا إِلَىٰ قَانُون النّهايَة: «**إِنَّ العِلَلّ المُتصَاعِدَة الَّتي يَنْبَثق بَعْضهَا عَن بَعْض، يَجْب أَنْ تَكُون لَهَا بدَايَة، أَي عِلّة أُولىٰ تَنْبَثق عَن عِلّة سَابقَة**».

وذَلِكَ لأَنَّ العِللّ لاَ يُمكن أَنْ تَتَصَاعد بشكَلٍّ لاَ نهَائي، فَإِنَّ المَوجُودَات المَعلُولَة كُلّها آرتبَاطَات، وهِي تَحتَاج إِلَىٰ حَقِيقَة مُسْتَقلّة تَنْتَهي إِلَيهَا، وَإِلاَّفَإِنَّ سُؤال «لمَاذَا؟» يَبقىٰ قَائِمَاً بالنّسبَة إِلَىٰ كُلّ مَوجُود، وَإِذَن، فَإِنَّ عَقلنَا يقُودنَا إِلَىٰ

الْإِيمَان بسَبَب أَوَّل مُتَحرّر مِن مَبدَإِ العِلِّيَّة ، مُسْتَقل بذَاتهِ عَن كُلّ شَيء ، وبَذَلِكَ لاَ نوَاجه بالنّسبَة إِلَيهِ سُؤال « لمَاذاَ ؟ » .

❊ ❊ ❊

إِنَّ خُضُوع الكَون كُلّه لمَبدَأ العِلِّيَّة وَقوَانِينَه قَادنَا بصُورَة حَتميَّة إِلَىٰ الْإِيـمَان بعِلّة أُولىٰ وَاجبَة الوجُود بالذَات ، غَير مُحتَاجة إِلَىٰ علّة ، وَلاَ يَسـع الْإِنْسَـان إِلاَّ الْإِذعَان لِهَذِه الضَّـرورَة العَـقليَّة لأَنَّ رَفـضهَا يُـؤدي إِلَـىٰ التَّسـلسُل اللاَّنـهَائي المُسْتَحِيل .

الله أَمْ المَادّة

يَتَألّف الكَون المَنظُور مِن عَدَد مِن العَنَاصر الْأَسَاسيَّة بَلَغ عَدَد مَا اكتُشفَ مِنْهَا حَتَّىٰ الْآنْ عُنْصرَين وَمِئَة عُنْصر رُتّبت فِي جَدولٍ حَسَب تَسَلسُل وَزنهَا الذَّرّي. وَيَقع الهدرُوجُين فِي أَوَّل هَذَا الجَدوَل لْأَنّه أَخَف العَنَاصر فِي وَزنهِ الذَّرّي، فَهُو يَحتَوي فِي نَوَاته عَلَىٰ شُحنَة وَاحدَة مُوجبَة، يَحملهَا بُروتُون وَاحد، وَيُحِيط بهَا أَلكترَون وَاحد ذُو شُحنَة سَالبَة، وَيَقع فِي نهَايَة الجَدوَل النُّوبليُوم ـ فَرَقمَه الذَّرّي (١٠٢) أَي أَنَّ نَوَاته تَشْتَمل عَلَىٰ (١٠٢) وحدَة مِن وَحدَات الشُّحنَة المُوجبَة، وَيُحِيط بهَا مَا يُمَاثل هَذَا العَدَد مِن الْأَكترونَات ذَات الشُّحنَات السَّالبَة.

فِي حدُود مَا وَصَل إِلَيهِ العِلم الْآنْ هَذِهِ العَنَاصر هِي المَوَاد الْأَسَاسيَّة الَّتي يَتَألّف مِنْهَا الكَون المَادِيّ، وهَذَا الحَشد الَهَائل مِن الحَقَائِق والْأَنوَاع المُخْتَلفَة يَرجَع لَدىٰ التَّحلِيل إِلَىٰ تِلْكَ العَنَاصر.

* * *

وَقَد أَثبَت العِلم التَّجربي أَنَّ خصَائِص هَذِهِ العَنَاصر غَير نهَائِيَّة وَغَير ثَابتَة، بَل يُمكن تَبَدّل بَعْضهَا ببَعْض، وهَذَا التَّبدل بعْضَهُ يَتم بصُورَة تلقَائِيَّة، وَبَعْضَهُ يُمكن إِحدَاثه بالوَسَائِل العِلْميَّة. فَعُنصر اليُورَانيُوم ـ مَثَلاً ـ يَطلُق أَنوَاعَاً ثَلاَثَة مِن الْأَشعّة، مِنْهَا أَشعَة (أَلفَا) وهِي عِبَارَة عَن ذرّات عُنْصر الهليُوم، وَيَتحوّل

اليُوارَنيُوم تَدريجيّاً إِلَىٰ رَاديُوم ، وَيَتحوّل الرَّاديُوم ـ بَعْد عِدّة تَحوّلاَت عُنصريَّة ـ إِلَىٰ عُنْصر الرّصَاص .

وَقَد تَمَكّن العَالِم الطَبِيعِي (رَذَرفُورد) مِن تَحوِيل عُنْصر إِلَىٰ عُنْصر آخر يَجْعَل ذَرّات الهـليُوم تَـصْطَدم بـذَرّات الآزوت ، فَـنَتجَت ذَرّة هَـيدروجِين مِـن ذَرّة الآزوت ، وَتَحوّلت ذَرّة الآزوت إِلَىٰ أُوكسجِين .

وهَكَذَا غَدَا مِن الثَّابت أَنَّ خَصَائِص العَنَاصر لَيْسَت ذَاتيَّة للعَنَاصر .

* * *

وَقَد اسْتطَاع العِلم التّجربي ـ عَلَىٰ ضَوء نِسبيَّة آينشتِين ـ أَنْ يَنْزَع عَن الكُتّلَة صِفَتها المَادِيَّة ، وَيُحوّلَهَا إِلَىٰ طَاقَة ، فَلَم يَعُد فِي الكَون عُنْصرَان مُتمَيزَان : أَحدهُما المَادّة المُحسّة ، وَالآخَر الطَّاقَة غَير المُحَسَّة ، بَل غَدَت المَادّة عبَارَة عَـن طَـاقَة مُرَكّزة ، فَإِنَّ كُتلَة الجِسم نِسبيَّة ، ولَيْسَت ثَابتَة ، فَهي تَزِيد بزيَادَة السُّـرعَة ، كَـمَا أَكّدَت التَّجارب الَّتي أَجرَاها عُلمَاء الفِيزيَاء الذَّرّيَة . وَلمَّا كَانَت كُتلَة الجِسم تَزدَاد بإِزْديَاد حَرَكَته ـ ولَيْسَت الحَرْكَة إِلاَّ مَظْهراً مِن مَظَاهر الطَّاقَة ـ فَالكُتلَة المُتزَايدَة فِي الجِسم هِي إِذَن طَاقَته المُتزَايدَة ، وذَلِكَ وفقاً للمُعَادلَة التَالِيَة :

الطَّاقَة = كُتلَة المَادّة × مُرَبّع سُرعَة الضَّوء : « ١٨٦٠٠٠ » مِيلٍ فِي الثَّانيَة . كَمَا أَنَّهُ : الكُتلَة المَادّة = الطَّاقَة تَقسِيم مُرَبّع سُرعَة الضَّوء .

وَإِذَن ، فَنَفس صِفَة « المَادِيَّة » صِفَة عَرضيَّة ، ولَيْسَت ذَاتيَّة للمَادّة المُتطَورَة .

* * *

عَلَىٰ ضَوء الحقَائِق السَّابقَة :

آ ـ إِنَّ المَادّة الأَصليَّة للكَون المَادِيّ تَرجَع إِلَىٰ حَقِيقَة وَاحدَة مُشْتَرِكَة .

ب ـ إِنَّ خوَاصّ المَركبَات الَّتي تَتكوّن مِن العَنَاصر ـ هَذِهِ الخـوَاصّ لَـيْسَت ذَاتيَّة بالنّسبَة إِلَىٰ المَادّة الأَصليَّة ، وَإِنَّما هِي عَارضَة عَلَيهَا بسَبب التَّركِيب ، وَلَيْسَ عَن الطَّبِيعَة الأَسَاسيَّة المُكوّنة للمُرَكّب .

ج ـ إِنَّ خوَاصّ العَنَاصر البَسيطَة الَّتي يَتكوّن مِنْهَا العَالَم المَادِيّ أَيْضَاً لَيْسَت ذَاتيَّة لتِلكَ العَنَاصر ولَيْسَت نهَائِيَّة بدَلِيل تَحول بَعْض العَنَاصر إِلَـىٰ بَـعْض آخـر كَمَارَأينَا .

د ـ وأَخِيرَاً إِنَّ صِفَة « المَادِيَّة » لَيْسَت ذَاتيَّة للمَادّة المَحسُوسَة ، لأَنَّهَا تَتحوّل ـ فِي نهَايَة المَطَاف ـ إِلَىٰ طَاقَة .

وَإِذَن فَلَيسَت لَدَينَا « حَقِيقَة نهَائِيَّة » هِي المَادّة . ولَيْسَت لَدَينَا حَقِيقَة نـهَائيَّة . هِي الطَّاقة .

النَّتِيجَة

أَنَّ المَادّة لاَ يُمكن أَنَّ تَكُون هِي العِلّة النّهائيَّة للكَون ، لأَنَّ الكَون يَحْتَوي عَلَىٰ حَشدٍ هَائِل مِن المَظَاهر المُتنَوعَة ، والأَنوَاع المُتبَاينَة ، وهِي تَرجَع بأَجمَعهَا إِلَـىٰ حَقِيقَة وَاحدَة كَمَا رَأينَا . وَلاَ يُمكن للحَقِيقَة الوَاحدَة أَنْ تَخْتَلف أَثَارهَا وَتَـتبَايَن أَفعَالهَا ، إِذْ لَو أَمكَن ذَلِكَ لأَمكَن أَنْ تَكُون الحَقِيقَة الوَاحدَة مُتنَاقضَة الظَّـوَاهـر ، وَلَكن هَذَا مُسْتَحِيل لأَنّه يُؤدي إِلَىٰ القَضَاء عَلَىٰ نَتَائج العُلُوم الطَّبِيعيَّة جَمِيعَاً ، لأَنَّ هَذِهِ العُلُوم قَائِمَة ـ كَمَا رَأينَا سَابقَاً ـ عَلَىٰ أَسَاس قَانُون التّنَاسب الَّذي يَقضي بِأَنَّ الحَقِيقَة الوَاحدَة لَهَا آثَار وَاحدَة وَثَابتَة لاَ تَتغَيّر ؛ فَقَد بَيّنَّا أَنَّ التَّـجربَة فِـي العِـلم الطَّبِيعِي لاَ تَتنَاول إِلاَّ نَمَاذج ضَئِيلَة مِن المَادّة المَدرُوسَة ، وَتُعَمم نَتَائج التَّـجربَة

إِلىٰ جَمِيع المَادّة المَدرُوسَة بمُقتضىٰ قَانُون التَّنَاسب، فَلو فَرضنَا إِمكَان تَنَاقض ظوَاهر الحَقِيقَة الوَاحدَة لمَا أَمكَن وَضع أَي قَانُون عِلمي عَامّ، وبَذَلِكَ تَنهَار العُلُوم كُلّيَة.

وَإِذَن، فَهَذَا الفَرض ـ أَنَّ التَّنوع مِن خصَائِص المَادّة الذَّاتيَّة ـ فَرض مُستَحِيل.

وَإِذَن، مِن المُستَحِيل أَيْضَاً أَنْ تَكُون المَادّة هِي العِلّة النّهائيَّة للكَون، لْأَنَّ هَذَا الفَرض يُؤدي بنَا إِلىٰ الْإِستحَالة العَقليّة كَمَا رَأينَا، وَيَصدم حقَائِق التَّجربَة الوَاقعيَّة.

وَإِذَن، فَإِذَا كَانَت المَادّة غَير صَالحَة لْأَنْ تَكُون علّة نهَائِيَّة، فَلاَبُدّ أَنْ تَكُون هَذِهِ العِلّة النّهائيَّة فَوق المَادّة وَفَوق الطَّبِيعَة.

* * *

هَل بَقي عَلَينَا شَيء؟

نَعَم، بَقي عَلَينَا أَنْ نُنَاقش ـ بصُورَة مُبَاشرَة ـ مَوقِف المَارْكسيَّة مِن هَذِهِ المَسأَلَة لنَفْضَح قصُورهَا وَعَجزهَا وَسَطحيتهَا.

تَقُول المَارْكسيَّة فِي تَصوِير نشُوء الكَون عَن المَادّة: أَنَّ الْأَشيَاء تُنْتَج عَن حَركَة فِي المَادّة، وإِنَّ حَرَكَة المَادّة نَاشِئَة ذَاتيَّاً عَن المَادّة نَفْسهَا لْإِحتوَائهَا عَلَىٰ النَّقَائِض فِي دَاخلهَا، وَقيَام الصّرَاع بَيْنَ تِلْكَ النَّقَائِض.

وَنَغض النَّظر الْآنْ عَن بُطلاَن المَبْدَأ المَاركسي (مَبْدَأ التَّنَاقض) وَنُنَاقش هَذِهِ المَسْأَلَة وفقَاً لِهَذَا المَبْدَأ لنَرىٰ إِنْ كَانَت المَارْكسيَّة قَادرَة عَلَىٰ تَفسِير نشُوء الكَون مِن المَادّة وفقَاً لمَبَائهَا؟.

لَقَد أَوضَح العِلم ـ كَمَا أَشرنَا ـ إِلَىٰ أَنَّ العنَاصر الَّتي يَتَألّف مِنْهَا الكَون إِبتدَاءً مِن الهيدورجِين وحَتَّىٰ نهَايَة السّلسلَة تَعُود إِلَىٰ مَادّة وَاحدَة بَسِيطَة مُشتَركَة بَيْنَ الجَمِيع (وَلنَغض النَّظر عَن أَنَّ هَذِهِ المَادّة الْأَسَاسيَّة عِبَارَة عَن طَاقَة) فَنَسأَل: كَيْف

وجَدت العنَاصر الْأَسَاسيَّة للكَون ؟.

سَنقُول ـ مَع المَارْكسيَّة ـ إِنَّ التّنَاقضَات الدَّاخليَّة فِي المَادّة الْأَسَاسيَّة (وَلاَ نَعْرف مِن أَينَ جَاءَت هَذِهِ التّنَاقضَات فِي المَادّة الْأَسَاسيَّة البَسِيطَة المُتجَانسَة) ـ إِنَّ التَّناقضَات الدَّاخليَّة وَلّدت أَبسَط العنَاصر (الهَدروجِين) وَبالتَّنَاقضَات الدَّاخليَّة فِي الهيدروجِين تَولّد عرنْصر أَرقىٰ مِنْهُ وَأَكثَر تَعقِيداً، وَهُو عُنْصر الهليُوم، وَتَسْتَمر التَّنَاقضَات تَفْعل فِعلهَا فِي الهليُوم وَمَا يَتولّد مِنْهُ حَتَّىٰ يَصل التَّطور إِلَىٰ ذَروَته فِي العُنصر الثَّاني بَعْد المِئَة النّوبليُوم.

هَذَا هُو التَّفْسِير الَّذي يُقَدّمه الدّيَالكتِيك ليُفسّر بهِ دِينَاميكيَّة المَادّة.

وَلَكن بُطلاَن هَذَا التَّفْسِير يَتّضح حِينَ نُلاَحظ أَنَّ الهيدورجِين لَو كَان مُشتَملاً بصُورَة ذَاتيَّة عَلَىٰ نَقِيضَه، وَمُتطوراً بسَبب ذَلِكَ فَلمَاذَا لَم تَتكَامل جَمِيع ذرّات الهيدروجِين وَتَتحول إِلَىٰ هليُوم، وَلمَاذَا تَحوّل بَعْضهَا إِلَىٰ عُنصر الهليُوم وَبَقي الْآخر مُحْتَفظاً بخوَاصّه العُنصريَّة بالرَّغم مِن تَنَاقضَاته الدَّاخليَّة الَّتي حَوّلت أَجزَاء مِنْهُ إِلَىٰ هليُوم.

إِنَّ هَذَا المثَال يُمكن تَطبِيقَه عَلَىٰ جَمِيع العَنَاصر الْإِثنَين وَالمِئَة، وَهُو يَكْشف عَن بُطلاَن التَّفْسِير المَاركسي لدِينَاميكيَّة المَادّة.

وكَمَا اتّضح بُطلان التَّفْسِير المَادِيّ عَلَىٰ مُستوىٰ للعنَاصر يَتّضح بُطلاَنه بصُورَة جَلِيَّة عَلَىٰ مُستوىٰ المُركبَات، ولنَأخذ المَاء مَثلاً عَلَىٰ ذَلِكَ: المَاء مُرَكّب مِن أُكسجِين وَهَيدروجِين ولنَفرض وفقاً للتَّفسِير المَاركسي أَحد هَذَين العُنصرَين إِثبَاتاً وَالْآخر نَفيَاً نَتَج عَنْهُما مُرَكّب المَاء.

وَنَتَساءَل: إِذَا كَان هَذَا التَّفَاعل يَتم بصُورَة ذَاتيَّة بَيْنَ عُنصرَي الْأُكسيجن

وَالهيدروجِين ، فَلمَاذَا ٱختَصّ بقِسم مُعَيَّن مِنْهَا ، وَبَقِيت الْأَقسَام الْأُخرىٰ مُتحرّرة مِن أَسر هَذَا القَانُون ، فَيُوجد أُكسجِين حرّ ، ويُوجد هيدروجِين حُرّ ، ويُوجد مَاء .

إِنَّ هَذَا المِثَال ـ وَيُمكن تَطبِيقَه عَلَىٰ كُلّ مُرَكّب فِي الكَون ـ يَكْشف بوضُوح عَن بُطلاَن التَّفْسِير المَاركسي لَدَينَاميكيّة المَادّة .

* * *

الحَقِيقَة هِي أَنَّ المَادّة لَيْسَت ديـنَاميكيَّة ، ولَـيْسَت هِـي نَـفْسهَا سَـبباً ذَاتـيَّاً لْإِكْتسَاب خصَائِصهَا وَتَنوعهَا ، فَقَد عَرّفَتنَا النَّتَائِج العِلْميَّة أَنَّ جَـمِيع خَـصَائِص المَادّة عَرضيَّة .

١ ـ خَصَائِص المُركّبَات صِفَات عَرضيَّة لَهَا جَاءَت بسَبب تَـركّب العَـنَاصر . فخَاصّة السَّيلاَن فِي المَاء عَرضيَّة جَاءَت مِن ٱتّحَاد عَنَاصره ، وَإِذَا فَرزْنَاهَا تَرجَع إِلَىٰ حَالتهَا الغَازيَّة وَتَنْعَدم خَاصّة السَّيلاَن .

٢ ـ خَصَائِص العنَاصر نَفْسهَا صِفَات عَرضيَّة لَهَا ، فَاليُورانيُوم مَثلاً خَصَائِصَه مِن ٱخْتزَانَه لْأَنوَاع أَشعَته ، فَإِذَا فَقَدهَا يَتحول إِلَىٰ الرَّاديُوم الَّذي يَتحول بدَورهِ ـ بَعْد عِدّة تَحوّلاَت إِلَىٰ رصَاص .

٣ ـ خُصُوصيَّة « المَادِيَّة » فِي المَادّة البَسيطَة نَفْسهَا صِفَة عَرضيَّة لَـهَا ، فَـقَد عَرفنَا أَنَّهَا تَتحوّل إِلَىٰ طَاقَة ، وَتَتكوّن مِن الطَّاقَة .

وَإِذَن : فَلَيسَت المَادّة دِيناميكيَّة بذَاتهَا تُولّد تَفَاعُلاتهَا وَتنُوعاتهَا وَظوَاهـرهَا بنَفسهَا ، لْأَنَّ كُلّ ذَلِكَ (حَتَّىٰ مَادّيتهَا) شَيء عَرضي لَهَا .

وهَكَذَا يَظْهَر بجَلاَء ووضُوح عَجز المَارْكسيَّة عَن تَفسِير نشُـوء الكَـون مِـن المَادّة ، وَتَسقط بصُورَة مُزْريَة فِكرَة أَنَّ المَادّة هِي العِلّة الْأُولىٰ .

وهَكَذَا نَنتَهي بصُورَة حَتميَّة إِلَىٰ الْإِيمَان باللهِ علّة نهَائِيَة للكَون.

وَيَجب أَنْ نُوضّح هُنَا أَنَّ إِيمَاننا بالله لاَ يَعْنَي أَنَّ الْأَسبَاب الطَّبِيعيَّة لاَ مَعْنَىٰ لَهَا وَلاَ أَهميَّة لَهَا، وَإِنَّمَا يَعْنَي أَنَّ التَّنوع وَالتَّطور الظَّاهر وَالخَلفي فِي الكَون يَعُود إِلَىٰ أَسبَاب طَبِيعيَّة خَارج المُحتوىٰ الذَّاتي للمَادّة، وهَذِهِ الْأَسبَاب تَتصَاعد مُـتولّدَة مِن بَعْضهَا حَتَّىٰ تَصل فِي النّهايَة إِلَىٰ علَّة وَرَاء الطَّبِيعَة هِي الله تَعَالىٰ.

الْإِسْلَام وَالعِلْم

الْإِسْلاَم وَالعِلْم

يَرَىٰ المُؤَلّف فِي صَفْحَة (٢١):

« أَنَّ الدِّين ـ كَمَا يَدخل فِي صَمِيم حَيَاتنَا، وكَمَا يُؤثّر فِي تَكوِينَنا الفِكري وَالنَّفسي ـ يَتعَارض مَع العِلم، ومَع المَعْرفَة العِلْميَّة قَلبَاً وَقَالبَاً، رُوحَاً وَنَصّاً».

نُنَاقش فِيمَا يَلي الْأَدلّة الَّتي سَاقهَا المُؤَلّف عَلَىٰ رَأيهِ هَذَا لنَكشف عَن خَطَأه، وعَن جَهْله بمَوضُوع نَقْده (الدِّين الْإِسْلاَميّ).

❊ ❊ ❊

يُذَكّر المُؤَلّف قَارئَه بالصَّرَاع الَّذي حَدَث بَيْنَ العِلم وَالدِّين فِي أُوربَا، ونَحْنُ نَقُول لَهُ: إِنَّ الصّرَاع حَدَث بَيْنَ عُلمَاء عَصْر النَّهضَة وَكَنيسَة القُرُون الوسطَىٰ لْأَسبَاب لاَ مَجَال لذِكرهَا الْآنْ، وَلَيْسَ بَيْنَ العِلم والْإِسْلاَم. وَحَدَث فِي أُوربَا وَلَيْسَ فِي العَالَم الْإِسْلاَميّ، والْإِسْلاَم لَيْسَ مُلزمَاً بتَبرِير مَوَاقف لَم يَتّخذهَا هُو فِي منَاطق جُغرَافيَة لَم يَصل إِلَيهَا، وفِي مُجْتمعَات لَمْ يَطبَعهَا بطَابعه.

وَمَا يَدّعِيه المُؤَلّف مِن أَنَّ فِي العَالَم العَرَبي مَعْركَة تَدُور فِي الخَفَاء بَيْنَ الدِّين وَالعِلم شَيء لاَ نَعْرفهُ وَلاَ نَحسّه، وَلاَ يَعرفهُ أَحد وَلاَ يَحسّه ـ نَعَم تَدُور فِي العَالَم العَرَبي مَعْركَة ـ ظَاهرَة ولَيْسَت خَفيَّة ـ بَيْنَ الْإِسْلاَم وبَيْنَ الْإلحَاد مُتمثّلاً فِي المَارْكسيَّة وَمُشتقَاتها. والمَارْكسيَّة لَيْسَت عِلمَاً: لَيْسَت عِلمَاً بَعْد أَنْ اَفْتَضح

عَجزهَا عَن تَفْسِير تَطَور الكَون، والحَيَاة، والمُجْتَمع، وبَعْد أَنْ اضطُّر قَادتهَا إِلَىٰ تَغييِّرهَا وَتَبديلهَا حَتَّىٰ لَمْ يَبق مِنْهَا فِي بَعْض المَنَاطق إِلاَّ اسمهَا، لَيْسَت عِلمَاً وَإِنَّمَا هِي مَجْمُوعَة مِن الْأَخْطَاء فِي الفِكْر أُطلَق عَلَيهَا اسم العَقِيدَة. وإِنَّ صدَاقَتنَا مَع المُعَسكر الشَّرقي لاَ تَعْني تَبعِيتنَا لَهُ فِي عقَائِدِهِ وَطرَائِفِهِ الَّتي اتَّضح لمُفكرِينَا وَعُلمَائنا بُطلاَنها. إِنَّنا أَصدقَاء، نَعْم، وَلَكن عَقِيدتنَا وَجُذورنَا التَّأرِيخِيَّة سَتَبقىٰ هِي الَّتي تُكوّن شَخصِيتنَا الحضَارِيَّة المُسْتَقلة. وَتَدُور فِي العَالَم الْإِسْلاَميّ مَعْرَكَة بَيْنَ الْإِسْلاَم وبَيْنَ تَيَّار الْإِنحلاَل وَالْإِباحيَّة الجِنسيَّة، وَالْإِنهيَار الْأَخْلاَقي الوَافد إِلَينا مِن الغَرب، وَتَدُور فِي العَالَم الْإِسْلاَميّ مَعْرَكَة بَيْنَ الْإِسْلاَم وبَيْنَ الْإِسْتعمَار بشَتىٰ أَشكَالَه وَأَلوَانه: العَسْكَري، والْإِقْتصَادي، وَالفِكْري، مِن أَي مَصْدَر جَاء.

* * *

يَرَىٰ المُؤَلّف فِي صَفْحَة (٢٢):

آ ـ «وَيَحوي الدِّين الْإِسْلاَميّ آرَاء وَمُعتقدَات تُشَكّل جُزءً لاَ يَتَجزأ مِنْهُ عَن نشُوء الكَون وَتَركِيبه وَطَبِيعَته، عَن تَأرِيخ الْإِنْسَان وَأَصلَه وَحَيَاته خِلاَل العُصُور».

لاَ أَدري أَين وجدَ المُؤَلّف هَذِهِ «المَوسُوعَة الدِّينيَّة عَن الكَون» نُشُوئه، وَتَركِيبَه، وَطَبِيعَته. الحَقّ أَنَّ المَوجُود فِي القُرْآن وَالسُّنَّة الصَّحِيحَة لاَ يَعدُو الْأَفكَار العَامّة عَن نشُوء الكَون، وأَنَّهُ نَشَأ بإِرَادَة الله، وعَن أَصل تَكوِين هَذِهِ السِّلاَلَة البَشريَّة المَوجُودَة الْآنْ، وهِي لاَ تَتنَافىٰ مَع أَيّة حَقِيقَة عِلْميَّة قَائِمَة عَلَىٰ الْإِطْلاَق ـ كَمَا سَنَرىٰ.

نَعْم، رُبَّما يَكُون المُؤَلّف قَد اسْتَقىٰ بَعْض مَعلُومَاته الدِّينيَّة مِن أَشخَاص أَو

مصَادر مُتَأثرَة بالإِسرَائِيليَات كبَعض العَجَائز المُتَأثرَات كَـثِيراً بِـهَذَا النَّـوع مِـن القَصَص فَيَروينهَا لأَطفَالهنَّ ، كَمَا لاَ يَزَال يُؤمِن كَثِير مِن المُتعَلمِين عِنْدَنا بِـبَعض الفَرضيَّات « العِلْميَّة » الَّتي شَاعَت فِي القَرن الثَّامِن عَشَر وَالتَّاسع عَشـر ، وَالَّـتي تَجَاوزهَا العِلم مُنْذُ عقُود مِن السّنِين وَلَكن أَفْكَار مُتعَلمِينَا لاَ تَزَال مُـتَشبثَة بـهَا بالرَّغم مِن الشّكـوك الكَـبِيرَة الَّـتي تُـحِيط بأَنـقَاضهَا البَـاقيَة ك « الدَّارويـنيَّة » و « المَادِيَّة الجَدليَّة » ، وَلاَ يَفُوتنَا أَنْ نُذَكّر المُؤَلّف وغَيْرَه بأَنَّ كَثرَة أَشيَاع فِكرَة مَا لاَ تَعني أَنَّها حَقِيقَة ، وَأَنَّ القوّة المَادِيَّة لاَ يُمكن أَنْ تَسبَغ صِفَة الحَقِيقَة عَلَىٰ أَيّة فِكرَة ، أَنَّ الفِكرَة حِينَئْذٍ تَكُون أَدَاة سيَاسيَّة ، لاَ حَقِيقَة عِلْميَّة .

ب ـ بِالنّسبَة إِلَىٰ مَنْهَج البَحْث فِي كُلّ مِن العَالَم وَالدِّين ، قَالَ المُؤَلّف :

« إِنَّ الإِسْلاَم وَالعِلم فِي هَذَا الأَمـر عَـلَىٰ طَـرفِي نَـقِيض ، فـبالنّسبَة للـدِّين الإِسْلاَميّ (كَمَا بالنِّسبَة لغَيرِه) إِنَّ المَنْهَج القَوِيم للوصُول إِلَىٰ مِثْل هَذِهِ المَعَارف وَالقَنَاعَات هُو الرُّجُوع إِلَىٰ نُصُوص مُعَيَّنَة تُعْتَبر مُقدّسَة أو مُنْزّلَة ، أَو الرُّجُوع إِلَىٰ كتَابَات الحُكمَاء والعُلْمَاء الَّذِين دَرسُوا وَشَرحوا هَذِهِ النُّصُوص » .

أُكَرّر قَولي عَن المُؤَلّف بأَنَّه لاَ يَعْرف الإِسْلاَم (مَوْضُوع نَقْدَه) .

أَوَّلاً : لَيْسَ فِي الإِسْلاَم أَفكَـار تَـفصِيليَّة حَـاسمَة حَـول الكَـون ، وَطَـبِيعَته وتَركِيبَته وَتفَاعلاَته ، ومِن هُنَا فَلَيْسَ ثَمَّة مَوْضُوع لإِتّهَام المُؤَلّف للإِسلاَم .

ثَانِيَاً : إِنَّ النُّصُوص الدِّينيَّة الَّتي تَكُون مَورداً للدّرَاسَة وَالفَحص وَالتَّعمِيق فِيْهَا هِي نُصُوص الدِّين ، أَي مَا يَتنَاول العَقِيدَة والشَّريعَة ، وَلَيْسَ لأَجْل اكتشَاف أَسرَار الطَّبِيعَة المَادِيَّة . إِنَّ المَنْهَج فِي استكشَاف أَسرَار الطَّـبِيعَة المَـادِيَّة هُـو التَّـجرِبَة وَلَيْسَ درَاسَة النُّصُوص . إِنَّ عُلمَاء المُسْلِمِين الأَعَاظم الَّذِين نَـبغُوا فِـي جَـمِيع

مَجَالاَت العُلُوم الطَّبِيعيَّة فِي المَغرب وَالمَشرق (الخوَارزمي، آبن خُلدُون، آبن سِينَا، آبن الهَيثَم، جَابر بن حَيَّان، الطُّوسي وَغَيرهم، وَغَيرهم) هَـؤُلاَء العُـلَمَاء الَّذِين بَنَت أُوربَا نَهضتهَا عَلَىٰ ثَمرَات بحُوثِهم العِلْميَّة تَوصلُوا إِلَىٰ نَتَائِجهم العِلْميَّة البَاهرَة لاَ بدرَاسَة القُرْآن والحَدِيث يَا دكتُور، وَإِنَّما بِآتّبَاع النَّهج العِلمي فِي البَحْث والتَّجربَة. إِنَّ دَور الدِّين فِي تَكوينهِم العِلمي هُو أَنَّهُ الهِمَم وَدَلهم عَلَىٰ قدَاسَة هَذَا النَّوع مِن البَحْث العِلمي وَعَظمَته وكَوّن فِي عقُولهم المَنْهَج التَّجربي عَن طَـرِيق الْأَمر بالبَحث وَالتَّأمل وَالنَّظر فِي ظوَاهر الطَّبِيعَة وَأَسرَار الْإِنْسَان، وذَلِكَ كَمَا وَرَد كَثِيراً فِي الحَدِيث وفِي الْآيَات الكَونيَّة فِي القُرْآن.

لَقَد كَان هَؤُلاَء عُلمَاء فِي الفَلك، وَالطّب، وَالجُغرَافيا، وَالكِيميَاء، وَالفِيزيَاء، والْإِجْتمَاع البَشري، وَغَير ذَلِكَ، وَكَانُوا مَع ذَلِكَ مُسلمِين صَالحِين يَتَلقىٰ المُجْتَمع وَالدَّولَة عَلَىٰ صَعِيد رِجَال الدِّيـن وَرجَـال الدُّنـيَا نـتَاجهِم بـالْإِحترَام وَالتَّـقدِير وَالْإِعجَاب، بَل وَيَنفقُون الْأَموَال الطَّائِلَة عَلَيهِم وعَلَىٰ بـحُوثهِم، وعَـلَىٰ تَـيسِير وَسَائِل البَحْث العِلمي لَهُم مِن مَكتبَات وَمُستشفيَّات، وَمرَاصد، وَغَيرهَا.

هَل سَمع الدُّكتُور أَنَّ عَالمَاً مُسْلمَاً آضْطُهد لعِلمهِ، لْإِكتشَاف مِن إِكتشَافَاته، أَو لرَأي مِن آرَائهِ كَمَا حَدَث فِي أَمْكنَة أُخرىٰ؟ لَمْ يَحدَث هَذَا أَبدَاً يَا دكتُور (فَلمَاذَا تُقِيس الدِّين الْإِسْلاَميّ إِلَىٰ غَيْرَه) عَفوَاً، فَمَا بَالي أَسأَلُك، وَالَّذي يَبدُو لِـي مِـن كَلاَمك إِنّك جَاهَل بالتَّأرِيخ العِلمي للمُسْلمِين كَجَهلك بالدِّين.

وَلاَ يَنْقضي تَعَجبي مِن أَحد المُدَافعِين عَن الدُّكتُور (مُلحَق النَّهَار / ١٨ كَانُون الثَّاني / ١٩٧٠ م) الَّذي أَرَاد ـ بدَافع مِن حِقدهِ عَلَىٰ الْإِسْـلاَم أَو جَـهلَه بـهِ ـ أَنْ يُلحق بالْإِسلاَم التُّهمَة العَالقَة بغَيرهِ، فَآدّعىٰ أَنَّ الْأُمويِّين قَتَلوا العُـلَمَاء القَـائِلين

بحُرّيَّة الفِكْر، وَيَالَيتَه جَاء عَلَىٰ ذَلِكَ بشَاهد مِن التَّأرِيخ يُثبت دَعوَاه. نَعَم، كَان الأُمويُون يَلتَزمُون بمَبدأ الجَبريَّة لغَايَات سيَاسيَّة وَلَكن التَّأرِيخ لاَ يُحدثنَا أَنّهم قَاتَلُوا القَائِلين بحُرّيَّة الإِنْسَان. عَلَىٰ أَنَّنا لاَ نَسْتَطِيع إعتبَار الأُمويِّين مُمثّلِين أُمنَاء للإِسلاَم ـ إِنَّ مَوضُوعنَا هُو الإِسْلاَم كَمَا وَرَد فِي مَصَادِره الأَسَاسيَّة.

* * *

آ ـ «مِن الأُمُور الجَوهريَّة الَّتي يُشَدّد عَلَيهَا الدِّين الإِسْلاَميّ أَنَّ جَمِيع الحَقَائِق الأَسَاسيَّة الَّتي تَمس حَيَاة الإِنْسَان فِي الدُّنيَا والآخرَة قَد كَشَفت مرّة وَاحدَة فِي نُقطَة مُعَيَّنَة وَحَاسمَة فِي التَّأرِيخ ـ نُزُول القُرْآن ورُبَّما الكُتب الأُخرىٰ قَبْلَه ـ».

مِن أَين جَاء المُؤَلّف بِهَذِهِ الفِكْرة عَن الإِسْلاَم؟ ومَن قَالَ لَهُ أَنَّ جَمِيع المَعَارف الَّتي تَتَعلق بحَيَاة الإِنْسَان فِي الدُّنيَا قَد ٱكتُشفت بنزُول القُرْآن؟ وَلمَاذَا ٱشتَغل المُسْلمُون بشَتّىٰ العُلُوم إِذَن إِذَا كَانَت هَذِهِ هِي عَقِيدَتهم؟ لاَ أَستَطِيع إِلاَّ أَنْ أُكَرّر ٱتّهامي للمُؤلّف بأَنَّه جَاهل بمَوضُوع نَقْدَه بصُورَة تَبْعَث عَلَىٰ الأَسف. كَلَّا يَا أُستَاذ هَذِهِ الخرَافَة الَّتي ذَكرتهَا لَيْسَت مِن الإِسْلاَم فِي شَيء. إِنَّ المَعْرفَة فِي الإِسْلاَم عَمليَّة ٱقتحَام وَٱكتشَاف للمَجهُول. قَوْلَه تَعَالىٰ: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَـٰبِ مِن شَىْءٍ﴾[1] الَّذي ٱستَشهدت بِهِ، لاَ يَعْنَي مَيَادِين العُلُوم وَالحقَائِق الكَونيَّة، إِنَّ كَلمَة «شَيء» فِي الآيَة حِينَ تُوضَع فِي إِطَارهَا ـ الدِّين ـ تَعْني القَوَاعد العَامّة

(١) ٱلأَنعَام: ٣٨.

المُتعلقَة بأُمُور العَقِيدَة وَالشَّريعَة ، وَلَكن المُشكْـلَة إِنّك لاَ تَـعرف الْإِسْـلاَم مِـن مَصَادِره الْأَسَاسيَّة .

ب ـ « أَمَّا الدِّين فَبطَبيعَة عَقَائِده المُـحَدّدة ثَـابت سَاكن ، يَعِيش فِي الحَقَائِق الْأَزليَّة ، وَيَنظر إِلَىٰ الوَرَاء ليَستَلهم مَهدَه » .

إِنَّ الدِّين ثَابت فِي عَقَائِده وَتَشريعَاته ، ولَكنّهُ يَدفع إِلَىٰ الحَرْكَة فِـي الكَـون ، وَالتَّقدّم فِي الحَيَاة ، وَبنَاء الحضَارَة ، وَدَلِيل ذَلِكَ تَأرِيخ المُسْلِمِين الحَضَاري حِينَ كَان الْإِسلاَم يُحركهُم وَيَدفع بِهِم نَحو بنَاء الحَضَارَة وَصُنع التَّأرِيخ .

وَتُلح عَلَىٰ ذِهني فِكرَة أَنَّ المُؤَلّف آستَقىٰ أَفْكَاره هَذِهِ مِن المُستَشرق (هـ. آ). جِيب فِي كتَابه «الْإِتّجَاهَات الحَدِيثَة فِي الْإِسلاَم» فَإِنَّ هَذَا المُستَشرق فِي بَعْض فصُول كتَابه المَذكُور وَجَّه إِلَىٰ الْإِسْلاَم هَذَا الْإِتّهام الَّذي رَدّده المُؤَلّف هُنَا .

ج ـ « فِي الوَاقع أَصـبَح الْإِسْـلاَم الْأَيـديُولوجيَة الرَّسميَّة للقِوىٰ الرَّجْعِيَّة المُتخلفَة فِي الوَطن العَـرَبي وَخَارجَه ، وَالمُرتَبطة صرَاحَةً وَمُـبَاشرَةً بـالْإِستعمَار الجَدِيد » .

إِنَّ الْإِسْلاَم لَيْسَ حَليفاً لْأَي نظَام غَير عَادل ، وَإِذَا كَانَت بَعْض الدُّوَل « تُظْهِر » الْإِسلاَم كحَلِيف لَهَا فِي ذَاك إِلاَّ لْأَنّهَا سَخّرت الْإِسلاَم لخِدمَة مَآربهَا ، كَمَا تَـظْهَر الحُكُومَات الْإِشتِرَاكيَّة الْإِسلاَم كحَلِيف لَهَا ، وَالحَقِيقَة هِي أَنَّ الْإِسلاَم مَع نَفْسه فَقَط .

وَلاَ تَفُوتنَا هُنَا أَنْ نُنَّبه عَلَىٰ تَنَاقض مِن تَنَاقضَات المُؤَلّف الكَثِيرَة ، فهُو فِي هَذَا المَوضع يَتّهم الْإِسلاَم بأَنَّه حَـلِيف الْإِسْـتعمَار والرَّجْـعِيَّة ، ولَكـنّهُ فِـي صَـفحَة

(٤٥ ـ ٥١)، تَحت عُنْوَان « التَّوفِيق التَّبرِيري » يَقُول أَنَّ الْإِسـلاَم يَـتَّخذ سَـنداً للرَّجْعِيَّة وَلِلْإِشترَاكيَّة، وَللدِّيمُقرَاطيَات الشَّعبيَّة، وَلليبرَاليَة. وَنسأَل المُؤَلِّف: هَل هَذَا المواقف تُشكِّل ٱتِّهاماً للإِسلاَم الَّذي لاَ يَنْسَجم إلاَّ مَع نَفْسه فَقَط أَو تُشَكِّـل ٱتِّهَامَاً بالجَهل أو بالنِّفاق لأُولَئك الَّذِين يَظهرُونه بمِثل هَذِهِ المَظَاهر[1].

مُلاَحظَة: «نُذكِّر المُؤلِّف بأَنَّ حُكومَة ستَالِين فِي الْإِتِّحاد السّوفيَاتي ٱستعَانت بالرُّوح الدِّينيّ عِنْدَ المُسْلِمين التَّابعِين لَهَا فِي الحَرْب العَالميَّة الثَّانيَة».

هَذِهِ هِي الْأَدلَّة الَّتي سَاقهَا المُؤَلِّف للتَّدلِيل عَلَىٰ أَنَّ الْإِسلاَم يَقف ضِدّ العِلم، وَقَد رَأينَا مَدىٰ تفَاهتهَا، وَكَشفهَا عَن جَهلَ المُؤَلِّف بمَوضُوع نَقْده.

❊ ❊ ❊

وَقَد ٱستَطرَد المُؤَلِّف فِي صَفْحَة (٢٤ ـ ٣٣)، فِي أَفْكَار يَبدُو أَنَّهُ أَرَاد أَنْ يُعَزِّز بهَا أَدلَته الثَّلاَثَة، ونَحْنُ نَستعَرضهَا فِيمَا يَلي لبَيَان زَيفهَا وَبُطلاَنها:

آ ـ « وهُنَاك تَشَابه بَيْنَ الدِّين وَالعِلم فِي أَنَّ كلَيهمَا يُحَاول أَنْ يُفسّر الْأَحدَاث، وأَنْ يُحدّد الْأَسْبَاب ».

هَذَا خطَأ. أَنَّ الدِّين الْإِسْلاَميّ لاَ يُحَاول أَنْ يُـفَسّر الظّـوَاهـر الطَّـبيعيَّة، وَلاَ يُحَاول أَنْ يَجْعَل نَفْسَه بَدِيلاً عَن العِلم. أَنَّ الدِّين كَمَا ذَكرنَا عَقِيدَة وَشَريعَة تُوجّه سُلوك الْإِنْسَان وَحَيَاته، ومَوْضُوع العِلم هُو الطَّبيعَة يَكتَشفهَا وَيُسخرهَا للْإِنْسَان، ودَور الدِّين فِي العَمليَّة دَور الْإِثَارَة، وَالتَّوجِيه وَبَعث الْإِهتمَام بِالطَّبيعَة، وَنَـحو

(١) الْجَهْل مِن أُمّهَات الرَّذَائِل، وَأَكْثَرها خطَراً، وَكَفىٰ بِالْجَهْلِ غيّاً، وَفَسَاداً أَنَّ الْجَاهِل يُعَادي وَيُعَاند مَا فِيهِ خَيْره، وَصَلاَحه دُنياً وَآخِرة، وَلاَ دَواء لِلجَاهِل إلاّ أَنْ يَعْلم بِأَنّه جَاهِل، وَأَنَّه لاَ غِنىٰ لهُ عَمَّن يَقُوده وَيَهدِيهِ، وَأَخْطَر الْخُطُورَة أَنْ يَرىٰ الْجَاهِل نَفْسه عَالِماً، وَأَنْ يَرىٰ العَالِم أَنَّه دَائِماً عَلىٰ صَوَاب.

أكتْنَاه المَعْنَىٰ الَّذي يَكمن فِيْهَا، وَمَن يُلاَحظ الْآيَات الكَونيَّة فِي القُرْآن يَرىٰ الشَّاهد عَلَىٰ مَا نَقُول. وبِهَذَا يَنْكَشف أَنَّ كُلّ النَّتَائِج الَّتي رَتّبهَا المُؤَلّف عَلَىٰ مُقَدّمَته السَّابقَة خَيَال مَحض مِن عِنْدَه وَلَيْسَ مِن الْإِسلاَم.

ب ـ « خَلَق الله هَذَا الكَون فِي فَترَة مُعَيَّنَة مِن الزَّمن بقَوْلَه كُنْ فَكَان... أَمَّا الطَّبِيعَة فَقَد حَافظَت عَلَىٰ سمَاتها الْأَسَاسيَّة مُنْذُ أَنْ خَلقهَا الله، أَي أَنَّها تَحتَوي الْآنْ عَلَىٰ نَفْس الْأَجرَام السَّماويَّة وَأَنوَاع الحَيوَانَات وَالنَّبَاتَات الَّتي كَانَت مَوجُودة فِيْهَا مُنْذُ اليَوْم الْأَوَّل لخَلقهَا، أَمّا النَظَرِيَّة العِلْميَّة حَول المَوْضُوع ذَاته فَلاَ تَعْتَرف بالخَلق مِن لاَ شَيء، وَلاَ تَقر بأَنَّ الطَّبيعَة كَانَت مُنْذُ البدَايَة كَمَا هِي عَلَيه الْآنْ».

أَوَّلاً ـ نُكَرّر أَنَّ العَقِيدَة الْأَسَاسيَّة فِي الْإِسلاَم هِي أَنَّ عِلَلّ التَّكوِين المُتصَاعدَة فِي عَالَم الطَّبيعَة تَنْتَهي إِلَىٰ الله، وَمَا وَرَد فِي القُرْآن:

﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾[1].

---

(١) وَرَد أَمر الخَلق (كُنْ) فِي القُرْآن الكَرِيم فِي سَبع سُور، فِي ثَمَان آيَات، هِي كَمَا يَلي:

١ ـ ﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ ٱلبَقْرَة: ١١٧.

وَالْآيَة إِخبَار مِن الله تَعَالىٰ عَن قُدرَته المُطْلَقَة عَلَىٰ الخَلق بصِيغَة (غَائِب).

٢ ـ ﴿قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ قَالَ كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ آل عِمْرَان: ٤٧.

٣ ـ ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ آل عِمْرَان: ٥٩.

↔

وَغَيرهَا مِن الآيَات الَّتي وَرَد فِيْهَا هَذَا التَّعْبِير، لاَ تَدل عَلَىٰ أَنَّ الكَـون خُـلق بصُورَة دَفعيَة عَلَىٰ نَحو مُكتَمل، وَإِنَّما تَدل عَلَىٰ قُدرَة الله الكُلِّيَة الشَّاملَة، بَل لعَلهَا عَلَىٰ التَّدرِيج فِي الخَلق أَكْثَر دلاَلَة بقَرينَة قَوْلَه:

﴿إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا﴾

ثَانِيَاً ـ أَمَّا أَنَّ الطَّبِيعَة وجـدَت بـصُورَة مُكْـتَملَة، وَحَـافظَت عَـلَىٰ سـمَاتهَا الأَسَاسيَّة مُنْذُ أَنْ خَلقهَا الله.. فَهَذَا غَير صَحِيح، وَلَيْسَ فِي الإِسْلاَم مَا يُشِير إِلَـىٰ ذَلِكَ، بَل فِي القُرْآن مَا يَدل صرَاحَة عَلَىٰ أَنَّ الطَّبِيعَة مَرّت فِي أَدوَار وَأَطوَار حَتَّىٰ ٱكْتَملَت فِي صُورتهَا الحَاضرَة، وعَلَىٰ المُؤَلّف أَنَّ يَرجَع إِلَـىٰ القُـرْآن الصَّـحِيح ليُصَحّح رَأيه.

ثَالِثَاً ـ يَقُول المُؤَلّف أَنَّ النَظَرِيَّة العِلْميَّة لاَ تَعْتَرف بالخَلق مِن لاَ شَيء. وَنَحْنُ

↔ إِخبَار مِن الله تَعَالىٰ فِي مَورد خَاصّ (خَلق آدم وعِيْسَىٰ) عَن قُدرَته المُطْلَقَة عَلَىٰ الخَلق.

٤ ـ ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَيَوْمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُ قَوْلُهُ ٱلْحَقُّ وَلَهُ ٱلْمُلْكُ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ عَـٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ﴾ٱلأَنْعَام: ٧٣.

تَعلِيم مِن الله تَعَالىٰ لنَبِيّه مُحَمَّدﷺ.

٥ ـ ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَىْءٍ إِذَآ أَرَدْنَـٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ٱلنَّحل: ٤٠.

إِخبَار مِن الله تَعَالىٰ عَن قُدرَته المُطْلَقَة عَلَىٰ الخَلق فِي مقَام بَيَان قُدرَته المُطْلَقَة عَلَىٰ بَعث الأَمر آت.

٦ ـ ﴿مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ سُبْحَـٰنَهُۥ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾مَرْيَم: ٣٥.

إِخبَار مِن الله تَعَالىٰ بصِيغَة الغَائب عَن قُدرَته المُطْلَقَة عَلَىٰ الخَلق فِي مقَام بُطلاَن قَوْل النَّـصارىٰ فِـي عِيْسَىٰ بن مَرْيَم أَنَّهُ ٱبن الله.

٧ ـ ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾يَس: ٨٢.

تَعْلِيم مِن الله تَعَالىٰ لنَبِيّه مُحَمَّدﷺ فِي الإِحتجَاج عَلَىٰ المُشْركِين بشَأن إِحيَاء المَوتىٰ وَبَعثهِم.

٨ ـ ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ فَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾غَافِر: ٦٨.

تَعْلِيم مِن الله تَعَالىٰ لنَبِيّه مُحَمَّدﷺ فِي مواجهَة المُشْركِين.

نَسأَل المُؤَلّف : إِذَا كَانَت العُلُوم تَرفض الخَلق مِن لاَ شَيء ، فَكَيف وجدَ الكَون إِذَن ؟ وَمِن أَين وجدَ ؟ وهَذَا الشَّيء الَّذي وجدَ مِنْهُ الكَون مَن أَوجَده ؟ لَقَد رَأينَا فِي مَطلَع هَذَا الحَدِيث أَنَّ الَّذي أَوجَده هُو الله تَعَالىٰ .

رَابِعَاً ـ تَعَرّض لذِكر خَلق آدَم ، والجَنّة وَالطَّرد مِنْهَا ، وَنُرجيء الحَدِيث عَن ذَلِكَ إِلَىٰ موعدنَا مَعَهُ فِي مَكَانٍ آخر مِن كتَابه تَعرّض فِيهِ لِهَذِه المَسَائِل .

خَامِسَاً ـ بَعْد كُلّ مَا ذَكرنَا فَمَا هِي قِيمَة مَا نَقَله المُؤَلّف عَن « رُسل » وهَل هُو إلاَّ تَهرِيج فِي وَجْه المَنْطق وَالحَقِيقَة .

سَادِسَاً ـ فِي صَفحَة (٢٩ ـ ٣١) تَحدّث المُؤَلّف عَن التَّوتر الَّذي يُعَاني مِنْهُ المُثقف الحَدِيث بسَبب التَّعارض القَائِم بَيْنَ ثقَافَته العِلْميَّة وبَيْنَ تُرَاثه الدِّينيّ ـ إِنَّ هَذَا التَّوتر يَا دُكتُور لَيْسَ نَاشئَاً مِن تَعَارض حَقِيقي بَيْنَ العِلم وبَيْنَ الإِسْلاَم ، وَإِنَّمَا هُو نَاشيء مِن أَنَّ كَثِيراً مِمَّا تُسمُونه « عِلمَاً » لَيْسَ إلاَّ اَفتِرَاضَات لَم تَتأكّد صِحتهَا ، أَو ثَبت بُطلاَنها ، وأَنَّ الدِّين كَمَا تَفْهمُونَه لَيْسَ مُستَنداً عَلَىٰ مَصَادِره الأَسَاسيَّة ، وَإِنَّمَا عَلَىٰ الأَبَاطِيل الَّتي أُلصقَت بِهِ عَلَىٰ مَدىٰ القُرُون مِن الإِسرَائِيليَات وَغَيرهَا .

العِلْم ، العِلْم الحَقِيقي وَالدِّين الصَّافِي لاَ يَتعَارضَان وَإِنَّما يَتكَاملاَن فِي تَنْشئَة الإِنْسَان وَتَقدّمه .

خَلْق الْإِنْسَان

خَلْق الْإِنْسَان

المُعْتَقد الْإِسْلاَميّ الْأَسَاسي الَّذي هُو مِن ضَرُوريَّات الدِّين هُـو أَنَّ الْإِنْسَـان وكُلّ شَيء فِي الكَون مَخْلُوق لله سُبحَانَهُ وَتَعَالىٰ .

أَمَّا تَفَاصِيل كَيفيَّة الخَلق وَٱبتدَائهَا فَلَيْسَ فِيْهَا نَصّ صَرَيح قَـاطع غَـير قَـابل للتَّأوِيل . وَكَيفِيَّة الخَلق وَٱبْتدَائِها لَيْسَت مِن أُصُول الدِّين الَّتي يَـتحَتّم الْإِعْـتقَاد بتَفَاصِيلهَا وَمُمَيزَاتها ، بَل يَتقَبّلهَا المُسلِم كَمَا جَاءَت بِهِ ظوَاهر الكِـتَاب وَالسُّـنَّة الصَّحِيحيَة وَمَا لاَ يَتنَافىٰ مَع المُسلمَات العِلْميَّة اليَقِينيَّة .

بَعْد هَذَا التَّمهِيد نوَاجه ثَلاَث مَسَائِل :

الْأُوْلَىٰ ـ وجُود الْإِنْسَان عَلَىٰ الْأَرْض هَل ٱبْتَدَأ بالسَّلالَة الْإِنْسَانيَّة المَوجُودَة الْآنْ ، أَو سَبقتهَا سلاَلاَت أُخرىٰ غَيرهَا ٱنْقَرضَت وَبَادَت ؟ .

الثَّانِيَة ـ نَشَأة السِّلاَلَة الْإِنْسَانيَّة المَوجُودَة الْآنْ .

الثَّالِثَة ـ الدَّاروينيَّة فِي عِلْم الْأَحيَاء .

* * *

لَمْ يَتعرّض القُرْآن الكَرِيم بصَرَاحَة ووضُـوح لبَـيَان أَنَّ هَـذِهِ السِّـلاَلَة البَشـريَّة المَوجُودَة الْآنْ هِي السِّلاَلَة الوَحِيده الَّتي ظَهَرت عَلَىٰ الْأَرْض ، أَو أَنَّ ثَمَّة سلاَلاَت بشَريَّة أُخرىٰ ظَهَرت عَلَىٰ هَذِهِ الْأَرْض ، وَعَاشَت ثُمَّ ٱنْقَرضَت ، ثُمَّ تَكرّر ظهُور

السّلاَلاَت البَشريَّة وَٱنْقرَاضهَا، وَنَسلنَا البَشري الحَاضر هُو آخر هَذِهِ السلاَلاَت.

قُلتُ: إِنَّ القُرْآن لَمْ يَتعرض بصرَاحَة وَوضُوح لبَيَان هَـذِهِ النُّـقطَة، وإِنْ كَـان التَّحلِيل الدَّقِيق لقَولَه تَعَالىٰ فِي سُـورَة ٱلْـبَقَرَة، وهِـي قَـوْلَه تَـعَالىٰ: ﴿وَإِذْ قَـالَ رَبُّكَ لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَـلِيفَةً قَـالُوٓاْ أَتَـجْعَلُ فِـيهَا مَـن يُـفْسِدُ فِـيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَاتَعْلَمُونَ﴾[1].

أَقَوْل: أَنَّ التَّحلِيل لِهَذِه الآيَة رُبَّما يَدل عَلَىٰ أَنَّ سَلاَلَة إِنْسَانيَّة سَابقَة عَلَىٰ هَذِهِ السِّلاَلَة، وجَدت عَلَىٰ ظَهر الأَرْض، وَعَاشَت، ثُمَّ ٱنْقَرضَت، وَلَيْسَ هُنَا مـجَال ٱسْتعرَاض تَحلِيل الآيَة المَذْكُورَة.

نَعَم، فِي بَعْض الأَخْبَار الوَاردَة عَن طَرِيق أَهْل البَيْت عليهم السلام وَعَن طَرِيق غَيرهم مَا يَدّل بصَرَاحَة ووضُوح عَلَىٰ أَنَّ السِّلاَلَة البَشريَّة المَـوجُودَة الآنْ لَـيْسَت هِـي الوَحِيده الَّتي وجدَت عَلَىٰ هَـذِهِ الأَرْض مِـن النَّـوع الإِنْسَـاني، وَإِنَّـما سَـبقتهَا سلاَلاَت كَثِيرَة ٱنْقَرضَت قَبل وجُودهَا:

آ ـ رُوي عَن الإِمَام جَعْفَر الصَّادق عليه السلام، قَالَ: «لعَلّك تَرىٰ أَنَّ الله لَمْ يَخلُق بشَرَاً غَيركُم؟ بَلىٰ وَالله. لَقَد خَلَق أَلف أَلف آدَم أَنْتُم فِي آخر أُوْلَئِكَ الآدَميِّين»[2].

ب ـ ذَكَر الشَّعرَاني فِي كتَابه: عَن مُحيي الدِّين بن عَربي حَدِيثَاً رَوَاه عَن ٱبن عَبَّاس عَن رَسُول الله صلى الله عليه وآله أَنَّهُ قَالَ: «أَنَّ الله تَعَالىٰ خَلَق مِئَتي أَلف آدَم»[3].

ج ـ وَعَن الإِمَام البَاقر عليه السلام: «لَقَد خَلَق الله فِي الأَرْض مُنْذُ خَلقهَا سَبعَة عَالمَين

---

(١) ٱلبَقْرَة: ٣٠.

(٢) أُنظر، الخِصَال: ٦٥٢ ح ٥٣، تَوحِيد الصَّدُوق: ٢٧٧، بحَار الأَنوَار: ٣٥/٢٥ ح ٤٥.

(٣) أُنظر، اليَوَاقِيت وَالجوَاهر: ١/ ٤٩.

لَيْسَ هُم مِن وُلد آدَم، خَلَقهُم مِن أَدِيم الأَرْض، فَأَسكنهُم فِيْهَا وَاحداً بَعْد وَاحد مَع عَالمَه، ثُمَّ خَلق الله عزّوجلّ آدَم أَبا البَشر، وَخَلق ذرّيته مِنْهُ»[1].

هَذِهِ نمَاذج مِن النُّصُوص الَّتي تَدل بصرَاحَة عَلَىٰ تَقَدّم سلاَلاَت بشَريَّة، غَير السِّلاَلَة الحَاليَة، فِي سُكنىٰ هَذِهِ الأَرْض، وَانْقرَاضهَا قَبل ظهُور هَذِهِ السِّلاَلَة.

وَلَم يتّح لنَا الوَقت لدرَاسَة هَذِهِ النُّصُوص مِن حَيْث السَّند وَالشّكل وَالمَضمُون وَتَحلِيل دلاَلاَتها، وَنَرجو أَنْ تُتَاح لنَا الفُرصَة لذَلِكَ.

* * *

إِنَّ ظوَاهر القُرْآن وَالسُّنَّة الصَّحِيحَة تَدل عَلَىٰ أَنَّ السِّلاَلَة البَشريَّة المَوجُودَة الآنْ تَنْتَهي إِلَىٰ آدَم وَحوَاء «لَم يَرد فِي القُرْآن! اسم حوَاء».

ونَحْنُ هُنَا أَمَام أَرْبَع احتمَالاَت.

١ ـ آدَم رَمز للنّوع الإنْسَاني كُلّه.

٢ ـ آدَم عَدَد مِن أَفرَاد النَّوع الإِنْسَان نَظرَاً لتَعدد أَلوَان البَشر وَرسُومهُم.

٣ ـ آدَم فَرد إِنْسَاني وَاحد. وهَذَا يَنطَوي عَلَىٰ احتمَالَين:

آ ـ إِنْسَان كَامل تَطَور مِن نَوع حَيوَاني آخَر كَالقِردَة العُليَا مَثلاً.

ب ـ إِنْسَان كَامل عَقليّاً تولّد مِن زَوّج إِنْسَاني غَير مُتكَامل عَقليّاً وهَذَا بدورَه تَطَور مِن زَوّج أَحَط مِنْهُ عَقليّاً، وهَذَا بدَوره لزَوّج أَدنىٰ مِنْهُ... وهَكَذَا حَتَّىٰ

---

(١) أنظر، الخِصَال: ٢٥٩ ح ٤٥، بحَار الأَنوَار: ٣٧٤/٨ ح ١.

تَنْتَهي السّلسلَة إِلَىٰ أَبسَط أَنوَاع الحَيَاة.

٤ ـ أَنَّ آدَم وَزَوّجَه هُما الْأَبوان الْأَولاَن لِهَذِه السِّلاَلَة الْإِنْسَانيَّة، وَهُما لَم يَتكَونا بالتّنَاسل، وَإِنَّما خُلقَا مِن الْأَرْض.

هَذِهِ هِي الصُّورَة المُحْتَملَة لمَسأَلة المَخْلُوق الْأَوَّل، وَإِبتدَاء خَلق النَّوع الْإِنْسَاني - هَذِهِ السِّلاَلَة المَوجُودَة الْآنْ بخصُوصهَا، أَو جَمِيع السَّلاَلاَت السَّابقَة أَيْضاً ـ وَأُكَرّر أَنَّهُ لَيْسَ مِن ضَروريَّات الدِّين الْإِعْتقَاد بتَفاصِيل مَسأَلة كَيفيَّة الخَلق الْأَوَّل، مَا دَام الْإِعْتقَاد الضَّرُوري الْأَسَاسي مَوجُوداً، وَهُو أَنَّ الله خَالق كُلّ شَيء، الْإِنْسَان وغَيْرَه.

إِلاَّ أَنَّنا حِينَ نَعُود إِلَىٰ الفُرُوض المُتقدّمَة لفَحصهَا نَجد أَنَّ ظوَاهر القُرْآن تَدل عَلَىٰ الفَرض الرَّابع، وَتَدفع بظَاهرهَا الفُرُوض الْأُخرىٰ ـ وَلاَ مَجَال فِي هَذِهِ العُجَالة لتَحلِيل ذَلِكَ، نَعْم نَتوقف عِنْدَ الفَرض الثَّالِث، لْأَنّه الفَرض المَقبُول إِجمَالاً فِي أَذهَان كَثِير مِن المُتَأثِرين بالدّاروينيَّة، وذَلِكَ لنَبحَث مَدىٰ صحَة نَظَرِيَّة دَارون الْأَحيَائَة.

* * *

مُلَخصّ نَظر دَارون فِي عِلْم الْأَحيَاء:

إِنَّ الْأَنوَاع الحَيّة بمَا فِيْهَا الْإِنْسَان تَرجَع إِلَىٰ كَائِن وَحِيد الخَليَّة. حَدَثَت فِي دَاخل هَذَا الكَائِن تَغيرَات نَوعيَّة بشَكل طَفرَات أَوجَبت آنْقسَامه إِلَىٰ أَنوَاع بَعْد أَنْ كَان وَحِيد النَّوع. وهَذِهِ الطّفرَات لاَ تَتم بتَوجِيه وَقَصد، وَإِنَّما تَتم صِدفَة يَحصَل صِرَاع ـ وِفقاً لقَانُون تنَازع البَقَاء ـ بَيْنَ الْأَنوَاع الَّتي زَودتهَا الطَّفرَة الصِّدفَة بكَفَاءَات نَوعيَّة جَدِيدَة، وبَيْنَ تِلْكَ الَّتي لَم تَحظ بَذَلِكَ، وَبحُكم قَانُون بقَاء

الْأَصْلَح تُبيد هَذِهِ الْأَنوَاع أَمَام الْأَنوَاع المُـزَودَة بـالطَّفرَات(١) . وَهـذِهِ التَّـغيِّرَات المُكْتَسبَة بالطَّفرَات الصِّدفَة لاَ بُدّ مِن ٱفترَاض أَنَّها قَابلَة للتَّورِيث إِلَىٰ الْأَعقَاب ، وهَكَذَا يَنشَأ جِيل جَدِيد وَرَث الخَصَائص النَّوعيَّة المُمَيزَة عَن أَسلاَفه . وَتَستَمر الطَّفرَات فِي الحدُوث صِدفَة وَيَستَمر قَانُون الورَاثَة فِي عَمَله . وَيَسـتَمر قَـانُوناً تُنَازع البَقَاء وَبقَاء الْأَصْلَح فِي عَملهُما وَتَستَمر التَّطورَات مِن خِلاَل ذَٰلِكَ ، حَتَّىٰ يَصل بنَا المَطَاف إِلَىٰ الْأَنوَاع الحَيّة السَّائِدَة الْآنْ ، ومِن بَيْنهَا الْإِنْسَان ، قمّة هَـذِهِ العَمليَّة التَّطوريَّة .

هَذَا مُلَخص لنَظَرِيَّة دَارون فِي أَكمَل صُورهَا ، بَعْد كَثِير مِن الْإِصلاَحَات الَّتي أَضَافها خُلفَاء دَارون إِليهَا . فَهَل هِي عِلم يَقِيني تُمَاثل أَنَّ (٢ + ٢ = ٤) ؟ كَلَّا ، إِنَّها فِي غَالبهَا ظنُون وَٱحتمَالاَت وَفَرضيَّات صُنّفت لأَجْل تَكوِين صُورَة عَن عَمليَّة التَّطور الَّتي لاَ شَكّ فِيْهَا إِجمَالاً . والَّتي لاَ تَختَص بالْأَنوَاع الحيَّة وَحـدهَا وَإِنَّـما تَشمل الجَمَاد وَالنَّبَات وَالحيَوان . فَعَلينَا أَنْ نُميّيز بَيْنَ أَصْل مَسأَلَة التَّطور وهِـي قَضيّة مُسلّمة إِجمَالاً وبَيْنَ تَفَاصِيلهَا كَمَا شَرحهَا دَارون وَخُلفَاؤه وهِي لاَ تَعدو أَنْ تَكُون مَجمُوعَة مِن الظّنُون وَالْإِحتمَالاَت ، وَلاَ تَرقىٰ إِلَىٰ مَرتبَة العِلم وَاليَقِين .

---

(١) قَالَ الْإِمَام عَليّ عليه‌السلام : (الشَّمْسُ ، وَالْقَمَرُ دَائِبَانِ فِي مَرْضَاتِهِ) أَي مُستَمرَان فِي تَحقِّيق الفَائِدَة مِـنْهُمَا ، وَثَابتَان عَلىٰ قَوَانِين ، وخَصَائِص لاَ تَتغيّر ، ولَوْلاَ هَذَا الْإِطّرَاد ، وَالْإِستمرَار فِي جَمِيع ٱلكَائِنَات مَا ثَبَت شَيء فِي مَيدَان العِلْم ، وبكَلِمَة أَصح مَا كَانَ للعِلم عينٌ ، وَلاَ أَثر ... وَنسَأل : مِـن أَيـن جَـاءَت هَـذِه القَوَانِين ، والخَصَائِص ، مِن الطَّبِيعَة العَمْيَاء ، أَو مِن الصّدفة ؟

وَقَالَ الْإِمَام عَليّ عليه‌السلام : (يُبْلِيَانِ كُلَّ جَدِيدٍ ، وَيُقَرِّبَانِ كُلَّ بَعِيدٍ) بمُرُور الْأَيَّام ، والسّنِين كمَا قَالَ الْإِمَام فِي وَصيّته لوَلده الْإِمَام الْحَسَن : «مَنْ كَانَتْ مَطِيّتُهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ ؛ فَإِنَّهُ يُسَارُ بِهِ ، وَإِنْ كَانَ وَاقِـفاً» . أُنـظر ، خُطَبْ نَهج البَلاَغَة : ٥٠/٣ ، جُزء مِن وَصيّته عليه‌السلام ، لِلْإِمَامِ الْحَسَن ، والحُسَيْن عليهما‌السلام ، تَحت رَقم (٣١) .

وَالمُنَاقشَات الَّتي تَدُور حَول النَظَرِيَّة تَكشف عَن ضَعفهَا ، وَعَدم تمَاسكهَا :

أَوَّلاً : لمَاذَا تَحْدَث الطَّفرَة ؟ يُجِيب الدَّاروينيُون : أَنَّها تَحْدث صِدفَة .

وَلَكن هَذَا التَّعلِيل غَير مُقْنع . إِنَّ الطَّفرَة ظَاهرَة طَبِيعيَّة لاَبُدَّ لَهَا مِن أَسْبَاب ، فمَا هِي أَسبَابهَا ؟ لاَ نَدْري !! ، إِذَن تَعلِيلنَا للتَّغيِّر النَّوعي الَّذي يَحْدث بأَنَّه طَفرَة حَدَثَت صِدفَة ، لاَ يَعْنَي أَكثَر مِن أَنَّنا نَجْهَل سَبَب التَّغيِّر النَّوعي . وَإِلاَّ فَإِذَا كَانَت الصِّدفَة وَحدهَا كَافيَة ـ عِلميَّاً ـ لتَفسِير التَّنوع الحَيوَاني فَلمَاذَا لاَ نُفَسّر الظَّوَاهر الطَّبِيعيَّة الْأُخرىٰ بالصِّدفَة أَيْضَاً ؟ وَإِذَا كَان التَّعلِيل بالصّدفَة يَكفي عِلميَّاً فَلمَاذَا نَرفُض فِكرَة أَنَّ السِّلاَلَة البَشريَّة المَوجُودَة الْآنْ تَنَاسَلت مِن أَبوَين وجدَا صِدفَة ، وَلَم يَتسلسَلا مِن نُوعٍ آخر ؟ .

الحَقِيقَة أَنَّ التّمسك بالصِّدفَة لاَ يَعْنَي شَيئَاً أَكثَر مِن أَنَّنا نَجْهَل السَّبب فِي حدُوث التَّنوع الحَيوَاني . وهَكَذَا تَختَفي السِّمَة العِلْميَّة مِن النَظَرِيَّة لتَعُوذ بِالْأَلفَاظ الَّتي تُخفي عَجْزهَا عَن البَيَان العِلمي المُقْنع ثُمَّ مَا هِي الصِّدفَة ؟ هَل فِي الكَون صِدفَة ؟ إِنَّ للصّدفَة قَانُونَاً مُعَيَّناً يَكْشف لنَا عَن ٱستحَالة تَعْلِيل نشُوء جُزيء وَاحد مِن البرُوتِين ـ وَالبرُوتِين ـ مِن المُركبَات الْأَسَاسيَّة فِي جَمِيع الخَلاَيَا الحَيّة ـ إِنَّ العَالِم الرَّياضي السّويسري (تشَارلز يُوجِين جَاي) قَام بحسَاب الفُرصَة الَّتي يُمكن أَنْ تُتَاح لتَكوِين جُزيء وَاحد مِن البرُوتِين صِدفَة فوجَد أَنَّها بنِسبَه (١) إِلَىٰ (^{١٦٠} ١٠) أَي بنِسبَة رَقم وَاحد إِلَىٰ عَشرَة مَضرُوبَاً فِي نَفْسَه (١٦٠) مَرّة ، وَهُو رَقم لاَ يُمكن النُّطق بِهِ وَالتَّعْبِير عَنْهُ بالكَلمَات . وَيَنبَغي أَنْ تَكُون كَميَّة المَادّة اللَّازمَة لحدُوث هَذَا التّفَاعل ليُنْتج جُزيء وَاحد مِن البرُوتِين صِدفَة أَكثَر مِمَّا يَتّسع لَهُ هَذَا الكَون بمَلاَيِيّن المَرّات . وَيَجب أَنْ يَستَمر هَذَا التّفَاعل بلاَيِّين مِن

السّنِين قَدّرهَا العَالِم المَذكُور بأَنَّها عَشرَة مَضرُوبَة فِي نَـفْسهَا (٢٤٣) ([٢٤٣] ١٠) مِن السّنِين. كُلّ هَذَا لْإِنتَاج جُزيء وَاحد مِن البرُوتِين صِدفَة فَإِذَا قُلْنَا أَنَّ التَّنوع الحَيوَاني فِي الكَون نَاشِيء عَن طَرِيق الصّدفَة نَصل إِلَـىٰ الصِّـفر، أَي أَنَّ قِـيمَة الْإِحتمَال أَو الصّدفَة تُسَاوي الصّفر أَي تُسَاوي المحَال الرِّيَاضي.

وَمَع ذَلِكَ يَقُول الدَّاروينيُون إِنَّ التَّنوع الحَيوَاني فِي الكَون وجدَ صدِفَة!!!.

ثُمَّ أَنَّ هَذِهِ التَّغيرَات الَّتي يُسمّيهَا الدَّاروينيُون طَفرَات، مَا الدَّلِـيل عَـلَىٰ أَنَّـها نَقَلت كَائنَاً حَيَّاً مِن حَالَة نَوعيَّة إِلَىٰ حَالَة نُوعيَّة أُخـرىٰ؟ لاَ دَلِـيل، إِنّـه مُـجَرّد آفْتِرَاض لاَ غَير، فَلَم تَستَطع جَمِيع العُلُوم الَّتي آستعَانَت بهَا الدَّاروينيَّة أَنْ تُثبت بصُورَة عِلْميَّة لاَ تَقْبَل الشَّك حَلقَات الْإِتّصال بَيْنَ نَوع حَيوَاني وَنَوع آخر.

أَنَّ التَّغيِّيرات مَوجُودة بِلاَ شَكّ، وَتَدل عَلَىٰ تَطَور فِي الكَفَاءَات، وَلَكـن فِـي دَاخل كُلّ نَوع، وَلاَ تَدل أَبدَاً عَلَىٰ الْإِنتقَال بسَببهَا مِن حَالَة نَوعيَّة إِلَىٰ حَالَة نَوعيَّة أُخرىٰ.

ثَانِيَاً: نَنْتَقل إِلَىٰ مُشكْلَة تَورِيث الصّفَات المُكتَسبَة بوَاسـطَة الطَّـفرَات، دُون الصِّفَات المُكتَسبَة الْأُخرىٰ الَّتي ثَبَت عِلميَّاً عَدَم قَابلِيتهَا للتَّوَارث. بأَي تَـعْلِيل عِلمي مَقبُول نُعَلّل هَذَا الْإِفتِرَاض الَّذي يُشَكّل العَمُود الفَقري للنَّظَرِيَّة ـ إِلَىٰ جَانب حكَايَة الطَّفرَه الصِّدفَة لَقَد فَشَل دَارون وَخُلفَاؤه فِي إِعدَاد جوَاب عِلمي مَقبُول وَكَاف عَلَىٰ هَذَا السُّؤال. أَمَّا عِلْم الورَاثَة فَـقَد أَثـبَت أَنَّ مَـردّ جَـمِيع الطَّـفرَات الوَارثيَّة إِلَىٰ الجِينَات الَّتي تَحتَويها خَلاَيا التَّنَاسُل. وَقَد أَوضَح العِلم أَنَّ الجِينَات لَم تَشتَق مِن خَلاَيَا جِسميَّة بَل مِن «جَـرمبلاَزم» الوَالدَيـن فـالْأَجدَاد، وهَكَـذَا وعَلَىٰ هَذَا الضَّوء أَثبَت عِلم الورَاثَة بَعْد التَّميِّيز بَيْنَ الخَلاَيَا الجِسـميَّة وَالخَـلاَيَا

التّنَاسليَّة أَنَّ الصِّفَات المكتَسبَة لاَ تُورَث. وهَكَذَا تَنهَار الدَّاروينيَّة، مِن هُنَا لتَلجَأ إِلَىٰ فَرضيَّة التَّنوع عَن طَرِيق الطَّفرَات، وَقَد عَرفنَا قِيمَة هَذِهِ الفَرضيَّة آنفاً.

وهَكَذَا تَبقىٰ الدَّاروينيَّة ـ مُجَرد فَرضيَّة لَم يُحَالفهَا التَّوفِيق.

ثَالِثَاً: نُسَاير الدَّاورينيَّة فَنَقول: لَقَد وَصَل التَّطور إِلَىٰ قِمّته مُتَمثّلاً بالعَقل الْإِنْسَاني، فَكَيف حَدَث ذَلِكَ؟ مَا هُو العَقل؟ وَمَا هُو سرّه العَجِيب؟.

إِنَّ العِلم الحَدِيث لاَ يَعرف شَيئاً عَن طَبيعَة العَقل. وَالدَّاروينيَّة كَغَيرهَا مِن الفَرضيَّات عَاجزَة عَن تَقدِيم تَفْسِير مَعقُول لنَشأَة العَقل الْإِنْسَاني المُدهش.

هَل تَفرض الدَّاروينيَّة أَنَّ العَقل تَطَور مِن تَطَورات المَادّة نَشَأ بوَاسطَة الطَّفرَات الصِّدفَة وَتُنَازع البَقَاء وَبقَاء الْأَصلَح وَالتَّورِيث...؟ الحَقّ أَنَّ أَشدّ مذَاهب عِلْم النَّفس غُلوّاً فِي المَادِيَّة «المَذْهَب السُّلُوكي» حَاوَل الجوَاب وَفَشَل بشَكلٍ فَاضح.

الخُلاَصَة: إِنَّ الدَّاروينيَّة عَاجزَة عَن إِثْبَات دَعوَاها إِنَّها ذَات نَتَائج إِحتمَاليَّة مَبنيَّة عَلَىٰ مُقدّمَات إِحتمَاليَّة، فَهَل يَصح أَنْ نَعْتَبرهَا عِلمَاً، وأَنْ نَتّخذهَا سَنَداً فِي نَقد الْأَفكَار الدِّينيَّة؟ وَهَل نَكُون أُمنَاء حِينَ نُسمّي الظّنُون وَالْإِحتمَالاَت عِلمَاً[1].

---

(١) نَشَرَت صَحِيفَة الْأَهرَام القَاهريَّة فِي عَدَدهَا الصَّادر يَوْم الْأَربعَاء (٢ شوَال سَنَة ١٣٩٢ هـ ـ ٨ نُوفمبَر / تَشرِين الثَّاني ١٩٧٢م)، الخَبر التَالي:

وَاشنطن، فِي (١٩٧٢/١/٧م) وَكَالاَت الْأَنبَاء:

أَعْلَن رِيتشاردليكي، أَحد عُلمَاء إنثروبولوجيَا ـ عِلم الْإِنْسَان ـ فِي كِينيَا، أَنَّهُ تَمَّ اكتشَاف بقَايَا جُمجمَة يَرجع تَأريخهَا إِلىٰ مُليونَين وَنِصف مليُون عَام، وَيُعَد أَقدَم أَثَر مِن نَوعه للْإِنْسَان الْأَوَّل. وقَالَ العَالِم: إِنَّ هَذَا الْإِكتشَاف يَمتَد فِي أَثرَه مُليونَاً وَنِصف مليُون عَام عَن أَقدَم أَثر يُمكن العثُور عَلَيهِ حَتَّىٰ ↔

↔ الآنَ. وَقَد تَمَّ اكتشَاف عِظَام الجُمجمَة مَع عظَام لسَاق بشَريَّة تَرجع إِلَىٰ نَفس الحُقبَة مِن التَّاريخ فِي جَبل حَجري بصَحرَاء تَقع شَرق بُحَيرَة رُودلفَا فِي كِينيَا.

وقَالَ العَالِم: إِنَّ هَذَا الأَثر يُمكن أَنْ يَقلب النَّظريَات القَائِمَة بشَأن تَطَور الإنسَان عَن أَجدَاده فِيمَا قَبل التَّأريخ، وكَيْف وَمَتىٰ تَمَّ.

وَقَد قَدَّم ريتشَارد، (وَهُو مُدرس المُتحف البِريطَاني فِي كِينيا) تَقريراً عَن اكتشَافه إِلَىٰ الجَمعيَّة الجُغرَافيَّة فِي وَاشنطن، وقَالَ فِيهِ:

إِنَّ نَظريَّات التَّطور الحَاليَّة ـ وعَلَىٰ رَأسهَا نَظَريَّة دَارون ـ تُفِيد أَنَّ الإنسَان تَطَور مِن مَخلُوق بدَائي كَانَت لَهُ سمَات بدَنيَّة شَبيهَة بسمَات القُرود. وأَنَّ أَقدمَ أَثر للإنسَان كمَخلُوق مُنتَصب يَسِير عَلَىٰ رِجلَيه ولَهُ مُخّ كَبِير يَرجع إِلَىٰ نَحو مِليُون سَنَة، فِي حِينَ أَنَّ الإكتشَاف الجَدِيد يَدل عَلَىٰ أَنَّ المَخلُوق الإنسَاني المُنتَصب فِي السَّاقَين لَم يَتَطور عَن المَخلُوق البدَائي الَّذي يَشبَه القِرد، بل كَان يُعَاصره مُنذُ أَكثَر مِن مليُونَين وَنصف مليُون عَام، وَإِنّه يُمكن عَلَىٰ هَذَا الإعتبَار استبعَاد المَخلُوق البدَائي الأَوَّل عَلَىٰ أَسَاس أَنَّ الإنسَان انحَدر مِن سلاَلَته وَذكرت الجَمعيَّة الجُغرَافيَّة فِي تَعلِيقهَا:

«أَنَّ نَظَريَّة لَيكي تَقُوم عَلَىٰ أَسَاس أَنَّ المَخلُوق البدَائي الأَوَّل، وَاسمهُ العِلمي (أُوسترَالو بيتشيكوس) ـ وكَان أَسَاسَاً مِن أَكلَة النَّبَاتَات ـ قَد وَصَل إِلَىٰ مَرحَلَة تَطَوريَّة مَسدُودَة، بَيْنَمَا استطَاع الإنسَان الَّذي استَعمل اللَّحم فِي غذَائهِ، وَتَمكَّن مِن صنَاعَة الأَدوَات الحَجريَّة أَنْ يَبقىٰ عَلَىٰ قَيد الحَيَاة.

وَأَكَّد لَيكي فِي تَقرِيرَه أَنَّهُ أَمكَن إِعَادَة بنَاء جُمجُمة مِن شَظَايَا العِظَام الَّتي عَثر عَلَيهَا، وأَنَّهُ بالرَّغم مِن أَنَّ هَذِهِ الجُمجُمَة لاَ تَشبَه جَمَاجم الجِنس البَشري المَعرُوف حَاليَّاً إِلاَّ أَنَّها تَختَلف كَذَلك عَن جَمِيع أَشكَال الجمَاجم الَّتي عُثر عَلَيهَا للإنسَان الأَوَّل، ولذَلِكَ لاَ تَتَّفق مَع أَي نَظَريَّة حَاليَّة مِن تَطَور الإنسَان».

وَفِي (١١/٣/ ١٩٧٣م) نَشَرت جَرِيدَة الأَخبَار القَاهريَّة فِي صَفحتهَا الثَّالِثَة تَحتَ عُنوَان «انتكَاسة نَظَريَّة الإِرتقَاء» مَا يَأتِي للأُستَاذ ظَفر الإِسْلاَم خَان ـ الهِندي: «تَعَرضَت نَظَريَّة الإِرتقَاء لهَزَّة عَنِيفَة فِي أَوَائل الشَّهر الحَالي حِينَ قَرَّر المَجلس التَّعلِيمي الحكُومي بولاَيَة كَاليفورنيَا الأَمريكيَّة بأَنَّ تُشِير جَمِيع الكُتب المَدرسيَّة للعُلُوم إِلَىٰ نَظَريَّة الإِرتقَاء الدَّارونيَّة بأَنَّها «نَظَريَّة افترَاضيَّة ولَيْسَت حَقِيقَة» وَجَاء فِي قرَار المَجلس التَّعلِيمي للولاَية: «أَنَّ مَا يُمكن مَعرفته عَن أُصول الحَيَاة لاَ يَعدُو أَنْ يَكُون مُجَرد افترَاض ذَكي ـ عَلَىٰ أَكثَر تَقدِير ـ» وَأمر المَجلس «باستخدَام تَعدِيل عَلَىٰ العَقَائد النَظَريَّة المُسَلّم بهَا ↔

إِنَّ الدُّكتُور العَظم وَقَع فِي الخَطَأ حِينَ أَصدَر أَحْكَامَاً جَازِمَة مَبنيَّة عَـلَىٰ مَـا أَسمَاه عِلمَاً، وَمَا هُو بعِلم إِنْ هُو إِلاَّ ظَنّ وَٱحتمَال وَالظَّن لاَ يُغني مِن الحَقّ شَيئَاً، وَنُدرك مَدىٰ خَطَأه حِينَ يُهَاجم العَـقَائِد مُسـتَنِدَاً عَـلَىٰ هَـذِهِ النَـظَرِيَّة وَيُـهَاجم المَوفقِين بَيْنَ العِلم والدِّين الَّذِين يَرْفضُون هَذِهِ النَظَرِيَّة[1].

إِلىٰ بيَانَات قَابلَة للتَّعدِيل وِفقَاً للظُّرُوف».

أوَرَدَت هَذَا الخَبر مَجلّة (الإِيكُونُومست) الأُسبُوعيَّة البِريطَانيَّة فِي عَدَدها الصَّادر فِي (١٠ مَارس سَنَة ١٩٧٣م) نَقَلنا هَذَين الخَبرَين عَن الأُستَاذ الدُّكتُور عَبدالمُنعم النّمر مُدِير البـحُوث الإِسـلاَميَّة فِـي الأَزْهَر الشَّريف (خوَاطر مِن الدِّين وَالحَيَاة) الطَّبعَة الأُولىٰ (١٩٧٣م ـ دَار الكِتَاب اللُّبنَاني ـ بَيرُوت ـ لُبنَان: ٢١٠ ـ ٢١٢). (مِنْه ﷺ).

(١) أُنظر: ٤٢، ٤٣ مِن الكِتَاب. (مِنْهُ ﷺ).

الكَوْن، وَالنّظَام:

وَمَن نَظرَ، وتَأمل هَذَا الكَوْن يَجد أَنّه مُسَخّر للقَانُون، والنّظَام فِي جَمِيع أَوضَاعه وأطوَاره، فكُلّ كُوكَب يَبعُد عَن الآخَر بمقدَارٍ، ويَسِير بِحسَاب، وكَذَلِكَ الضّوء، وَالحرَارة، والبُرُودَة.... كلّ شَـيء حَـدّ لا يَعدُوه، ولَو تجَاوزَه لاِختَلّ نِظَام الكَوْن، وكَانَ مَصِيرهُ الخرَاب، والدَّمار: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا﴾، ٱلْفُرْقَانِ: ٢.

وَقَالَ أَكْثَر الفَلاسفَة بوحدَة الكَوْن عَلىٰ تبَاين أَشـيَائه، ومُـحتُويَاته، وإِنّـه شَـخص كَـثِير الأَعْـضَاء والأَجْزَاء، وَأسمَاه بَعضهُم بِٱلإِنْسَان الْكَبِير، وَأسْمىٰ ٱلإِنْسَان بالكَوْن الْصَّغِير، وَمرَادهُم بوحدَة الكَوْن وحدَة القَوَانِين الّتي تَربط بَيْنَ كوَاكِبه، وأرْكَانه.

هَذَا مَا يَعُود إِلىٰ الكَوْن بوجه عَام، أمّا أَشيَاؤه، وٱحدَاثه فإِنّ مِنْهَا ـ كمَا شَاهدنا بالعيَان ـ ما يَقوم بوظِيفَة خَاصَّة، ويَهدف إِلىٰ غَرضٍ مُعين، وتَبدو هَذِه الْحَقِيقَة وَاضحَة فِي أَعضَاء ٱلإِنْسَان، وٱلْحَيَوَان، ومَن قَرأ شَيْئَاً من عِلم وظَائف الأَعضَاء رَأىٰ عَجباً!.. ومَا أَنَا مِن أَهْل هَذَا الفَن فِي شَيء، ولكـنِي قَـرأتُ بَعْض مَا قَاله أَهْل الإِختصَاص، فشعرتُ بأَنّه لاَ شيء فِي هَذَا الكَوْن إِلاّ وهُو مُدهش، وعَجِيب تَمامَاً كالكَوْن فِي عَظَمَته، ومَا وَجدتُ تَفْسِيراً لذَلِك إِلاّ بقُوَّة عُليَا تُقدّر، وتُدّبر من وَرَاء الطَّبِيعَة، وقَد ٱتّهمتُ نَفسي فِي البدَاية، وقلتُ: رُبَّمَا كَان شعُورِي هَذَا ٱنعكَاسَاً عن عَقِيدتِي، وإِيمَانِي حَتَّىٰ قَرأتُ كِـتاب:

اَلاِنْسَان . . . ذَلِكَ المَجهُول ، لِلطَّبِيب الفَرنسِي الشَّهِير «الكسِيس كَارِيل» . وقَد حَصل هَذَا العَالم ـ بالإضَافة إلىٰ إجَازة الطِّب عَلىٰ إجَازة فِي العُلُوم ، وجَائزَة نُوبل ، ودَرّس في الْوِلاَيَات المُتحدة أَكْثَر مِن (٢٠) عَاماً ، وطُبع كِتابه عِدة مَرَّات ، وتُرجم إلىٰ كَثِيرٍ من اللُّغات .

وجَاء فِيهِ : «أَنّ كلّ عُضْو مِن أَعضَاء الجِسم يُكيّف نَفْسه مَع سَائر الأَعْضَاء ، وَهِي أَيضاً تُكيّف نَفْسِها مَعه . . . ومَا مِن أحدٍ يُنْكِر وجُود الغَايَة من هَذِه الأَعضَاء حَتَّىٰ كَأَنّ لكلِّ عُضْو مَعرفَة يَعمل فِي ضَوئها . . . . فالجِسم بِمَا فيهِ يُدرك ، ويَعْرِف القَرِيب وَالبَعِيد مِن أعمَاله ، والحَاضِر والمُسْتَقْبَل . . . وحِينَما يَقترب الجَنِين مِن الإكتمَال يُمهّد ، ويُعبّد لهُ طَرِيق المرُور ، والخرُوج من بَطنِ أُمّه ، وذَلِكَ بأَنْ تَصْبَح أَنسِجَة الفَرج مَرنة ، نَاعمَة تَمتَد بسهُولة ، ويَتّسع الفَرج بِحَجم الجَنِين» . ثُمّ قَال : «ولاَ يُمكن تَفْسِير هَذِه الحَقَائِق الأَوَّلِيّة بآرَائنا المِيكانِيكِيَّة ـ أي بِالْعِلَل المَاديَّة ـ أو الحَيوِيَّة السَّاذجة أي بقَوْلة مَن قَالَ : «إنّ اَلْحَيَاة تَأْخذ مَجرَاها بطَبِيعتها ، وتُكيِف نَفْسَها بِنَفْسِها ، وبدُون سَبب خَارج عَنْهَا . وعَلّق الفَيْلَفُوس الصِّينِي «لِين يُوتَانج» فِي كِتَابه «كَيْفَ يَحيَا اَلاِنْسَان» عَلّق عَلىٰ ذَلِكَ بقَوْله : «لقَد قَبل كَارِيل النَّظرِية الغَيبِية في اَلْحَيَاة بالرَّغم من سِعة أُفقه ، ونَحْنُ نَتّفق معهُ عَلىٰ أنّ هُناك أَشيَاء غَيْر قَابلة للتَفْسِير» . أُنظر ، كتاب كَيْفَ يَحيا اَلاِنْسَان للفِيلسُوف الصِّيني «لِين يُوتَانج» : ٦٥ طَبْعَة سَنَة ١٩٦٧م .

وَإذَا لَم تَقبل التَّفْسِير بالمَادَّة فإنَّهَا التَّفْسِير بِمَا وَرَاء المَادَّة ، وفي مَقَال مُطوّل عَن آينشتَين جَاء فِيهِ : قَالَ آينشتَين : «إنّ التَّجَارِب لا يُمكن أنْ تَصنع عِلماً حَقِيقِياً بدُون تَدخُّل الرُّوح» . أُنظر ، مَجلة «عَالم الْفِكْر الكويتِية» : ج ٢ / العدد / ٢ . (مِنْهُ ﷺ) .

وَقَالَ الفَيْلَفُوس رَاسل : «أنَا أَعتَقد أنّ ثَمّة حقَائِق لا يُوصل إِلَيْهَا إلاّ بالتَّأمُّل البَاطِنِي ، بل أَذهَب إِلىٰ أَبعَد مِن ذَلِكَ ، وَأَقُول : «إنّ عِلم الفِيزيَاء لاَ بُدّ لهُ مِن هَذِه الْحَقَائِق الَّتي لاَ يُوصل إِلَيْهَا إلاّ بالتَّأمُّل الْبَاطِنِي» . أُنظر ، كِتَابه «الفَلْسَفَة بِنظرَة عِلمِية» الفَصل السَّادس . (مِنْهُ ﷺ) .

وَبَعد أنْ اَتّفق الكلّ عَلىٰ أَنّ الكَوْن بِمَا فيهِ مُسَخّر لسُلطان النّظام ، والْقَدَر فِي طَبعِهِ ، وحَجمِهِ ، ووَضعه ، وحَركَته ـ اَختلفُوا فِي مَصْدَر هَذَا النّظام : أي شَيء هُو ؟

ونُلخص الأَقوَال فِي ذَلِكَ بِمَا يَلِي :

١ ـ لاَ مَصْدَر إلاّ الصّدفَة العَشوَائِية ! . . .

وَالجَوَاب : لاَ مَصْدَر لهَذا الْقَوْل إلاّ الْعَجْز ، والتَّهرب مِن حُكم الْعَقْل ، والوَاقع ، وفِي كِتَاب «مُلقىٰ

↔ ٱلسَّبِيل» لإِسمَاعِيل مُظهر أنّ دَاروين قَال: «كَلِمَة الصِّدفة خطَأ مَحض يَدل عَلىٰ الإِعتِرَاف بالْجَهْل، والقصُور عَن مَعرفَة السَّبب». ذَلِكَ أنّ الصِّدفة لاَ تَطّرد كنَظرِيَة مُحدّدة ذَات نتَائج عِلمِيَّة، أَو فَلسفِيَّة، أَو دِينِيَّة تُناط بظَاهِرَة مِن الظّواهر، أو حَادِثَة مِن الحَوَادث.

٢ ـ لاَ سَبب إِلّا المَادَّة، فَهِيَ وحدَها، وبِمَا تَملك من طَاقة، وٱستعدَاد ذَاتِي تُرَتب، وتُنظم!... وقَد دَحض الْعُلَمَاء هَذَا الْقَوْل دَحضاً قَاطعاً بِمَا يَتلخص أنّ النّظام يَحتَاج إِلىٰ قَصد، والمَادَّة بِمَا هِي لاَ إِرَادَة لهَا، وَلاَ شعُور، وإِلّا كَانَتْ عَلىٰ نَسقٍ وَاحد، لاَ فَرق بَيْنَ مَادَّة، ومَادَّة فِي الصِّفَات، والخصَائِص، وهُو خِلاف الوَاقع... وَأيضاً إذَا كَانَتْ المَادَّة في غِنىً بذَاتهَا عن الغَير تكُون، والحَال هَذِه، وَاجبَة الوجُود أَزلِية، أَبدِية، لاَ تَجري عَلَيْهَا حَركَة، وَلاَ حَرَارة، أو بـرُودة، وَلاَ تَركِيب، ونُقصَان، ومتَاعِب، وآلاَم... وأيضاً كَيْفَ أنْشأت المَادَّة لِنفسهَا عَقلاً، وَسَمعاً، وبَصراً، وَهِي بِطَبِيعتهَا صَمَّاء عَمْيَاء؟ بَل كَيْفَ ٱنْتقلت بِٱنتظَام مِن وَضعٍ إِلىٰ وَضع لتُؤَدِّي غَايَة مَعقُولة؟ وَإِذَا كَانَ فِي المَادَّة طَاقَة تُولّد ٱلْحَيَاة، والنّظام تِلقائِيّاً فمَن الَّذي أَودَع فِيهَا هَذِه الطَّاقة؟ وعَلىٰ حَدّ مَا قَال شُوقِي: «الطَّبِيعَة مَنْ طَبَعها؟».

وإِنْ قَال قَائِل: وإِلهكُم مَن إِلّهه؟ ووَاجب الوجُود من أَوجَبه؟ قُلنَا فِي جوَابه: إِنّ الَّذي نُؤلهه، وَنعبدُه لاَ تَراه عَينٌ، وَلاَ تَلمسَه يَدٌ كمَا هُو شَأن المَادَّة الّتي تَقضَم بالأَنْيَاب، وتَدخل الْمَعدَة، وتَخرج مِنْهَا، وتُلبس عَلىٰ الأَجْسَام، وتُداس بالأَقدَام... إِنّ إِلهنا قُوَّة عُليَا فوق المَادَّة، ومُنَزَّه عَنْهَا، قُوَّة فعَّالة، ومُؤثرَة، وحَكِيمَة مُدبرَة، وعَادلة تَسمع الشّكوىٰ، وتُعنىٰ بالآلام، وتُحَاسب، وتُعَاقب، وَعلِيمَة بكُلِّ جَليلٍ، وحَقِيرٍ، وقَاهِرَة يَخضع لهَا كلّ شيء، وَلاَ تَخضع لِشَيء... إِنَّهَا الكَمَال المُطلق فِي ذَاتها، وَصفَاتها... وإِذَنْ فأَينَ القَاسم المُشترك، والْقَدَر الجَامِع؟ ومَا هو المُبرر للشَّبه، والقِيَاس؟.

٣ ـ الاِعترَاف بوجُود قُوَّة سَرمدِيَّة عَالِمة قَادرة لَيس كمِثلها شَيء فِي الجَلال والكَمَال، وإِنَّهَا تُدَبر الكَوْن بمَا فيهِ، وٱسمها الله الأَحد الْفَرْد الصَّمد، وَلَكن هَذَا الإِله العَظِيم غَيْر مُنفصل عَن الطَّبِيعَة وَلاَ مُستقل عَنْهَا، بَل يَتّحد مَعَهَا، وَمَع جَمِيع أَشيَائها ٱتّحَاداً كُلّياً يَشبه ٱتّحاد الرُّوح مَع الجِسم بحَيث لاَ يُمكن التَّمْيِّيز بَينَه، وبَيْنَ الطَّبِيعَة... وبكَلِمَة، أَنّ الله موجُود بلاَ رَيبٍ، وَلَكن فِي نَفس الطَّبِيعَة، ولَيس وَرَاءها كمَا يَقُول المَشاءُون، والْمُؤْمِنُون... وَهَذَا الدِّين، أَو هَذِه الفَلْسَفَة تُعرف بوحدَة الوجُود. أُنظر، منتقىٰ الأُصول: ١٩/٣ و ٨٧ وما بعدها، تقريرات بحث الرّوحاني للحكيم، ٱفاضة الوجُود في وحدة الوجُود لأبي المواهب أحمد بن عليّ بن أحمد الشّناوي المِصْري الْمَعْرُوف بالحنائِي، إيضاح المقصود ↔

↔ من مَعْنَىٰ وحدة الوجُود للشّيخ عبد الْغَنِيّ النّابلسي، وغَيْرهما.
والجَوَاب عن هَذِه الْوحْدَة: إِنَّهَا مُجرد حَدس، وتَخمِين، وإِنَّهَا تَخلط بَيْنَ الْـعِلَّة والمـعلُول، والفِـعْل وفَاعلَه، وتَجعل الكَوْن إِلهاً خَالقاً، والإِله كُوناً مَخلوقاً.
٤ ـ وإذَا بَطلت الْأَقوَال الثّلاثَة تَحتم الْأَخذ بالْقَوْل الرَّابع، وهُو أَنّ وَرَاء الكَوْن خَالقاً حَكِـيماً يُـدبر، ويُنظم، وَلاَ شيء يَشبهَه مِن الكَائنات، وَلاَ هُو يَشبهها فِي شَيء.... وتَقَدَّم ذَلِكَ مَرَّات، ومَرَّات.
وَمِن جُملَة مَا قَرأتُ في الصُّحف الْيَوْميّة كَلِمَة بعُنوَان «أَجمَل مَا فِي ٱلْحَيَاة» وَهِي تُمثّل الْإِيمَان الصَّادق مع سَلاَمَة المَنطق، وبدَاهَته، فاْحتفَظت بِهَا ـ عَلىٰ عَادتِي ـ فِي مَلف خَاص بقصَاصَات الجرَائِد. وَمن المُفِيد أَنْ أَختُم شَرحِي لهَذه ٱلْخُطْبَة بأَجمَل مَا جَاء في تِلك الكَلِمَة، قَال كَـاتبهَا، أَحسَـن الله إِلَـيْهِ، وأَرْضَاه: «إنّ أَجمَل مَا في ٱلْحَيَاة هُو المَجهُول، وأَجمَل مَا فِي المجهُول مُحاولَة مَعْرِفَته. وَأَجمَل مِن هَذِه الْمحَاولة الْعَجْز عَن مَعرفَة التَّفاصِيل مَع الرُّجُوع التَّالِي إِلىٰ الْإِيمَان بالْقُوَّة العُظمىٰ المُسيطرَة عَلىٰ الكَوْن، ومَن مَلك هَذَا الْإِيمَان فَلا يَهاب أَحَداً غَيْر الله». أُنظر، فِي ظلاَل نَهج البَلاَغَة شَـرْح العَـلاَّمَة الشَّيخ مُحَمَّد جوَاد مُغنيَّة: ٣/٤٠٣، بتَحقِّيقنَا. «بِتَصرّف».

ٱلجِنّ وَالمَلاَئِكَة
وَأَبْحَاث أُخرىٰ

ٱلجِنّ وَالمَلاَئِكَة

ثَمَّة حقَائِق أَثبتهَا الوَحي وَلاَ سَبِيل إِلَىٰ العِلم بهَا عَن طَرِيق الحِس وَالتَّجربَة، وَهِي الحَقَائِق الغَيبيَّة. إِنَّ المَلاَئكَة، وَٱلجِنّ، وإِبْلِيس، وَالجَنّة، وَالنَّار وَمَا إِلَيهَا لَيْسَت أَسَاطِير كَمَا يَقُول المُؤَلّف.

هَل النَّظرة العِلميَّة التَّجريبيَّة الحِسّيَّة تَنْفي وجُود هَذِهِ الكَائنَات؟ أَو أَنَّ الحِس وَالتَّجربَة لَم تَكْتَشف هَذِهِ الكَائنَات؟ إِنَّ التَّعْبِير الصَّحِيح هُو الثَّاني، وَلَم يَقل أَحد أَنَّ هَذِهِ الْأَشْيَاء يُمكن ٱكتشَافهَا فِي المُخْتَبر، لسَبب بَسِيط جدّاً، وَهُو أَنَّها خَارجَة عَن نطَاق التَّجربَة الحسّيَّة. فالرّجُوع إِلَىٰ النَّظرة العِلْميَّة الحِسّيَّة للحُكم عَلَىٰ مَا هُو خَارج عَن نطَاقها مَسلَك غَير عِلمي، وَلاَ يَنْفي عَدَم قُدرَة الحِسّ وَالتَّجربَة عَلَىٰ مُلاَمسَة هَذِهِ الْأَشْيَاء أَنَّ تَكُون هَذِهِ الْأَشْيَاء حَقِيقَة أَيْضاً كالْأَشيَاء الحِسّيَّة.

إِنَّ الوَحي الصَّادق الَّذي ثَبَت بالبُرهَان القَاطع هُو طَريقنَا إِلَىٰ العِلم بِهَذِهِ الْأُمُور؛ فَإِنَّنا إِذَا آمنَّا بالعِلّة الْأُولىٰ للكَون، وهِي الله. وَآمنَّا بالنُّبوّة وَالوَحي فَلاَ بُدّ لنَا مِن الْإِيمَان بالحقَائِق الغَيبيَّة الَّتي أَخبرنَا الوَحي عَنْهَا[1].

---

(١) هَذَا هُو مَنْهَج الْإِمَام عَليّ عليه السلام بِالذَّات، وَهُو المَنْهَج السَّوي، وَبِهِ أَخذ التّجرِيبيُون، وَعُلَمَاء الطَّبِيعَة حَيْث يُشاهدُون ظوَاهرها، ثُمّ يَتفرَغ وَاحد، أَو نَفر مِنْهُمْ لِلبَحث فِي ظَاهِرة مِن الظّوَاهر، وَيتَتَبَّع ↔

إِنَّنا حِينَ نُؤمِن بأَنَّ شَيئاً مَا مَصْدَر للمَعرفَة ، فَلاَبُدَّ لنَا مِن الْإِيمَان بالمَعرفَة الَّتي تَأتِينَا مِن هَذَا المَصْدَر .

وَإِذَن فَالْإِيمَان بِهَذِهِ الْأُمُور فَرع للْإِيمَان بظَاهرَة الوَحي ، وَمن لاَ يُؤمِن بالوَحي لاَ مَعْنَىٰ للكَلاَم مَعَهُ فِي الفَرع وَهُو يُنْكر الْأَصل ، وَإِذَا آمنّا بالوَحي فَمِن المَنْطقي حِينَئِذٍ الْإِيمَان بالغَيب الَّذي جَاء عَن طَرِيق الوَحي .

وَالدُّكتُور العَظم وَأَمثَالَه مِن المَادِيِّين المَاركسيِّين وَغَيرهم حِينَ يَردّون الكَون وَظوَاهره إِلَىٰ أَصل غَير مَعرُوف وَغَير مَعقُول ، وَحِينَ يَلوذُون بحكَايَة الصِّدفَة إِذَا حُوصرُوا وَأَعوَزتهُم الحُجّة المُقنعَة ـ هَؤُلاَء أَيْضاً يُؤمنُون بالغَيب الَّذي يَعْتَقد بمِثلهِ المُؤْمِنُون بالْأَديَان ، فَلمَاذَا يَكُون غَيب المَادِيِّين حَقّاً وَغَيب المُؤْمِنِين بالْأَديَان بَاطلاً ؟ مَع أَنَّ غَيب المُؤْمِنِين أَكثَر عَقلاَنيَّة وَانسجَاماً مَع المَنْطق السَّلِيم .

* * *

مِن هُنَا يَتّضح لنَا أَنَّ سِخريَّة المُؤَلّف فِي (٣٧ ـ ٣٨) لاَ مَعْنَىٰ لَهَا فَلَيْسَ المُرَاد

↔ خصَائِصها ، وَآثَارها ، وَيَمضي فِي دَرسها ، وَتَحلِيلها حَتَّىٰ إِذَا انتَهىٰ انتَقل مِن المُشَاهدَة ، وَالإِدرَاك المُبَاشر إِلىٰ الاِستنتَاج ، وَالحُكم العَام عَلَىٰ أفرَاد تِلكَ الظَّاهِرة جَمِيعاً مَا شَاهد مِنْهَا ، وَمَا غَاب عَنْه .

وَبِهَذا يَتَبَيَّن مَعنا أنّ مَنْهج التّجرِيبيين فِي إثبَات مَا يُثبتُون لِلطَّبِيعة مِن قَوَانِين عَامَّة ، وَيُرسلونه عَلَيْهَا مِن أَحْكَام تَشمل كلّ فَرد مِن أفرَاد تِلك الظَّاهِرة مَا كَان مِنْهَا ، وَمَا يَكُون ، يَتَبَيَّن أنّ مَنْهَج التّجرِيبيين هَذَا هُو مَنْهَج الْقُرْآن فِي إثبَات وجُود الله تَعَالَىٰ ، وَمَنْهَج الْعُلَمَاء بالله ، وَبدِينه .. وإِذَنْ فَلِمَاذَا الإِنْكَار ، وَالاِستنْكَار ، وَتَسمِية الْإِيمَان بالله إِيمَاناً بِالْغَيْب دُونَ الْأَحْكَام الْعَامَّة عَلَىٰ الطَّبِيعَة ؟ . أَليس كُلّ مِنْهُمَا يَبتَني عَلَىٰ الْحِسّ ، وَالْعَقْل ؟ وَنُقل عَن (مَاكس بُورن) أنّ عَقِيدة (إِينْشتَاين) الدِّينِية تَقوم عَلَىٰ إِيمَانه بِقُدرة الْعَقْل عَلَىٰ تَخمِين القَوَانِين الَّتي بَنىٰ الله العَالم بِمُوجبها . أُنظر ، أُنظر ، فِي ظلاَل نَهْج البَلاَغَة شَرْح العَلاَّمَة الشَّيخ مُحَمَّد جوَاد مُغنيَّة : ١/ ٦٠ ، بتَحقِّيقنَا . «بِتَصرّف» .

مِن النَّص الَّذي ٱختَاره المُؤَلِّف أَنَّ بالإِمكَان ٱكتشَاف مَـوجَات صَـوئيَّة جِـنِّيَة وَمَلائكيَّة، وَإِنَّما المُرَاد هُو أَنَّ ثَمَة عوَالم غَير مَنظُورَة كَثِيرَة وَرَاء عَالمنَا. فَـعَدم ٱطلاَعنَا عَلَىٰ تِلْكَ العوَالم وَتَركيبهَا لاَ يَنْفي وجُود كَائنَات غَـير مَـنظُورَة وَذَات طَبيعَة غَير إِنْسَانيَّة فِيهَا ـ وهَذَا مَعْنَىٰ مَعقُول صَحِيح لاَ وَجْه للسُّخريَة مِنْهُ[1].

* * *

النَّظرة الغَائِيَّة:

وهَذَا يَنْقلنَا إِلَىٰ مُنَاقشَة المُؤَلِّف للنَّظرَة الغَائيَّة إِلَىٰ الكَون. إِنَّ المُـؤَلِّف يَـنْفي

---

(١) الحَدِيث عَن المَلاَئِكَة حَدِيث عَن الْغَيْب، وَقَد أَثبَت الْقُرْآن الكَرِيم أَنَّ عَلَىٰ عِبَاد الله مِن المَلاَئِكَة كِرَاماً حَافِظِين كَاتِبين كمَا فِي الآيَة: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ كِرَامًا كَٰتِبِينَ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾ ٱلإِنـفِطَارِ: ١٠ ـ ١٢.

وَكَمَا يَكُون الْعِلْم بِالحِس وَالْعَقْل يَكُون بِالوَحي، وَالشَّرط فِيهِ أَنْ لاَ يُضَادّ الْعَقْل فِيمَا يُخبر عَنْهُ. لاَ أَنْ يَسْتَقِل الْعَقْل بِإِدْرَاكه وَإِلاّ كَان الوَحي لَغواً وَعَبثاً... وَالْعَقْل لاَ يَسْتوعب كُلّ شَيء، بَل يَعْجَز عَن إِدْرَاك الكَثِير مِن الحقَائِق.

وَالله سُبْحَانَه مَصْدَر الوجُود وَالْعِلْم والْحَيَاة، وَقَد أَخْبَر عَن الحَافِظِين الكَاتِبين مِن مَلاَئِكَتِه، وَالْعَقْل لاَ يَأبَىٰ وَلاَ يَعْتَرض، فَوَجب التَّصدِيق.

وكلّ مَا يَتصورَه ٱلإِنْسَان عَن ٱلجِنّ، وٱلْمَلاَئِكَة فَهُوَ حَدس، وَتَخمِين لأَنَّه غَيب، حَيْث لاَ مكَان لِهَذَا المَوْضُوع الشّائِك فِي ٱلْعَقْل، وَلاَ فِي ٱلْحِسّ.. أَجَل، نَحْنُ كَمُؤمِنِين بالله، وكتَابه، وبـالنَّبِيّ، وَسُـنَنه يَجب عَلينَا أَنْ نَعْتَقد بوجُود ٱلجِنّ، وٱلْمَلاَئِكَة. أَمَّا أَيـن مكَـانهُم؟ ومَـا هِـي حَـقِيقَتهُم، وَهَـيئتهُم، وَمِهنتهُم؟ فلاَ يَجب عَلَىٰ الْمُسْلِم أَنْ يَعْرِف، أَو يَسأَل عَن شَيء مِن ذَلِكَ، لأَنَّه لاَ يَمت إِلَـىٰ ٱلْـحَيَاة، وأُصُول العقَائِد بِسَبب.

وَلاَ شَك أَنّ عَن ٱلجِنّ حَدِيث عَن ٱلْغَيْب، وَأَيضاً لاَ شَك أَنّ الإِيمَان بِٱلْغَيْب يَنبَع مِن الْقَلْب، وَلاَ يُمكن إِقَامَة الدَّلِيل عَلَيْهِ مِن ٱلْحِسّ سَلباً، وَلاَ إِيجَاباً. أَمَّا ٱلْعَقْل فإِنَّه لاَ يَأبىٰ ٱلْغَيْب مَا دَام مُمكناً فِي ذَاته، وَإِنْ ٱمْتَنع عُرفاً، وَعَادةً. «بِتَصرّف».

القَصد وَالغَايَة مِن النِّظَام الكَوني . إنّه نظَام وجدَ صِدفَة ، نَعم صِدفَة ، ووجدَ بِـهَذَا الشَّكل مِن النِّظَام الدَّقِيق المُحكَم المُتنَاسق صِدفَة[١] .

لاَ يأبىٰ عَقل الدُّكتُور « العِلمي » أَنْ يُؤمِن بالصِّدفَة فِـي كُـلّ النِّـظَام الدَّقِـيق الشَّامل الَّذي يُسَيطر عَلَىٰ كُلّ ظوَاهر الطَّبِيعَة وَيَأبـىٰ عَـقلَه التَّـصدِيق بـالوَحي وَبالحقَائِق الغَيبيَّة الْآتيَة عَن طَرِيق الوَحي[٢] .

نَعُود إِلَىٰ النَّظرة الغَائيَّة[٣] . إِنَّ النِّظَام الدَّقِيق المُحكَم الَّذي يُسَيطر عَلَىٰ الكَون

---

(١) أَين مكَان الصِّدفة ، وَالعَبث ؟ . هَل هُو فِي هَذَا النِّظام ٱلْمحْكَم الدَّقِيق الَّذي يَخضَع لهُ الكَوْن وَلا يَتعدَاه بحَال ؟ أو هُو فِي التَّقدِير الكَّمي ، والكَيْفِي ، والزَّمني لكلّ كَائن ؟ أو هُو فِي التَّعَاون بَيْنَ ٱلْكَائِنَات عَلَىٰ البِنَاء ، والتَّعمِير ؟ . أَبَداً لا تَفْسِير لذَلِكَ إلاّ الْوُجُود القَدِير الحَكِيم ، وأنّـه الْـمَصْدَر الْأَوَّل لكـلّ شَـيء إيجَاداً ، وإمدَاداً ، ولَوْلاَه لا شيء عَلَىٰ الْإطلاَق .

بكَلِمَة أَصح مَا كَانَ للعِلم عَينٌ ، وَلاَ أَثر . . . وَنَسأَل : مِن أَين جَاءَت هَذِه القَوَانِين ، وَالخصَائص ، مِـن الطَّبِيعَة العَمْيَاء ، أَو مِن الصّدفَة ؟ وَإِذَا كنّا نَحْنُ لاَ نُفسّر بالصّدفة أَفعَالنَا فكَيْفَ نُفَسّر بهَا عَظمَة الكَوْن ، وَنظَامه ؟ وإِذَنْ فَلاَ مَحِيص عَن الْإيمَانِ بِٱلْقُوَّة العَلِيمَة الحَكِيمَة . « بِتَصرّف » .

(٢) وَنصّ ٱلْقُرْآن ٱلْكَرِيم عَلَىٰ أَنّ الْإيمَان بالوَحي أَصل أَصيل للْإيمَان بالله ورَسُوله : ﴿ٱلَّـذِينَ يُـؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ يُنفِقُونَ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِالْأَخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَأُوْلَـٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ . ٱلْبَقَرَة : ٣ ـ ٥ .

وَأَوحىٰ سُبْحَانَهُ إِلىٰ نَبِيِّه ٱلْكَرِيم الكَثِير مِن أَنبَاء ٱلْغَيْب : ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَمنبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَـٰمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ . ٱلْجِنّ : ٢٦ ـ ٢٧ . ﴿عَـٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَايُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَـإِنَّهُو يَسْـلُكُ مِـنم بَـيْنِ يَـدَيْهِ وَمِـنْ خَلْفِهِۦ رَصَدًا﴾ . آلِ عِمْرَانَ : ٤٤ . وَكَذَا النَّبِيّ لاَ يُظهر عَلىٰ هَذَا ٱلْغَيْب أَحداً إلاّ مَن ٱرْتَضَىٰ الله ، ورَسُوله مِن وَليٍّ ، وكَانَ رَسُول الله يُظهر عَلِيّاً عَلىٰ مَا أَظهره الله عَلَيْهِ مِن غَيْبٍ .

(٣) نَحْنُ لاَ نَشكّ فِي أَنّ الْأَعْضَاء لاَ تُدرك شَيْئاً . . . وَلَكن كُلّ نظَام مُتنَاسق ، وَمُستَمر لاَ يُمكن أَنْ يَحدث إلاّ عَن قَصد حَكِيم ، وَكلّ قَصد لاَبُدّ أَنْ يَهدف إِلَىٰ غَايَة ، وَيُسمىٰ هَذَا عِند الفَلاَسفَة « بقَانُون الغَائِيَّة » .

يَكْشف عَن القَصد والغَايَة الَّتي تَقُود الكَون نَحو النَّمو والتَّكامُل. إِنَّ المُؤَلّف قَد نَفىٰ هَذِهِ النَّظرة بكَلاَم خطَابي عَن العِلم وَعَدم إِدرَاكه للغَايَة وَالقَصد مَع قَائِمَة بأَسمَاء عُلمَاء الطَّبِيعَة والرِّياضيَّات كمَا فِي صَفحَة: ٣٨ ـ ٣٩.

وَقَد فَات الدُّكتُور أَنَّهُ لاَ مُنَافَاة بَيْنَ النَّظرة الغَائيَّة وبَيْنَ العِلم. إِنَّ وَظيفَة العِلم وَظِيفَة وَصفيَّة، العِلم لاَ يُفَسّر وَلاَ يُفَلسف، العِلم يُحَللّ وَيَصف فَقَط، أَمّا التَّفْسِير، أَمَّا إِدرَاك المَعْنَىٰ الكَامِن وَرَاء الظَّاهرَة الطَّبِيعيَّة، فَهو مِن شَأن الفَلْسَفَة، مِن شَأن العَقل المُفكّر الوَاعي، وَلَيْسَ مِن شَأن أَنَابِيب الْإِختبَار وَأفرَان الصَّهر. إِنَّ العِلم يَسْتَطِيع أَنْ يُحلّل التُّفَاحَة إِلَىٰ عَنَاصرهَا الْأَسَاسيَّة، وَيَصفهَا، ولَكنّهُ لاَ يَستَطِيع أَنْ يَقُول لنَا أَنّها جَمِيلَة أَو غَير جَمِيلَة، لذَيذَة أَو غَير لَذِيذَة، فَذَلِكَ شَأن يَتعلّق بقِوىٰ إِدرَاكيَّة لَدىٰ الْإِنْسَان لاَ عِلاَقَة للعِلم التّجربي بهَا.

* * *

تَدَخُل القُدْرَة الْإِلَهيَّة فِي عَمَل الطَّبِيعَة:

ٱعْتَرض المُؤَلّف عَلَىٰ قَوْلَه تَعَالىٰ فِي سُورَة المُؤْمِنُون:

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن سُلَـٰلَةٍ مِّن طِينٍ ثُمَّ جَعَلْنَـٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ثُـمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَـٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَـٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَـٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَـٰلِقِينَ﴾[1].

ٱعْتَرض بأَنَّ مَا تَدل عَلَيهِ الْآيَات مِن تَدَخُل الْإِرَادَة الْإِلَهيَّة فِي عَمليَة تَكُون

↔ ومِن البَدَاهة أَنّ الأَعْضَاء وَسِيلَة لاَ غَايَة. وإِذَنْ فالعَالم القَاصد الحَكِيم هُو الَّذي خَلَق الأَعْضَاء، وسوَاها، وجَعَلهَا وَسَائِل إِلَىٰ مَصلحَة ٱلإِنْسَان، وَأغرَاضه. «بتَصرّف».

(١) ٱلمُؤْمِنُون: ١٢ ـ ١٤.

الجَنِين يُنَافِي مَا يُقَرّره عِلم الأَجنّة .

ونَقُول للمُؤلّف إِنَّنَا بَيْنَّا عِنْدَ الحَدِيث عَن المَسْأَلَة الإِلَهيَّة أَنَّ إِيمَاننَا بالله عِلّةً أُولىٰ للكَون لاَ يَعْنَي أَنَّنا نَنفي العِللّ الطَّبِيعيَّة مِن التَّأثِير ، كَيْف ذَلِكَ ونَحْنُ نُشَاهد بحسّنَا وَنُدرك بعقُولنَا تَدَخل العِلَلّ الطَّبِيعيَّة وَعَملهَا ؟ وَإِنَّمَا يَعْنَي أَنَّ العِلَلّ المُتصَاعدَة لاَ بُدّ أَنَّ تَنْتَهي إِلَىٰ علّة أُولىٰ هِي الله تَعَالىٰ .

وَنَزِيد البَيَان هُنَا فَنَقُول :

إِنَّ الظَّاهرَة تَارَة تَكُون خَارقَة للطَّبيعَة « مُعْجزَة » وأُخرىٰ تَكُون طَبيعيَّة . حِينَ تَكُون الظَّاهرَة خَارقَة للطَّبيعَة فَفي هَذِهِ الحَالَة تَكُون نَتِيجَة للتَّدخل الإِلٰهي المُبَاشر . وَأَمَّا حِينَ تَكُون الظَّاهرَة طَبيعيَّة فَهي تَتّبع بصُورَة مُبَاشرَة أَسبَابهَا الطَّبِيعيَّة ، ومِن ذَلِكَ نَمو الجَنِين فِي الرّحم ، فإِنَّهُ تَابع لأَسبَابه الطَّبِيعيَّة المُبَاشرَة ، وَإِسنَاد عَمليَّة الخَلق إِلَىٰ الله فِي هَذِهِ الآيَات ، إِنَّما هُو بإِعتبَار أَنَّ الله تَعَالىٰ هُو العِلّة الأُولىٰ وَالنّهائيَّة فِي سِلسلَة العِلَلّ المُتصَاعِدَة ، فهُو سُبحَانه وتَعَالىٰ خَلَق الأَسْبَاب وَجَعَلل العِلل وفقاً لِهَذَا النِّظَام الَّذي يَحْكُم الكَون كُلّه .

* * *

تَزْوِير وَتَنَاقُض :

يُهَاجم المُؤَلّف فِي صَفحَة : (٤٢ ـ ٤٣) المُسْلِمين الَّذِين يَرْفضُون نَظَرِيَّة دَارون ، ونَظَرِيَّة الحُرّيَّات العَامّة فِي التَّأرِيخ كَمَا بشّرت بهَا الثَّورَة الفَرنسيَّة ، ونَظَرِيَّة (فرويد) وَالمَارْكسيَّة ، وَيُهَاجمهُم لأَنَّهم يَرْفضُون العِلم فِي الوَقت الَّذي يدّعون أَنَّ الإِسْلاَم يَنْسَجم مَع العِلم .

ونَقُول للمُؤلّف : أَنَّنا قَد بَيْنَّا مَدىٰ « عِلْميَّة » نَظَرِيَّة دَارون آنفاً فَهي لَيْسَت عِلمَاً

بَل ظَنّ وَاحتمَال لاَ يُغني عَن الحَقّ شَيئاً.

ونَقُول للمُؤلّف المَاركسي: هَل تَقرّ عَقِيدَتك المَارْكسيَّة نَظَرِيَّة الحُرّيّات كَمَا بشّرَت بهَا الثَّورَة الفَرنسيَّة أَو أَنَّ المَارْكسيَّة تَستَغل الحُرّيَّات إِلَىٰ أَنْ يَستَولي اتبَاعهَا عَلَىٰ السُّلطَة فَتخْنق كُلّ الحُرّيَّات. هَل يُتَاح لمُسلِم أَنْ يُهَاجم المَارْكسيَّة فِي دَولَة شُيوعيَّة كَمَا هَاجَمتَ أَنتَ الإِسْلاَم والمَسِيحيَّة فِي كتَابك مَوْضُوع البَحْث. هَل تُوجد حُرّيَّات فِي المُجْتَمع الشُّيوعي[1]؟.

ونَقُول للمُؤلّف المَاركسي: هَل تَعْتَرف المَارْكسيَّة بنَظَرِيَّة (فرويد) الَّتي قُلتَ عَنْهَا فِي صَفْحَة: (٤٣) «أَنَّها مِن أَهَم النَّتَائِج الَّتي تَوصَلت إِلَيهَا البحُوث العِلْميَّة فِي مجَال الدّرَاسَات النَّفسيَّة». نَقُول لَهُ: هَل تَقرّ المَارْكسيَّة نَظَرِيَّة (فرويد) فِي أَنَّ المُحرّك الأَسَاسي للإِنْسَان هُو الغَريزَة الجنِسيَّة، وَتَتخلىٰ المَارْكسيَّة عَن مَبدئهَا الأَسَاسي فِي أَنَّ العَامِل الإِقْتصَادي هُو العَامِل الوَحِيد فِي حَركَة الفَرد

(١) الحُرّيَّة أَمر طَبِيعي، لأَنَّ الْعَقِيدَة ومُمَارسَة الدّين لاَ تَكُون، ولَنْ تَكُون إلاّ في ظِلِّ الْحُرِّيَّة التَّامة، وهِي الْحَقّ لِكُلِّ إِنْسَان فإِذَا اعْتَدىٰ وأَسَاء اسْتعمَالها تَحمّل وَحدَه التَّبعَات، والمَسْئُولِيَة.
وَالمُنَافِقُون فِي عَصرنا لاَ يُحصُون كَثرَة، وَمِنْهُم الَّذِين حَوّلوا أَقوَات الخَلاَئِق إِلىٰ أَسْلحَة الهَلاَك، والْمَوْت بالْجُملَة، وَهُم يَتَسترُون بِكَلمَات الدِّفَاع عَن الْحُرِّيَّة وَصِيَانة السِّلم، والْمَدَنِيَّة، وَيَصْنعُون سُفن الْفَضَاء لِلتَّجَسُس عَلىٰ الشّعُوب وَيَقُولون: هِي لِمَنْفَعة الإِنْسَان وَسَعادَته، وَلقضَاء شهُور العَسَل فِي القَمَر والزُّهرَة، وَأيضاً يَقْتلُون الأَحرَار بِاسم القِصَاص مِن العنَاصر الَّتي يُسمُونها «هَدَّامَة»، وَيَعْتدُون عَلىٰ الشّعُوب دِفَاعاً عَن الحدُود الآمِنَة! ولكنَّ الْحَقِّيقَة تَخْرِق بِقوّتها الأَسوَار، وَتَدُور فِي الآفَاق مُعْلِنَةً عَن نَفْسها، وَيَسمعها وَيَرَاها القَرِيب والبَعِيد.
أَبداً، لا وَسِيلة إِلَىٰ الْحَيَاة الطَّيِّبَة للذّكور، والإِنَاث إِلاّ الْعَمَل الصّالح. ومن البدَاهة أَنّ الْعَمَل الصّالح لا يَكُون، ولَنْ يَكُون مَع الدّكتاتورية، والضّغط عَلىٰ الْحُرِّيَّة، وَلاَ مَع طُغيان الرّأسمالية، وشُركاتها الإِحْتِكَارية. أُنظر، مُحمّد رَسُول الْحُرِّيَّة لعَبد الرَّحمَان الشّرقاوي.

وَالمُجْتَمع ؟.

أَنَّ المَارْكسيَّة تَرفض نَظَرِيَّة (فرويد) فَلمَاذَا لاَ يَجُوز للمُسلِم أَنْ يَرفضهَا ؟ أَو إِنَّها بالنّسبَة إِلَىٰ المَاركسي تَكُون سخَافَة وَبالنّسبَة إِلَىٰ المُسلِم تَصِير عِلمَاً....

وَأَمّا مَدىٰ مَا فِي المَارْكسيَّة مِن «عِلْم» فَتَرجو أَنْ تُتاح لنَا فُرصَة الحَدِيث عَنْهُ مَع المُؤَلّف فِي الفَصل الأَخِير مِن كتَابه.

* * *

التَّوفِيق التَّبرِيرِي:

فِي الصَّفحَات: (٤٥ ـ ٥١) اَنْتَقد المُؤَلّف المُحَاولاَت الَّتي تُبذَل فِي الدُّوَل الْإِسْلاَميَّة لتَبرِير أَشكَال الحُكم القَائِمَة فِي كُلّ دَولَة. ونَحْنُ نَقُول للمُؤلّف: إِنَّ الْإِسلاَم كدِين لَيْسَ مَسؤولاً عَن هَذِهِ المُحَاولاَت، وَإِنَّما المَسؤول هُو الحُكّام الَّذِين يُريدُون أَنْ يُبَرّروا أَنْفسهم، وَمسؤوليَة المُبرّرِين.

وَقَد عَرضنَا لِهَذِه المَسْأَلَة فِي قِسم مِن حَدِيثنَا مَع المُؤَلّف، وَنَبّهنَا عَلَىٰ تَنَاقض المُؤلّف مَع نَفْسه بَيْنَ مَا ذَكرهُ هُنَا وبَيْنَ مَا ذَكرَه عَن هَذَا المَوْضُوع فِي صَفحَة: (٢٣ ـ ٢٤).

التَّوفِيق التَّعَسفُي:

فِي الصَّفحَات: (٥١ ـ ٥٧) نَدّدَ المُؤَلّف بقَسوَة وَسُخريَة عَن المُحَاولاَت الرَّاميَة إِلَىٰ تَقرِير أَنَّ بَعْض المُكتَشفَات العِلْميَّة الحَدِيثَة قَد وَرَدَت فِي القُرْآن.

ونَقُول للمُؤلّف: أَنَّ المَبْدَأ العَامّ بالنّسبَة إِلَىٰ هَذِهِ المَسْأَلَة هُو أَنَّ القُرْآن لَيْسَ كتَابَاً فِي العُلُوم، وَلِذَا فَلَيْسَ المَطلُوب مِنْهُ أَنَّ يَتضمّن مَبَاديء عُلُوم الطَّبِيعَة وَغَيرهَا، وَإِنَّما هُو كِتَاب هُدىٰ ونُور، يُقَوّم السُّلوك الْإِنسَاني وَيَهدِيه سوَاء

السَّبيل.

وَلَكن هَذَا المَبْدَأ لاَ يَنْفي أَبدَاً أَنَّ فِي القُرْآن آيَات كَثِيرَة تَتَضمن إِشَارَات وَاضحَة جدّاً إِلَىٰ حقَائِق عِلْميَّة كَشَف العِلم عَنْهَا بصُورَة نهَائيَّة. أَنَّ الْآيَات الَّتي أَتَحدثُ عَنْهَا لَم تُسَق للتَّعبير عَن الحَقِيقَة العِلْميَّة بصُورَة مُبَاشرَة، وَإِنَّما سَبقَت للتَّعبِير عَن أَغرَاض أُخرىٰ تَتَعلق بالْإِنْسَان وَسلُوكه، وَقُدرَة الله الكُليَّة ولَكنَّها فِي طَيَّات ذَلِكَ تُومِيء إِلَىٰ الحَقِيقَة العِلْميَّة. وَالمُلاَحظَة الْأَمينَة المُحَايدَة الوَاعيَة تَكشف عَن ذَلِكَ بوضُوح. وَلَو كَان المقَام يَتّسع لذِكر بَعْض الْأَمثلَة لذَكرتهَا.

إِنَّ السُّخريَّة الَّتي يَلجأ إِلَيهَا المُؤَلّف لنَفي الْآرَاء الَّتي لاَ تُعْجبهُ لاَ تَقوىٰ عَلَىٰ دَفع هَذِهِ الحَقِيقَة. لَسنَا مَع أُوْلَئِكَ المُتَحمسِين الَّذِين يُرِيدُون أَنْ يَجْعَلُوا مِن القرأَنَّ مَوسُوعَة عِلْميَّة، وَلكنّنا أَيْضَاً لاَ نوَافق المُؤَلّف عَلَىٰ نَفْيه القَاطع[1].

التَّوفِيق عَلَىٰ الطَّرِيقَة اللُّبنَانيَّة:

فِي الصَّفحَات: (٥٧ ـ ٦٩) آستَعرض المُؤَلّف المُحَاولاَت المَبذُولَة لْإِنشَاء حوَار إِسلاَمي مَسِيحي فِي لُبنَان وَالعَالَم، وَآعْتبرهَا ظَاهرَة مِن ظوَاهر التَّفكِير المُجَامل فِي أَذهَان المَسؤولِين عَن شُؤون الفِكْر الدِّينيّ عَامّة وَآهتمَامَاتهِم».

ونَقُول: لَسنَا مَع الْأَب (يوَاكيم مُبَارك) وغَيْرَه مِمَّن يَرون أَنَّ يَحصرُوا الحِوَار فِي «المُقَابَلَة اللَّاهُوتيَة البَحْث» فَذَلِكَ لاَ يجُدي وَلاَ يُفِيد.

المَفرُوض أَنَّهُ يُوجد إِسْلاَم ويُوجَد مَسيحيَّة، وَإِنَّهُما دِينَان مُتَميزَان فَلاَ مَعْنَىٰ

---

(١) أَعْظَم صِفَة لِلْقُرْآن عِند الغَربِيِّين تَميزَه عَن كُتب الْأَدْيَان الْأُخرىٰ ـ أنّه لاَ يَتعَارض مَع الْعَقْل، وَالعِلم، وَلاَ يَدعو إِلىٰ الجمُود، وأنّ تَعالِيمهُ تَعكس إِرَادَة الملاَئِين.

للمُطَالبَة بوحدتهَا فِي كُلّ شَيء، وَإِلاَّلكَانا دِينَاً وَاحِداً. إِنَّ الحِوَار يَنْبَغي أَنْ يَسْتَهدف اكتشَاف المُبَادِيء الكُبْرىٰ الَّتي تَجْمعهَا، المُبَادِيء الكُبْرىٰ فِي السُّلُوك وفِي احترَام الإِنْسَان، وفِي تَيسِير حَركَة التَّقدّم الإِنْسَاني، وَالتَّعايش بَيْنَ الأُمَّم وَالجَمَاعَات الثّقَافيَّة والدِّينيَّة المُخْتَلفَة.

إِنَّ الإِسْلاَم مُنْذُ ظهُوره مُنْفَتح عَلَىٰ المَسِيحيَّة والمَسِيحيِّين، وتَأرِيخه خِلاَل العصُور أَعْظَم شَاهد عَلَىٰ انْفتَاحه، والمَسِيحيَّة مِن خِلاَل تَطَور الكَنيسَة تُحَاول الإِنفتَاح عَلَىٰ الإِسْلاَم، وَنَأمل أَنْ يُترَجم هَذَا الإِنفتَاح إِلَىٰ دَعم جهُود العَالمَين الإِسْلاَميّ وَالعَرَبي بصُورَة وَاضحَة وَصَريحَة فِي المَسْأَلَة الفَلسطِينيَّة[1].

تنَاقُض:

بَعْد أَنْ حَارَب المُؤَلّف الدِّين مِن كُلّ الوجُوه، وَنَفىٰ أُسّسه عَلَىٰ جَمِيع المُستويَات، ابتَدَاءً مِن أَكبَر قَضَايَاه «وجُود الله» إِلَىٰ أَبسَط قَضيَّة دِينيَّة، بَعْد كُلّ هَذَا عَاد فِي صَفْحَة: (٧٨) إِلَىٰ القَول بأَنَّه «لاَ يُرِيد نَسخ الشُّعُور الدِّينيّ فِي تجَارب الإِنْسَان مِن الوجُود».

وَنَتَسَاءَل: كَيْف لاَ يَعْترف بوجُود إِلهُ، وَيَرفض وجُود عَالم غَيبي، ومَع ذَلِك

(١) لاَحظ بزحْثنَا عَن الحِوَار الإِسْلاَميّ المَسِيحي الَّذي نُشرَ بَعْد كتَابَة هَذِهِ المُطَارحَات فِي جَريدَة السَّفِير البَيروتيَّة فِي حَلقَتين الأُولىٰ فِي العَدَد (٧٠٨ الإِثنَين ١٤ رَبِيع الأَوّل ١٣٩٦ هـ = ١٩٧٦/٣/١٥م) بعُنوَان (تَأمُّلاَت فِي صِيغَة الحِوَار الإِسْلاَميّ المَسِيحي ـ أَزمَة الحَضَارة وَمَشرُوع جَدِيد للحوَار، والثَّانيَة فِي العَدَد (٧٠٩ الثّلاَثَاء ١٩٧٦/٣/١٦ بعُنوَان (تَأمُّلاَت فِي صِيغَة الحِوَار الإِسْلاَميّ المَسِيحي ـ آفَاق جَدِيدَة لعِلاَقَات الحِوَار بَيْنَ الدِّيَانتَين). (مِنْهُ ﷺ).

يُرِيد بقَاء الشُّعُور الدِّينيّ، مِن أين يَأتِي الشُّعُور الدِّينيّ إذَا لَم يَكُن ثَمّة إلٰه ؟ .

وهَذَا التَّنَاقض شَبِيه بمَا ذَكَره فِي أَوَّل كتَابه فِي صَفحَة : (١٧) حَيْث فَرّق بَيْنَ ظَاهرتَين للدِّين :

الْأَوَّل ـ كَونَه «ظَاهِرَة رُوحيَّة نَقيَّة وَخَالصَة عَلَىٰ نَحو مَا نَجدهَا فِي حَيَاة قِلّة ضَئِيلَة مِن النَّاس» ، وَالدِّين بِهَذَا الإعتبَار لَيْسَ مَوضُوعاً لنَقد المُؤَلّف .

الثَّانِي ـ كَون الدِّين «قوّة هَائِلَة تَدخل فِي صَمِيم حَيَاتنَا ، وَتُؤثّر فِـي جَـوهر بُنيَانَنَا الفِكْري وَالنَّفسي» ، وَهُو بِهَذَا الإعْتبَار مَوْضُوع لنَقد المُؤَلّف .

نَتَساءَل أَوَّلاً : لمَاذَا أَعفىٰ الدِّين بالإعتبَار الأَوَّل مِن نَقْده ، هَل يَـنْسجم فِكـر المُؤَلّف ـ وَهُو المَاركسي اللِّينِيني ـ مَع الظَّاهرَة الَّتي يُمثّلها هَـؤُلاَء «القَـدِّيسُون وَالمُتصوفُون وبَعْض الفَلاَسفَة» ، وَهَل تَسِير الحَيَاة الرُّوحيَّة لهَؤلاَء الَّذِين أَعفَاهُم المُؤَلّف مِن نَقْدَه إلاَّ عَلَىٰ أَسَاس المَفْهُوم الإلٰهي وَالرُّوحي للكَون ؟ وَهُو مَـفهُوم يَرفضهُ المُؤَلّف جُملَةً وَتَفصِيلاً .

وَنَتَسَاءل ثَانِياً : هَل الدِّين بالإعتبَار الثَّاني الَّذي جَعَلهُ المُؤَلّف مَوضُوعاً لنَقْده إلاَّ نَتِيجَة لكُونه ظَاهرَة رُوحيَّة ؟ وهَل هُو بإعْتبَارِهِ ظَاهرَة رُوحيَّة تَبدُو فِي حَيَاة قِلّة ضَئِيلَة إلاَّ السَّبب الفَاعل فِي الحَيَاة الإجْتمَاعيَّة ، وَالفِكْريَّة لجَمَاهِير المُعتَنِقين للدِّين ؟ .

أَلَيْسَت هَذِهِ القلَّة الضَّئِيلَة مِن النَّاس الَّتي أَعفَاهَا المُؤَلّف مِن نَقدهِ هِـي الَّـتي أَغْنَت الدِّيـن بأَفكَـارهَا وَتَأمُـلاَتها ، وتَـقْبَل المُـجْتَمع المُـتَدَين هَـذِهِ الأَفكَـار وَالتَّأمُّلاَت فَجَعلهَا خَمِيرَة لثَقَافَته وَرُوحاً لحضَارَته .

أَنَّ هَذِهِ المُلاَحظَة ، وَأمثالَهَا كَثِير ، تَكشف لنَا عَن مَدىٰ تَنَاقضَات المُؤَلّف .

وإلَىٰ اللّقَاء مَع قصّة المُؤَلّف فِي قصّة إبْلِيس .

قِصَّة إِبْلِيس

قِصَّة إِبْلِيس

يَجَب أَنْ يَكُون القُرْآن الكَرِيم هُو المَادّة الْأَسَاسيَّة للبَحْث فِي قِـصّة إِبْـلِيس الْإِسْلاَميَّة ، لْأَنَّ القُرْآن الكَرِيم هُو المَصْدَر الْأَصِيل الَّذي لاَ يَرقىٰ إِلَيهِ الشَّك حَول مَلاَمح هَذِهِ القِصّة مِن وجْهَة النَّظر الْإِسْلاَمِيَّة .

وعَلَىٰ هَذَا فَيَجب أَنْ يَكُون القُرْآن هُو المَادّة الْأَسَاسيَّة للمُؤلّف فِي بَحْثه الَّذي كَتَبهُ عَن إِبْلِيس . وَلاَ يَجُوز ـ فِي مَنْطق المَنْهَج العِلمي ـ إِعتمَاد مَصَادر أُخرىٰ غَير مَوثُوقَة لِهَذِه القِصّة ، كَمَا هُو الشَّأن فِي كُلّ بَحْث يَتنَاول أَيّة مَسأَلَة مِـن مَسَـائِل المَعْرفَة .

وَإِذَن ، فَللّبَحث فِي قِصّة إِبْلِيس صِلَة بعِلْم التَّفْسِير ، وَعِلْم الفِقْه ، وَعِلْم أُصُول الفِقْه : صِلَته بعِلْم التَّفْسِير مِن حَيْث أَنَّهُ يَتنَاول نَصّاً قُرآنيَّاً ، وَصلَتة بعِلْم الفِقْه مِـن حَيْث أَنَّهُ يَتنَاول ـ فِي النَّص القُرْآني ـ تَكلِيفَاً شَرعيَّاً بالسُّجُود ، تَعَلَّق بـمَخلُوق مُعَيَّن هُو إِبْلِيس ، وَصِلَته بِعِلْم أُصُول الفِقْه مِن حَيْث أَنَّهُ (بَحْث المُؤَلّف) يَـحتَاج إِلَىٰ مَعْرِفَة بالمُصْطلحَات الخَاصّة بعِلْم الفِقْه وَالْأَدلّة الشَّرعيَّة ليُستَطَاع التَّـوصل إِلَىٰ فَهمٍ صَحِيح للنَّص .

وَمِن الوَاضح أَنَّ عَلَىٰ مَن يَتنَاول بَحثَاً يَتّصل بعِلْم مِن العُـلُوم أَو بـجُملَة مِـن العُلُوم أَنْ يَكُون عَلَىٰ مَعْرِفَة وَافيَة بالمُصْطَلحَات الَّتي تَستَخدمهَا هَذِهِ العُلُوم فِي

بَيَان مَسَائلهَا ، وَحَل مُشكلاَتهَا .

ومِن المُؤسّف أَنَّ المُؤَلّف غَير خَبِير بالمُصْطلحَات الخَاصّة بمَوضُوع بَحْثَه ، وهَذَا مَا أَدّىٰ بهِ إِلَىٰ الخَطَأ فِي فَهْمَه لقِصّة إِبْلِيس وَمُحتوَاهَا الدِّينيّ .

* * *

يَقُول المُؤَلّف فِي صَفحَة (٨٣) : « أَنَّهُ يَدْرُس قِصّة إِبْلِيس فِي إِطَار التَّفكِير المثيُولِوجي ـ الدِّينيّ النَّاتج عَن خَيَال الْإِنْسَان الْأُسطُوري وَمَلكَاته الخُرَافيَّة » .

وَمِن حَقّ المُؤَلّف أَنْ يَعْتَبر قِصّة إِبْلِيس مِن المثيُولوجيَا بَعْد أَنْ كَان لاَ يُؤمِن بالله . وَلَكن لَيْسَ مِن حَقّ المُؤَلّف أَنْ يَصْدر أَحْكَامَاً نهَائيَّة فِي مَدلُولاَت القِصّة وَهُو غَير خَبِير بالمُصْطلحَات الْأُصُوليَّة الفِقهيَّة الَّتي وَضَعهَا الفُقهَاء وَالْأُصُوليُون للتَّميِّيز بَيْنَ أَنوَاع الحُكم الشَّرعي والْأَمر الْإِلٰهي .

وَلَيْسَ مِن حَقّه أَنْ يُحَوّر القِصّة وَيُمطّطهَا ليَجْعَل مِنْهَا نَمُوذجَاً للْأُسطُورَة « العَربيَّة » ، وَليَكسِب لنَفْسهِ بطُولَة لاَ يَستَحقها فِي أَنَّهُ كَشَف الجَانب المَأسَاوي مِن قِصّة إِبْلِيس ـ بَيْنَما الحَقِيقَة أَنَّهُ لَم يَكْتَشف شَيئَاً عَلَىٰ الْإِطْلاَق ، وَإِنَّما أَلصَق مَفهُوم الْأُسطُورَة بحَادثَة لاَ عِلاَقَة لَهَا بالْأُسطُورَة وَالمَنْطق الْأُسطُوري عَلَىٰ الْإِطْلاَق .

وعَلَينَا أَنْ نُقَدّم بَعْض المُلاَحظَات لنَكشف مَدىٰ الخَطَأ الَّذي وَقع فِيهِ المُؤَلّف مِن جِهَة ، ولنَتوصَل إِلَىٰ الفَهْم الصَّحِيح لقِصّة إِبْلِيس مِن جِهَة أُخرىٰ .

مَصَادِر المُؤَلّف :

بالْإِضَافَة إِلَىٰ النُّصُوص القُرْآنيَّة ، آستعَان المُؤَلّف فِي تَكوَين آرَائه الخَاصّة

عَن قِصّة إبْلِيس الإِسْلاَميَّة بـ: الحَلاَّج فِي كِتَاب الطَّواسِين « طَاسِين الأَزَل ـ الأَوّل ـ وَالإِلتبَاس »[١]، والمَقدسي فِي كِتَاب « تَفْلِيس إبْلِيس »[٢]، وَأبي حَيَّان التَّوحِيدي، وبالأَحَادِيث المُسمَّاة « الأَحَادِيث القُدسيَّة » وَاعتمَاده فِي هَذَا المَصْدر عَلَىٰ كِتَاب: « الإِتحَافَات السَّنيَة فِي الأَحَادِيث القُدسيَّة ».

هَذِهِ هِي المَصَادر الأَسَاسيَّة الَّتي اسْتَند إِلَيهَا المُؤَلّف فِي تَكوِين آرَائه الخَاصّة عَن قِصّة إبْلِيس الإِسْلاَميَّة، وَأَهمهَا عِنْدَه كِتَاب الطّواسِين، وَتَفلِيس إبْلِيس، وَيُمكن أَنْ نَضع القُرْآن ـ المَصْدر الأَسَاسي الرَّئيسي ـ فِي مُؤخرَة مصَادر المُؤَلّف لأَنّه لَم يُعط نصُوصه الإِهتمَام نَفْسَه الَّذي أَعطَاه للحَلاَّج وَالمَقدّسي.

وَثَمَّة مَصَادر أُخرىٰ: ابن الجَوزي فِي كتَابهِ « تَلبِيس إبْلِيس »، وَالعقَّاد فِي كتَابهِ « إبْلِيس »، وَالطَّبري فِي تَفْسِيره، وهِي ـ عِنْدَ المُؤَلّف كَمَا يَظْهَر مِن بَحْثه ـ مَصَادر ثَانويَّة لاَ قِيمَة لَهَا فِي تَكوِين آرَاء المُؤَلّف وَاستنتَاجَاته الأَسَاسيَّة، وَتَحلِيلَه لقِصّة إبْلِيس الإِسْلاَميَّة.

وَالمَصَادر الأَسَاسيَّة للمُؤلّف ـ بِاسْتثنَاء القُرْآن ـ لاَ يُمكن أَنْ نوَافق عَلَىٰ اعتبَارها مرَاجع يَجُوز الإِعتمَاد عَلَيهَا فِي فَهْم النَّص القُرْآني الَّذي هُو المَصْدَر الأَسَاسي الوَحِيد لقصّة إبْلِيس الإِسْلاَميَّة.

فَإِنَّ النُّصُوص الصُّوفيَّة وَغَيرهَا مِمَّا اعْتَمد عَلَيهِ المُؤَلّف لاَ تُعَبّر عَن النَّظرة الإِسْلاَميَّة الصَّافية البَسِيطَة، فَهي:

«أَوَّلاً»: تَقع فِي خَطَأ عَدَم التَّميِّيز بَيْنَ الأَمر التَّشرِيعي والأَمر التَّكْوِيني «كَمَا

---

(١) أُنظر، الفَهرست لِابن النَّدِيم: ٢٤٢، سِير أَعلاَم النُّبلاَء: ١٤/٣٥٣، هَديّة العَارفِين: ١/٣٠٥.

(٢) أُنظر، الأَعلاَم: ٣/٣٥٥، كَشف الظّنُون: ١/٤٦٣.

سَنُبَينهُ فِي الفِقْرَة الثَّالِثَة» .

«وَثَانِيَاً» : أَنَّها تُعَبّر عَن أَفكَار وَتَصورَات مُتَأثرَة بعَقَائِد غَريبَة عَن الْإِسْلاَم مُسْتَمدّة مِن الْإِفلاَطونيَّة الحَدِيثَة وَغَيرهَا . وعَلَىٰ أَي حَال فَهي ذَات مَنَابع غَير إِسْلاَميَّة .

وَأَمَّا الْأَحَادِيث المُسَمّاة «الْأَحَادِيث القُدسيَّة» فَأَغلَبها غَير إِسلاَمي ، وَإِنَّمَا تَسرب إِلَىٰ التُّرَاث الْإِسْلاَميّ مِن مَصَادر هِنديَّة ، وَفَارسيَّة ، وَيُونَانيَّة ، وَإِسْرَائِيليَّة وَنَصرَانيَّة ، وَلِذَا فَلاَ يُمكن اعتبَارهَا مُعبّرة عَن وجْهَة النَّظر الْإِسْلاَميَّة الصَّافيَة .

إِنَّ الَّذي يُعَبّر عَن النَّظرة الْإِسْلاَميَّة ـ بَعْد القُرْآن ـ هُو السُّنَّة النَّبوّيَة الصَّحِيحَة الَّتي تُثَبّت للدِّرَاسَة النَّقديَّة فِيمَا يَتَعلق بالسَّند وَالمَتن ، وَالشّكل وَالمَضمُون ، أَي لمَا نَصْطَلح عَلَيهِ بالنَّقد الخَارجي وَالنَّقد الدَّاخلي .

وَالعَجِيب مِن المُؤَلّف ، وَهُو يَدّعي فِي أَكْثَر مِن مَوضع مِن كتَابه تَقدِيس العِلم ، وَيَشحن كتَابه بالعبَارَات الَّتي يَنعىٰ فِيْهَا عَلَىٰ مُخَالفِيه فِي الرَّأي أَنَّهُم لاَ يَتّبعُون «المَنْهَج العِلمي» فِي كَلاَمهِم ـ مِن العَجِيب أَنَّهُ هُو بالِذَات يَتْرُك أَبسَط مُقتَضَيَات المَنْهَج ، وَهُو التَّأكد مِن المَصَادر الَّتي يَعْتَمد عَلَيهَا .

مَثَلاً : مِن الصَّحِيح أَنْ نَعْتَبر كِتَاب الطّواسِين مُعَبّراً عَن وجْهَة نَظَر الحَلاَّج بالِذَات فِي قِصّة إِبْلِيس ، وذَلِكَ فِيمَا إِذَا أَرَدنَا أَنْ نَكْتُب عَن شَخصيَّة الحَلاَّج وَآرَائه ، وَأَمَّا أَنْ نَعْتَبر آرَاء الحَلاّج هِي آرَاء الْإِسْلاَم ، وَفَهم الحَلاَّج هُو وجْهَة النَّظر الْإِسْلاَميَّة ، فَهَذَا خَطَأ كَبِير يُدركهُ حَتَّىٰ الطُّلاَب الَّذِين يَحضرُون أُطرُوحَة اللِّيسَانس حِينَ يَرشدهُم أُستَاذهُم المُشرف إِلَىٰ نَوعيَّة المَصَادر الَّتي تَصلح أَنْ تَكُون مَادّة للدِّرَاسَة المَنوي إِنجَازها .

الحُرِّيَّة الدَّاخليَّة :

إِنَّ البَحْث الَّذي أَرَادَه المُؤَلِّف حَول قِصّة إِبْلِيس يَبْتَني عَلَىٰ نَظَرِيَّة الجَبْر ، وهِي فِكرَة بَاطلَة ، وَغَير إِسلاَميَّة .

فِي الْإِسْلاَم : المَخْلُوق العَاقل حُرّ ، وَهُو الَّذي يُقَرّر بحُرِّيّته وَإِخْتيَاره التَّام مَوقِفه مِن الْأَشيَاء وَالأَحدَاث . وإِرَادَة الله تَأتي فِي مَرْحَلَة مُتأَخّرَة عَن إِختيَار العَبد .

إِنَّ الفِعل الْإِنْسَاني يَتم إِنجَازه نَتِيجَة لِإِختيَار المَخْلُوق وَحُرِّيّته الدَّاخليَّة مُضَافاً إِلَيهَا ـ فِي مَرْحَلَة تَاليَة إِرَادَة الله ، وذَلِكَ وِفقاً للمُعَادلَة التَاليَة :

إِرَادَة الْإِنْسَان + إِرَادَة الله = الفِعْل .

فالعفل مَخْلُوق لاإِرَادَة الله ، وَلَكن لَيْسَ ابتداءً ، وَإِنَّما بَعْد أَنْ يُريده الْإِنْسَان وَيُقَرّره بتَمام حُرِّيّته ، فهُو ـ الفِعْل ـ نَتِيجَة لعَامل الحُرِّيَّة ، يَتلُوه تَدخل الْإِرَادَة الْإِلٰهيَّة فِي خَلق المَوْقف الَّذي يُقَرّر الْإِنْسَان اتّخَاذه .

هَذَا تبَسِيط لنَظَرِيَّة أَهْل البَيْت عليهم السلام فِي مَسأَلة حُرِّيَّة الْإِنْسَان وَعلاَقَتها بالْإِرَادَة الْإِلٰهية ، وذَلِكَ فِي النَّص الوَارد عَنهُم : « لاَ جَبْر ولاَ تَفوِيض بَل أَمْر بَيْنَ الأَمرين »[(١)] ، فالمَخلُوق لَيْسَ مُجبرَاً ، لأَنّنا بوجدَاننا نُدرك مَا نَتمتّع بِهِ مِن حُرِّيَّة دَاخليَّة مُطلقَة ، والمَخْلُوق لَيْسَ مُفوضّاً لاَ دَخَل لِإِرادَة الله فِي خَلق أَفعالَه ، وفِي

---

(١) أُنظر ، الكَافِي : ١/١٦٠ ح ١٣ ، الإِعتقَادَات : ٢٩ ، الإِحْتِجَاج : ٢/١٩٨ و ٢٥٣ ، فِقه الرِّضا : ٣٤٨ ، الوَافي : ١/٥٣٥ ، تُحف العُقُول : ٣٤٤ و ٣٤٦ ، الهِدَايَة لِلشَّيخ الصَّدوق : ١٩ ، رَسَائل المُرتضىٰ : ١/١٣٥ ، عُيُون أَخْبَار الرِّضا : ٢/١١٤ ح ١٧ ، رَوضة الوَاعظِين : ٣٨ ، مُختَصر بصَائِر الدَّرجَات : ١٢٨ ، تَصحِيح اعْتقَادَات الإِمَامِيَّة : ٤٦ ، كَنز العُمَّال : ١/٣٤٩ ح ١٥٦٧ ، تَأرِيخ آل زُرَارة : ١/١١٤ ، تَأرِيخ دِمَشق : ٥١/١٨٢ ، كَشف الغُمّة : ٣/١٠٢ .

تَسيِّير الكَون، بَل إِرَادَة الله حَاضرَة دَائِمَاً، وَلَكن فِي مَرْحَلَة لاَحِقَه عَلَىٰ قَرَار العَبد الَّذي يَتّخذه.

عَلَىٰ هَذَا الضَّوء[1]:

---

(١) الإِسْلاَم دِين التَّوحِيد، وَالتَّوحِيد هُو الأَسَاس الَّذي يَنْطَلق مِنْهُ المُسلم فِي بنَاء عَقِيدَته، وَبدِونه لاَ يَكُون مُسلِماً. وَلِذا كَان آبن بَابوِيه توَّاقاً إِلىٰ دَفع وَدَحض التُّهمَة القَائِلة بِأَنَّ أَحَاديث الإِمَامِيَّة مُتضَاربة مَع التَّوحِيد، وَلِذا يَقول فِي مُستَهل كتَاب التَّوحِيد «إِنَّ الَّذي دَعَاني إِلىٰ تَألِيف كتَابي هَذَا أَنّي وَجَدت قَوماً مِن المُخَالفِين يَنْسبُون عَصَابَتنا إِلىٰ القَول بِالتَّشبِيه، وَالجَبر لمَا وَجدُوا فِي كُتبِهِم مِن الأَخبَار الَّتي جَهلُوا تَفْسِيرها وَلَم يَعرفُوا مَعَانِيها وَوَضعُوها فِي غَير مَوضعهَا». ثُمَّ يُتَابع كَلاَمه فَيَقول: بِأَنَّ هَذِه الأَحَاديث يَجب أَنْ تُؤول وَتُفَسر بِنَفس التَّوجه السَّلِيم فِي تَأوِيل القَرَائن الوَارِدة حَول تَفْسِير الآيَات القُرآنِية.

أُنظر، الكَافِي: ١ / ١٦٠ ح ١٣، الإِعتقَادَات: ٢٩، الإِحْتِجَاج: ٢ / ١٩٨ و ٢٥٣، فِقْه الرِّضا: ٣٤٨، الوَافي: ١ / ٥٣٥، تُحف العُقُول: ٣٤٤ و ٣٤٦، الهِدَاية لِلشَّيخ الصَّدوق: ١٩، رَسَائل المُرتضىٰ: ١ / ١٣٥، عُيُون أَخْبَار الرِّضا: ٢ / ١١٤ ح ١٧، رَوضة الوَاعظِين: ٣٨، مُختَصر بصَائِر الدَّرجَات: ١٢٨، تَصحِيح آعْتقَادَات الإِمَامِيَّة: ٤٦، كَنز العُمَّال: ١ / ٣٤٩ ح ١٥٦٧، تَأرِيخ آل زُرَارة: ١ / ١١٤، تَأرِيخ دِمشق: ٥١ / ١٨٢، كَشف الغُمّة: ٣ / ١٠٢، كتَاب الهدَاية لِآبن بَابوِيه: ٥، مَجْمُوعة فِي فنُون مِن عِلم الكَلاَم (مَخْطُوط)، آنقَاذ البَشَر مِن الجَبر وَآلْقدر، إِلىٰ رَسَائِل الشَّرِيف مُرَاجعة أَحْمَد الحُسِيني: ١٠٦، بُلُوغ الأَرب وَكنُوز الذَّهب فِي مَعرِفة المَذْهَب: ٤٥٢، كتَاب التَّوحِيد للشَّيخ الصَّدوق: ١٧.

وَمَعْنَىٰ الجَبْر أَنَّ الإِنْسَان لاَ أَثَر لهُ إِطلاَقاً فِي أَفْعَاله، وإِنَّما هِي بِالنِّسبَة إِلَيْهِ تَمَامَاً كَجرَيَان الدَّم فِي عرُوقَه، وخُرُوج النَّفَس مِن أَنْفِهِ.

وَمَعْنَىٰ التَّفوِيض أَنَّ الله أَمَر العَبْد وَنَهَاه، وَأَعطَاه الْقُدْرَة عَلىٰ الطَّاعَة وَالمَعْصِيَة، ثُمَّ فَوض إِلَيْهِ أَمر هَذِه الْقُدْرَة يَفْعَل بِهَا مَا شَاء، وَقَطَع سُبْحَانَه كُلّ عِلاَقة بَيْنَه وبَيْنَ هَذا الْقُدْرَة بِحَيث أَصْبَح الله بِالنِّسبَة إِلىٰ قُدْرَة العَبْد بَعِيداً عَنْهَا تَمَامَاً كَالبَائِع الَّذي بَاع سِلعَته لِلمُشتري يَفْعَل بِهَا مَا يُرِيد بِلا مُزَاحِم وَمُعَارض.

ومَعْنَىٰ «أَمْرٌ بَيْنَ الجَبْر والتَّفوِيض» إِنَّ الله بَعْد أَنْ أَمْرَ العَبْد وَنَهَاه مَنحَهُ الْقُدْرَة وَلَم يَحْرمه إِيَّاها كمَا زَعَم ↔

ٱسْتنتَاج المُؤَلّف فِي الصَّفحَة: (١٠٥ ـ ١٠٦) وفِي غَير هَذَا المَوضع مِن كتَابهِ بأَنَّ العِبَاد مِن النَّاس وَٱلجِنّ والمَلاَئِكَة مُجْبَرُون مُسَيرُون، لاَ ٱختيَار لَهُم، وَلاَ يَتمعتُون بأَيّة حُرّيَّة ـ هَذَا الإستنتَاج خَطأ مَحض، وَيُعَبّر عَن وجْهَة نَظر غَير إسلاَميَّه إطلاَقاً. وَٱسْتشهَاد المُؤَلّف بآيَة: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾[1]. ٱسْتشهَاد مُضْحك، فالقَدر هُنَا لَيْسَ بالمَعنىٰ الَّذي فَهْمَه المُؤَلّف، وَتَعني الآيَة الكَرِيمَة أَنَّ الأَشيَاء (الكَون كُلّه) مَخْلُوق وفقاً لنظَام مُعَيَّن وَيَسِير نَحو غَايَة مُعَيَّنَة، وَلَيْسَ فُوضىٰ بلاَ هَدَف. وَلاَ تْعني الآيَة القَدر فِي مُصْطَلح بَعْض عُلمَاء الكَلاَم ـ أَي مُقَابل الحُرّيَّة.

وَقَد وَقَع المُؤَلّف فِي هَذَا الخَطَأ نَتِيجَة لعَدَم مَعْرفَته بالمُصطلحَات ـ كَمَا

↔ الجَبْرِيُون، وَلكنَّه تَعَالىٰ لَمْ يَعرض كُلِّية عَن هَذِه القُدْرَة وَيَقطَع العِلاَقة بَيْنَهُ وَبَيْنَها كمَا ٱدعىٰ المُفوضِيَة، بَل بَقِيت قُدْرَة العَبْد فِي قَبضَة خَالِقها وَتَحت سِلطَته يَنْزَعها مِن العَبد مَتىٰ شَاء، وَالعَبد لاَ يَسْتَطِيع أَنْ يَرفض هَذِه القُدْرَة، وَيَقول لله: لاَ أُرِيدهَا، وَأيضاً لاَ يَسْتَطِيع إبقَاءها إذَا أَرَاد سُبْحَانَه أَنْ يَنْزَعها مِنْهُ، وَبِهَذا الإعْتبَار يَكُون العَبد مُسَيَّراً لاَ مُخَيَّراً، وَأيضاً بِالْقُدْرَة الَّتي مَنحَها الله لهُ يَسْتَطِيع أَنْ يَفْعل وَيَترك وَيَكُون مِن هَذِه الجِهَة مُخَيَّراً لاَ مُسَيَّراً، ومَعْنَىٰ هَذا أَنَّ العَبد مُسَيَّر مِن جِهَة، وَمُخَيَّر مِن جِهَة، هَذا هُو مَعْنَىٰ بَيْنَ بَيْنَ، وَأَمْر بَيْنَ أَمْرَين.

وَلِلتَّوضِيح نُقَدم هَذا المِثَال: أَبٌ قَوّي مُسَيطر عَلىٰ وَلَده أَعْطَاه مَالاً، وَقَالَ لهُ: ٱتجْر بِهِ، فَأخذ الوَلد المَال لأَنَّه لاَ يَسْتَطِيع رَفْضَه بِحَال، وَأيضاً لاَ يَسْتَطِيع الاِحْتفَاظ بِهِ إذَا أَرَاد نَزْعَه مِنْهُ، وَلكنَّه قَادر عَلىٰ الاِتْجَار بِهِ وِفقاً لإِرَادة أَبِيه، وَأيضاً هُو قَادر أَنْ يُجَمد المَال وَلاَ يُتَاجر بِهِ، ومَعْنَىٰ هَذا أَنَّه مُسَيَّر فِي رَفْض المَال وإبقَائه، وَمُخَيَّر فِي التِّجَارة وَعَدمها. وَهَكذا القُدْرَة الَّتي مَنحهَا الله لِلإِنْسَان، أَنَّهَا فِي الإِنْسَان يَفْعل بِها وَيَترك، وَلكنَّها فِي الوَقت نَفْسه فِي قَبضَة الله أيضاً تَمَامَاً كَالمَال الَّذي أَعْطَاه الوَالد لوَلَده، وَمَن أَرَاد المَزِيد فَليَرجَع إلىٰ كتَاب «فَلْسَفَة التَّوحِيد وَالوِلاَيَة». أُنظر، فِي ظلاَل نَهْج البَلاَغَة شَرْح العَلاَّمَة الشَّيخ مُحَمَّد جوَاد مُغنيَّة: ١١٧/٦، بتَحقِّيقنَا. «بِتَصرّف».

(١) ٱلقَمَر: ٤٩.

سَتعرف فِي فَقرَة تَاليَة ـ ونَتيجَة لإعتمَاده عَلَىٰ مَصَادر لاَ تُعبّر عَن وجْـهَة النَّـظر القُرْآنيّة بصُورَة صَحِيحَة، كَمَا عَرفتَ فِي الفِقْرَة السَّابقَة[1].

---

(١) إنَّ مَسْأَلة الجَبْر وَالتَّفوِيض لَهي مِنْ أهم المَسَائِل النَّظريّة وَأقدَم المُعتَقدَات الَّتي وَقَعت مَحلاً لمَعركَة الآرَاء وَضَلّت لشِدَة غمُوضهَا العُقول، والأفكَار، وهِي مِنْ أهَم الأَسبَاب لتَشعُب المَذَاهِب وَتَعَدُد الفِرق، والمُوجب لتكفِير أُمَّة أُختهَا رَغم الرَّوَابط الدِّينيّة الَّتي تَربطهَا مِنْ جِهة أُخرىٰ، وَقَدْ مَلأَت جَانباً عَظِيماً مِنْ كُتُب التَّأْلِيف وَالتَّصنِيف، وَنَالَت حَظّاً وَافراً مِنْ البَحْث، وَالتّدرِيس وَالجَدل عِندَ الفَلاَسفَة، وَالسَّالِكِين مَسلكهُم قَبل الإِسْلاَم وَبَعدَه، فَمَن رَجع إِلَىٰ كُتُب الحِكْمَة والكَلاَم والأَخلاَق، وأُصُول الفِقْه يَجد الأَشْعَري المُعْتَنق لعَقِيدَة الجَبْر، وَالمُعْتزلي الَّذي يُدِين بالتَّفوِيض قَد أَتَىٰ بالكَثِير مِنْ المُقدّمَات الضَّروريّة وَالنَّظريّة الَّتي تَتَألف مِنْهَا البَرَاهِين القَطعيّة بَزَعم المُستَدل، والأَقيسَة العَقْليّة، والأَدلَة السَّمعيّة مِنْ الكِتَاب والسُّنَّة، ثُمَّ يَكر بَعد ذَلِكَ عَلَىٰ طَرِيقَة العُرف وَسِيرَة العُقلاَء فَيَضرب الأَمثَال مِنْ مُعَاملَة المَوَالي مَع عَبِيدهُم ويُؤولهَا حَسَب مَا يُوَافق مَطلُوبه، هَذَا، وَهُو يَحسب أَنَّهُ قَد أَحسَن صُنعاً بتَمحِيص الحَقّ وَالإِهتدَاء بنُوره، وَدَحض البَاطِل والخُرُوج مِنْ ظُلمَته، وَكَشف الأَسرَار الغَامضَة الدَّقِيقَة بِالطُّرق الصَّحِيحَة والأَدلَة الَّتي لَم يَهتَد إِلَيهَا أَهْل العُقول والأَنظَار.

والحَقِيقَة أَنَّ مَا أستَند إِلَيهِ كُلّ مِنْ الطَّائفتَين لَو تَوجّهت نَحوه العُقول وَأَعطَته حَقّ الإِمعَان، وَالتَّأمل لجَعلَتهُ هَبَاءً وَحكمَت عَلَيه أَنَّهُ تَطوِيل بِلاَ طَائِل، وأَنَّهُ أَدل دَلِيل عَلَىٰ أرْتبَاك المُستَدل وَخطَئه حَيْث عَدّ الشُّبهَة دَلِيلاً، وَالعَلِيل صَحِيحاً، وَجَزم أَنَّ الهَدَف الَّذي يَرمي إِلَيهِ والغَايَة الَّتي يُحَاول إِثبَاتهَا إِنْ هِي إِلاَّ صِحَة عَقِيدَته الَّتي غَرسَت بَذرهَا فِي نَفْسه يَد الورَاثَة، وَتَأصّلت جذُورهَا فِي أَعمَاق قَلْبه بِتكرَار النَّظر وَطُول المُمَارسَة لمَا سَطّر (الكِرَام) الكَاتبُون مِنْ أَسْلاَفه، وَزَينهَا لهُ أَسَاتذَته وَشيُوخه بِبركَة تَلقِينَهُم إِيَّاه، وَتَقلِيدَه إِيَّاهُم وَتَشعبَت فُرُوعهَا بمُعَاشرَة قَومه، وَإِلفَة صُحبَة الَّذِين يُقدسُون هَذِه العَقِيدَة، وَيَرونهَا أَصلاً مِنْ أُصُول دِينهُم الَّذي يُوجب عَلَيهِم رعَايَتها وَالتَّعبُد بهَا، وَيَتحتم عَلَىٰ كُلّ وَاحد مِنْهُم أَنْ يُصَحح عَقِيدَته بُكلّ طَرِيق وَلَو كَان فَاسداً فِي نَفْس الأَمْر والوَاقِع، وَيُبطل مَا يُنَافِيهَا وَلَو كَان حَقّاً، فَبَيْنَّمَا هُو يُورد الأَدِلَة وَيُكر عَلَىٰ حُجّة خَصمَه فَيُعَارضهَا بِالمِثل أَو يَطعَن فِي صُغرىٰ قِيَاسه أَو كُبرَاه يَسْتَشهد بالأَخبَار النَّبوِّيَة (الرَّاد عَلَىٰ أَهْل هَذِه الطَّرِيقَة كَالشَّاهر سَيفَه فِي سَبِيل الله، وأَهْلهَا مَجُوس هَذِه الأُمَّة)، إِلَىٰ غَير ذَلِكَ.

إِنَّ المَسْأَلَة عَقليَة ولَيْس للسَّمع أَقل مَسَاس فِيهَا، فَلاَ يَصح التَّمسك بظوَاهر الكِتَاب والسُّنَّة فِي مِثلهَا ⇔

⟷ إثباتاً أو نفياً، فإنّ المتعيّن أوّلاً النّظر إلىٰ حكم العقل وتشخيصه عمّا عداه علىٰ نحو لا يقع فيه الإشتباه والرّيب، ثمّ النّظر إلىٰ اللّفظ الثّابت عن الحكيم، فإن كان موافقاً بظاهره لحكم العقل كان مقرراً له، وإلاّ وجب تأويله بما يوافق العقل، كما هو المعروف من دين الإسلام وضروراته، ومن هنا تعرف محل الخطأ في قول القائلين أنّ الأحكام العقليّة ساقطة عن الإعتبار، إنّ المتعيّن حصر المدارك، والأدلة بالسّمع فقط مستدلين علىٰ ذلك بحكم العقل بصحة الجبر والتّفويض معاً، مع أنّ تنافيهما من البديهيّات، فمن حكمه بصحة الأمور المتضادة يستكشف سقوطه عن الإعتبار وعدم جواز الإعتماد عليه.

والحقّ أنّ أرباب هذه العقيدة هم السّاقطون عن الإعتبار لا العقل الّذي يكون الإنسان به إنساناً يمتاز عن سائر الحيوانات، فإنّ الحكم بعدم إجتماع المتنافيين اللّذين لا جامع بينهما، ولا وحدة تربطهما من المعلومات البديهيّة، والمرتكزات الفطريّة، وبعد أن كان الجبر والتّفويض متعاندين ذاتاً فكيف يمكن صدور الحكم من العقل بصحتهما معاً، وجزمه بتحقّق كلّ منهما، وهل هو إلاّ نظير القطع بالوجود العدم في محل واحد، وهذا أمر لا مرية فيه، وإنّما الكلام في أنّ الجبر والتّفويض، هل هما ضدّان لا ثالث لهما بمعنىٰ أنّ الواقع لا يخلو من أحدهما، فكما امتنع العقل عن الحكم بصحتهما كذلك لا يحكم ببطلان كلّ منهما، بل لا محيص عن الأخذ بأحدهما وطرح الآخر، إمّا الجبر وإمّا التّفويض نظير الحركة والسّكون، فإنّ ارتفاعهما عن الجسم محال كإجتماعهما، أو أنّ هناك واسطة في البين فلا مانع من قبل العقل بثبوت أمر ثالث، وإنّما المستحيل في نظره هو الحكم بصحة الجبر والتّفويض معاً لا ببطلانهما، كما هو الحال في السّواد والبياض، فإنّهما لا يشغلان معاً حيزاً واحداً في آنٍ واحد، ولكن لا بأس بإرتفاعهما وكون المحل مشغولاً بلون ثالث، وهذه النّاحية هي الّتي تهمنا أكثر من جهة تتعلق بهذا الموضوع.

فنقول: إنّ أئمّة الهدىٰ: قد كشفوا لنا عن وجه الحقّ واهتدينا بكلامهم إلىٰ الحقيقة الّتي يستصوبها العقل، وهو حاكم بفساد الجبر والتّفويض بالمعنىٰ الّذي نذكره لهاتين اللّفظتين، وصحة أمرٌ بين الأمرين.

أمّا الجبر الّذي ينفيه العقل فهو حمل العبد علىٰ الفعل والتّرك بالقسر والغلبة علىٰ وجه لا يكون للعبد قدرة التّخليص ولا قوّة الإمتناع، والتّحصن فإيجاد فعل العبد فيهم كإيجاد الثّمرة في الشّجرة، والجريان في الماء، ولازم هذا القول حذف لفظ الطّاعة والعصيان والمشيئة، وكلّ كلمة تشعر بالإختيار أو يتوقف معناها عليه من جميع اللّغات فإنّه لا طاعة بإكراه ولا مشيئة مع إلجاء، ومن ذهب ⟷

هَذَا المَذْهَب أَرَاد أَنْ يُثْبت لله تَعَالىٰ القُدرَة فَأَثبَت لهُ الظُّلم وَالسَّفه والكَذب ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾. آل عِمْرَان: ١٨٢.

وأَمَّا التَّفوِيض البَاطِل فَهُو أَنَّ الله تَعَالىٰ: (أَوجَد العِبَاد وَأَقدَرهُم وَلَيْس لله تَعَالىٰ فِي أَعمَالهم صُنع) وعَلَىٰ هَذَا المَسلَك يَنْبَغي أَنْ يَرضىٰ الله تَعَالىٰ بكُلّ مَا يَفْعَلهُ عَبدَهُ وَلاَ يُؤاخذَهُ بِشَيء مِمَّا يَفْعَل. وَقَدْ حَاول القَائِل بِهِ إِثبَات العَدْل لله فَعَزلهُ عَنْ سُلطَانه وَشَارَكه فِي خَلْقه ـ ﴿يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ﴾ ٱلمَائِدَة: ٦٤. ـ ورُبَّما يَكُون لصحَة هَذَا القَوْل وَجْه، وَهُو أَنَّ العِبَاد قَد إِجْتَمعَت بِأَسرهَا وَتَجمهَرَت وَاتَّفقَت يَداً وَاحدَة وَتَظاهَرت عَلَىٰ خَالقهَا وأَظْهَرت التَّمرد، وَالعصيَان وَطَلبُوا مِنْهُ الإِستقلاَل التَام فَفَوض إِلَيهِم الأَمْر وَأَجرَاهُم عَلَىٰ مَشِيئَتهُم بَعد أَنْ عَجز عَنْ تَطويعهُم.

وَإِذَا كَان العَقْل حَاكماً بفَسَاد هَذَا الإِفرَاط، وذَلِكَ التَّفرِيط تَعيَّن القَوْل الفَصْل وَهُو صحَة الأَمْر بَيْنَ الأَمْرَين، وَلاَ نَقْصد مِنْهُ أَنَّ فِعْل العَبد مُستَند إِلَىٰ قُدرَته وَقُدْرَة الله تَعَالىٰ، وَأَنَّهُما قَد تَعَاونَا مَعاً عَلَىٰ إِيجَاده، فَإِنَّ ذَلِكَ لَيْس بأَقل مَحذُوراً مِنْ القَوْل بالجَبْر، وهَل يُحسن العِقَاب مِنْ البَاري تَعَالىٰ عَلَىٰ مَعْصِيَة كَان هُو أَحد الفَاعلِين، وَأَقوىٰ الشَّريكَين، وَإِنَّما نَعْني بِالأَمر بَيْنَ الأَمْرَين أَنَّ الله تَعَالىٰ أَقدَر الخَلق عَلَىٰ أَعمَالهِم وَمَكّنهُم مِنْ أَفعَالهِم، فَهُم يَملكُون الإِستطَاعَة، لَكن هُو المُملّك، ثُمَّ أَمرهُم بِالخَير، وَنهَاهُم عَنْ الشَّر، وَوَعدهُم بالثَّوَاب عَلَىٰ الأَوَّل، وَالعِقَاب عَلَىٰ الثَّانِي، فَإِذَا فَعْل العَبد الخَير وَالطَّاعَة فَيَسند هَذَا الفِعْل إِلَىٰ الله تَعَالىٰ، لأَنَّ العَبد فَعَله بالقُدرَة الَّتي مَلَكهَا مِنْ خَالقهِ، ولأَنَّه قَد رَضي الله وَأَمره بِهِ، وَيُنسَب أَيْضاً إِلَىٰ العَبد لأَنَّه قَد اخْتَار الخَير مَع قُدرَته عَلَىٰ الشَّر. وأَمَّا إِذَا اخْتَار فِعْل الشَّر وأَتَىٰ بِهِ العَبد فإِنَّه وَإِنْ فَعَله بالقُدرَة مِنْ الله تَعَالىٰ إِلاَّ أَنَّهُ مَع ذَلِكَ لاَ يُنسَب الشَّر إِلَىٰ الله، بَل هُو مُستَند إِلَىٰ العَبد وَحدَه ولله الحُجّة عَلَيه، حَيْث أَنَّهُ لَم يَرض بفِعل الشَّر، بَل نَهَاه عَنْهُ، فَالخَير مِنْ الله تَعَالىٰ لرِضَاه بِهِ وَإِقْدَار العَبد عَلَيه، حَيْث أَقدَره عَلَىٰ الخَير ولله الحُجّة لَو فَعْل العَبد الشَّر، لعَدَم الرِّضىٰ.

وَإِنَّما إِعطَاء القُدرَة عَلَىٰ المَعْصِيَة والشَّر مَع عَدَم الرِّضىٰ بِهمَا حَذراً مِنْ الإِلجَاء، فإِنَّ المَعْصِيَة إِذَا لَم تَكُن مَقدُورَة للعَبد وكَانَت الطَّاعَة تَصدُر مِنْهُ رَغمَاً عَنْهُ لمَا اسْتَحق مَدحاً وَلاَ ثَوَابَاً، فَإِنَّ الفَضل يَظهَر بِالإِمتحَان، فَلاَ جَبر عَلَىٰ المَعْصِيَة لأَنَّ الله كمَا أَقدَرهُ عَلَيهَا فَقَد أَقدَرهُ عَلَىٰ الطَّاعَة، وَتَرك العصيَان، وَلاَ تَفوِيض لأَنَّه تَعَالىٰ لَم يَترك الأَمْر إِلَىٰ مَشِيئَة العَبد وَإِختِيَاره، حَيْث نَهَاه عَنْ الشَّر وَزَجرهُ عَنْهُ، هَذَا هُو المَقصُود مِنْ الأَمْر بَيْنَ الأَمْرَين الَّذِين عَابُوا الشِّيعَة بِهِ وآخذُوهُم عَلَيه، والَّذي يَدلُك عَلَىٰ صوَابه وأَنَّهُ

الأَمْر التَّكْوِيني وَالأَمْر التَّشرِيعي :

إِنَّ الأَمر الإِلٰهي يَنْقَسم إِلَىٰ قِسمَين : أَمْر تَكوِيني ، وَأَمر تَشْرِيعي .

الإِرَادَة التَّكْوِينيَّة = الأَمر التَّكْوِيني :

إِنَّ الأَمر التَّكْوِيني يَتَعلّق بالأَفعَال والأَشْيَاء المَنسُوبَة إِلَىٰ الله تَعَالىٰ بصُورَة مُبَاشرَة . هَذَا هُو المُعَبّر عَنْهُ فِي القُرْآن فِي جُملَة موَاضع : ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾[1] .

والإِرَادَة التَّكْوِينيَّة قَد تَتَعلّق بوجُود شَيء ، وَقَد تَتَعلّق بوجُود شَيء مَا (بِمَعْنَىٰ أَنَّهُ يُرَاد عَدَمه) وَقَد يَكُون شَيء لاَ تَتَعلّق بِهِ الإِرَادَة التَّكْوِينيَّة مِن حَيْث وجُوده وَلاَ مِن حَيْث عَدَمه .

وَنَستَطِيع أَنْ نَفْهَم هَذِهِ الحَقِيقَة إِذَا لاَحظنَا موَاقفنَا نَحْنُ مِن الأَشيَاء وَالأَحدَاث (وهَذَا مُجَرّد مِثَال لتَوضِيح الفِكْرة) فَثَّمة أَشْيَاء نُرِيدهَا ، فَنَسعىٰ فِي سَبِيل تَحقِّيقهَا وَإِيجَادهَا . وَثَمّة أَشْيَاء لاَ نُرِيدهَا (نُرِيد عَدَمها) فنُكَافح فِي سَبِيل ذَلِكَ ، وَنَسد

↔ هُو المُتَعيّن فِي نَظر العَقْل دُون سوَاه مُضَافاً إِلَىٰ مَا بَيّنَّاه أَنَّ الإِمَام الرَّازي ، وَهُو أَحد الأَقطَاب المُنتَصرِين لمَذهَب الجَبْر فإِنَّه رَغم ذِكره مَسْأَلة الجَبْر فِي تَفْسِيره مَا يقرب عَنْ عِشرِين مَرَّة ، وفِي كُلّ مِنْهَا يُقِيم الأَدلَة وَالبَرَاهِين عَلَىٰ صحَة الجَبْر وَبُطلاَن غَيرَه قَد اعْتَرف فِي أَحد المَقَامَات مِنْ حَيْث لاَ يَشْعر بفَسَاد الجبْر وَالتَّفوِيض ، وَصحَة الأَمْر بَيْنَ الأَمْرَين قَالَ فِي تَفْسِيره : (إِنَّ القَوْل بِأَنَّ العَبد لَيْس لهُ قُدرَة وَلاَ إِختيَار جَبْر مَحض ، وَالقَوْل بأَنَّ العَبد مُسْتَقل بِأَفعَاله قَدر مَحض ، وَهُما مَذمُومَان والعَدْل أَنْ يُقَال ، إِنَّ العَبد يَفْعَل الفِعْل وَلَكن بوَاسطَة قُدرَة وَدَاعيَة يخَلقهَا الله فِيهِ) . أُنظر ، الشِّيعَة فِي المِيْزَان مُحَمَّد جَوَاد مُغْنِيَّة : ٥٦١ ، بتَحقِّيقنَا ، تَفْسِير الفَخر الرَّازي : ٥ / ٣٥٥ .

(١) يس : ٨٢ .

عَلَيهَا جَمِيع منَافذ الوجُود بحَسَب مَا نَسْتَطِيع. وَالفَرق بَيْنَ إِرَادتنَا وإِرَادَة الله هُو أَنَّ إِرَادتنَا كَثِيراً مَا تَخْفق فِي تحقِّيق رَغْباتنَا، وإِرَادَة الله تَتحقَّق دَائِمَاً، وأَنَّ ثَمَّة رَغبَات يَستَحيل عَلَينَا تَحقِّيقها، وَلاَ يَستَحِيل عَلَىٰ إِرَادَة الله شَيء.

عَلَىٰ هَذَا الضَّوء:

آ ـ إِذَا أَرَاد الله وجُود شَي تَكوِيناً فَلاَبُدّ أَنْ يُوجد ذَلِكَ الشَّيء.

ب ـ إِذَا لَم يَرد الله وجُود شَيء تَكوِيناً (أَرَاد عَدَمه) فَلاَ يُمكن أَنْ يُوجد ذَلِكَ الشَّيء، لأَنّه يَكُون مُستَحِيلاً.

وهَذَان المَوردَان هُمَا مَجَال عَمَل الْإِرَادَة التَّكْوِينيَّة المُبَاشرَة الَّتي لاَ تَتَخلَّف عَن المُرَاد، وَيَبقىٰ مَورد ثَالث للْإِرَادَة التَّكْوِينيَّة تَعمَل فِيهِ بصُورَة غَير مُبَاشرَة، وَإِنَّما بتَبع إِرَادَة العَبد. وهَذَا المَورد يَتّضح لنَا عِنْدَ بَيَان الْأَمر التَّشرِيعي:

الْإِرَادَة التَّشرِيعيَّة = الْأَمر التَّشرِيعي:

إِنَّ الْأَمر التَّشرِيعي (أَو النَّهي التَّشرِيعي) هُما الْأَمر وَالنَّهي المُتعلقَان بأَفعَال العِبَاد (الْإِنْسَان والمَلاَئِكَة، الجِنّ، ومِنْهُم إِبْلِيس) وَفِعل العَبد (أَو تَركَه) مَنسُوب إِلَىٰ العَبد حَقِيقَة، فهُو الَّذي يَفْعل، وَهُو الَّذي يَتْرُك، وَيَتَمتع بالحُرّيَّة المُطْلَقَة فِي إِطَاعَة الْأَمر الْإِلٰهي وَالنّهي الْإِلٰهي وَعصيَانَهُما. وَلَكنَّ العَبد عَاجز عَن خَلق أَفعَالَه بنَفْسه، فهُو يُمَارس حُرّيّته بمَعُونة الْإِرَادَة الْإِلَهيَّة، فَإِذَا قَرّر العَبد مَوقفاً مُعيناً مِن شَيء (وَالعَبد يُمَارس حُرّيَّة مِطْلَقَة فِي ٱتّخَاذ قَرَاره بدُون تَدخل للْإِرَادة الْإِلٰهيَّة) حِينَئِذٍ ـ وبَعْد أَنْ يَتّخذ العَبد قرَاره يَأتِي دَور الْإِرَادَة الْإِلٰهيَّة فِي تَحقِّيق قَرَار العَبد بإِعَانَته عَلَىٰ جَعل قَرَاره النَّظري نَافذاً فِي الوَاقع. وبِهَذَا يتَأكّد مَبْدأ الحُرّيَّة، إِذْ

بدُون تَحقِّيق إِرَادَة العَبد تَبقىٰ حُرّيّته نَظَريَّة لاَ قِيمَة لَهَا.

وَقَد بَيّنَّا هَذِهِ الحَقِيقَة فِي مَطلع هَذَا البَحْث عِنْدَ حَدِيثنَا عَن الحُرّيَّة الدَّاخليَّة أَنَّ الله كَلَّف العِبَاد، وَأَمرهُم بالطَّاعَة، وَإِعطَاء الحُرّيَّة، وَجَعلهُم مَسؤولِين عَن كَيفيَّة مُمَارستهُم لحُرّيّتهم، فَإِذَا قَرّرُوا الطَّاعَة فَهُم أَحرَار فِي ٱتّخاذ هَذَا القَرَار، وَإِذَا قَرّروا المَعْصيَة فَهُم أَحرَار فِي ٱتّخاذ هَذَا القرَار، وَيَتحملُون مَسؤوليته، ولأَجْل أَنْ تَتَحقّق لَهُم حُرّيّتهم الكَامِلَة تَتَدخل الْإِرَادَة الإِلَهيَّة فِي تَنفِيذ قَرَارَاتهم الَّتي ٱتَّخذوهَا[1].

عَلَىٰ هَذَا الضَّوء نَصل إِلَىٰ النَّتَائج التَاليَة:

١ ـ الْإِرَادَة التَّكْوينيَّة (يُسَمّيهَا المُؤَلّف «المَشِيئَة») مَجَال عَملهَا عَالَم الأَشْيَاء.

٢ ـ الْإِرَادَة التَّشرِيعيَّة (الأَمر التَّشرِيعي) مَجَالَه أَفعَال العِبَاد، وَلاَ دَخل للْإِرَادَة التَّكْوينيَّة فِيهِ إِلاَّ بالنَّحو الَّذي بَيّنَّاه، وَهُو كَمَا قُلْنَا لاَ يَتعَارض مَع مَبْدَأ الحُرّيَّة، بَل يُؤكّد مَبْدَأ الحُرّيَّة، وَيَجعَله وَاقعاً عَمَليّاً مُعَاشَاً.

---

(١) قَالَ الإِمَام عَليّ عليه السلام فِي الخُطْبَة (١٦٠): (أَمْرُهُ قَضَاءٌ وَحِكْمَةٌ). الْمُرَاد بأَمْرِه تَعَالىٰ إِرَادَتهُ التَّشرِيعِية، وَالتَّكوِينِية، والأُولَىٰ أَمْرَه تَعَالىٰ وَنَهيه، والثَّانِيَة قَوْلَه للشّيء: كُن فَيَكُونُ، ومَعْنَىٰ قَضَاءُ التَّشرِيع إِبرَامه، ووجُوب طَاعَته، وتَنفِيذه بِلا ٱعترَاضٍ، أَو تَعدِيل، والْمُرَاد بِحِكْمتهِ سُبْحَانَهُ أَنّ العَبث يَسْتَحِيل فِي حقّهِ: ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَـٰذَا بَـٰطِلاً﴾. آلِ عِمْرَانَ: ١٩١. (وَرِضَاهُ أَمَانٌ وَرَحْمَةٌ). وَأَقرَب السُّبل إِلَىٰ الله رِضْوَانه رَحْمتَه، والأَمَان من غَضبهِ، وَعذَابه ـ العَمَل الصَّالح العَامّ، قَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّـٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾ فَاطِر: ١٠.... أَبَداً لَيست البُطُولاَت، وَلاَ الأِنْتصَارَات، وَلاَ العَبقرِيَات ـ بشَيء عِند الله إِلاّ إِذَا تَرك ٱلاِنْسَان شَيْئاً جَدِيداً، ومُفِيداً لأَخِيه ٱلإِنْسَان (يَقْضِي بِعِلْمٍ) أَي الشَّيء الَّذي يَقضِي بِهِ هُو حَقّ، وخَير، لأَنّه يَعلم حَقِيقتهُما، ومَوَاردهُما (وَيَعْفُو بِحِلْمٍ) وَلاَ يَخشىٰ مِن العوَاقِب إِذَا أَدّب، وَعذّب.

أُنظر عَلىٰ سَبِيل المِثَال: الكَافِي: ١/١٥١ ح ٤، أَجوَد التَّقرِيرات للسّيد الخُوئي: ١/٩٢، تَفسِير المِيزَان: ١٦/٣١٣، فَضل آل البَيْت للمَقْرِيزي: ٨٩.

٣ ـ لأَنَّ الله جَعل الْإِنْسَان حُرّاً، فَلاَ يُمكن أَنْ يَأمُره بشَيء تَشْرِيعَاً، ويُرِيد مِنْهُ خلاَفه تَكوِينَاً، بَل إِذَا أَمْرَه بشَيء تَشْرِيعَاً يَتْرُك لَهُ حُرّيَّة ٱتّخَاد قَرَارَه، وَيُنَفّذ لَهُ قرَارَه الَّذي ٱتّخَذهُ.

ومِن هُنَا يَتّضح مَدىٰ الخَطَأ الَّذي وَقع فِيهِ المُؤَلّف حِينَ قَالَ فِي صَفحَة (٨٩):

«... لَقَد شَاء الله وجُود أَشْيَاء كَثِيرَة غَيرَ أَنَّهُ أَمَر عِبَادَه بالْإِبتعَاد عَنْهَا، كَمَا أَنَّهُ أَمَرهُم بأَشيَاء ولَكنّهُ أَرَادهُم أَنَّ يُحَقّقوا أَشْيَاء أُخرىٰ».

* * *

عَلَىٰ ضَوء هَذِهِ المُلاَحظَات نَشْرح بإِيجَاز قِصّة إِبْلِيس مِن وجْهَة النَّظر الْإِسْلاَميَّة مُستَهدِين فِي ذَلِكَ بالنَّص القُرْآني، وبَعْد ذَلِكَ نُوضّح أَخطَاء المُؤَلّف فِي آرَائه وَأَحكَامه الَّتي أَطلقهَا فِيمَا يَتَعلق بقصّة إِبْلِيس:

قِصَّة إِبْلِيس القُرْآنِيَّة

كَان إِبْلِيس مَع المَلاَئِكَة : ولَكنّهُ لَمْ يَكُن مِن نَوع المَلاَئِكَة ـ بَل كَان مِن ٱلجِنّ .

قَالَ الله تَعَالىٰ :

﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِأَدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ﴾[1] .

وَعَلَىٰ ذَلِكَ فَهو يَتَكوّن مِن عُنْصر نَاري هُو العُنصر الَّذي يَتَكوّن مِنْهُ ٱلجِنّ . قَالَ تَعَالىٰ :

﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِن صَلْصَـٰلٍ كَالْفَخَّارِ وَخَلَقَ ٱلْجَآنَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ﴾[2] .

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن صَلْصَـٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ وَٱلْجَآنَّ خَلَقْنَـٰهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ﴾[3] .

وَيَبدُو مِن التَّأمل فِي مَجْمُوع مَا وَرَد فِي شَأن إِبْلِيس مِن آيَات القُرْآن أَنَّهُ كَان مُقَرّبَاً إِلَىٰ الله كَالمَلاَئِكَة ، وَلَم يَمْنَعهُ كَونه مِن عُنْصر نَاري غَير مَلاَئِكي أَنْ يَصْل عَن طَرِيق الطَّاعَة لله إِلَىٰ أَعْلَىٰ مَرَاتب القُرب وَالقَدَاسَة .

---

(١) ٱلكَهْف : ٥٠ .

(٢) ٱلرَّحْمَـٰن : ١٤ ـ ١٥ .

(٣) ٱلْحِجْر : ٢٦ ـ ٢٧ .

وَلَقَد كَان مِن المُمكن أَنْ يَسْتَمر الْأَمر عَلَىٰ هَذِهِ الصُّورَة إِلَىٰ النِّهايَة. إِلاَّ أَنَّ خَلَق الْإِنْسَان أَدخَل عُنصرَاً جَدَيداً، فَقَد وَضع المَلاَئِكَة، وإِبْلِيس مَعَهُم، فِي تَجربَة مِن تَجَارب الطَّاعَة جَدِيدَة عَلَيهِم: لَقَد أُمروا جَمِيعَاً بالسُّجُود لآدَم.

قَالَ تَعَالىٰ:

﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ إِنِّى خَـٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَـٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَـٰجِدِينَ﴾[١].

﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ إِنِّى خَـٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَـٰجِدِينَ﴾[٢].

وَقَد أَطَاع المَلاَئِكَة هَذَا الْأَمر الْإِلٰهي فَسجدُوا، وَلَكن إِبْلِيس رَفَض السُّجُود:

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَـٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَـٰكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِأَدَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ ٱلسَّـٰجِدِينَ﴾[٣].

﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِأَدَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَـٰفِرِينَ﴾[٤].

وفِي بَعْضٍ آخر مِن الْآيَات يَقُول الله عَلَىٰ لسَان إِبْلِيس:

﴿قَالَ يَـٰٓإِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ ٱلسَّـٰجِدِينَ قَالَ لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُۥ

---

(١) ٱلْحِجْر: ٢٨ ـ ٢٩.

(٢) ص: ٧١ ـ ٧٢.

(٣) ٱلْأَعْرَاف: ١١.

(٤) ٱلْبَقَرَة: ٣٤.

مِن صَلْصَـٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾[(١)].

﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ قَالَ ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا﴾[(٢)].

وفِي بَعْضٍ ثَالِث مِن الآيَات تَبْرز «الأَنَا» عِنْدَ إبْليس فِي مُقَابل الذَّات الإِلٰهيَّة:

﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ﴾[(٣)].

﴿فَسَجَدَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ إِلَّآ إِبْلِيسَ ٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَـٰفِرِينَ قَالَ يَـٰٓإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْعَالِينَ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ﴾[(٤)].

مَوقِفَان:

وَإِذَن، فَثَمَّة مَوقفَان لإِبْليس نَتجَا عَن هَذِهِ التَّجربَة، وَكلاَهُما سَلبيَّان:

أَحَدهُما: مَوقِفَه مِن آدَم، وَهُو مَوقِف إِحتقَار؛ لأَنّه لاَحَظ أَنَّ آدَم ـ فِي نَظرِهِ مِن عُنْصر مُنْحَط مِن: «طِينٍ، صَلْصَـٰلٍ، مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ».

وَثَانِيهُما: مَوقِفَة مِن الله تَعَالىٰ، وَهُو مَوقِف التَّكبُر، فَقَد رَفض إِمْـتثَال الأَمـر

---

(١) ٱلْحِجْر: ٣٢ـ٣٣.

(٢) ٱلْإِسْرَاء: ٦١.

(٣) ٱلْأَعْرَاف: ١٢.

(٤) صٓ: ٧٣ـ٧٦.

الإِلٰهي تَكَبراً مِنْهُ: ﴿لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ...أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ﴾[١].

---

(١) قَالَ الإِمَام عَليّ عليه السلام فِي نَهج البَلاَغَة: الخُطْبَة (١): (وَاسْتَأْدَى اللهُ سُبْحَانَهُ الْمَلائِكَةَ وَدِيعَتَهُ لَدَيْهِمْ، وَعَهْدَ وَصِيَّتِهِ إِلَيْهِمْ، فِي الإِذْعَانِ بِالسُّجُودِ لَهُ، وَالْخُنُوعِ لِتَكْرِمَتِهِ. فَقَالَ سُبْحَانَهُ ﴿اسْجُدُواْ لِآدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ﴾ ٱلْبَقَرَة: ٣٤. اعْتَرَتْهُ الْحَمِيَّةُ، وَغَلَبَتْ عَلَيْهِ الشِّقْوَةُ، وَتَعَزَّزَ بِخِلْقَةِ النَّارِ، وَاسْتَوْهَنَ خَلْقَ الصَّلْصَالِ، فَأَعْطَاهُ اللهُ النَّظِرَةَ اسْتِحْقَاقاً لِلسُّخْطَةِ، وَاسْتِتْمَاماً لِلْبَلِيَّةِ، وَإِنْجَازاً لِلْعِدَةِ، فَقَالَ: ﴿قَالَ إِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ﴾. ٱلْحِجْر: ٣٧ ـ ٣٨.

ثُمَّ أَسْكَنَ سُبْحَانَهُ آدَمَ دَاراً أَرْغَدَ فِيهَا عَيْشَهُ، وَآمَنَ فِيهَا مَحَلَّتَهُ، وَحَذَّرَهُ إِبْلِيسَ، وَعَدَاوَتَهُ، فَاغْتَرَّهُ عَدُوُّهُ نَفَاسَةً عَلَيْهِ بِدَارِ الْمُقَامِ، وَمُرَافَقَةِ الأَبْرَارِ، فَبَاعَ الْيَقِينَ بِشَكِّهِ، وَالْعَزِيمَةَ بِوَهْنِهِ، وَاسْتَبْدَلَ بِالْجَذَلِ وَجَلًا، وَبِالاغْتِرَارِ نَدَماً. ثُمَّ بَسَطَ اللهُ سُبْحَانَهُ لَهُ فِي تَوْبَتِهِ، وَلَقَّاهُ كَلِمَةَ رَحْمَتِهِ، وَوَعَدَهُ الْمَرَدَّ إِلَىٰ جَنَّتِهِ، وَأَهْبَطَهُ إِلَىٰ دَارِ الْبَلِيَّةِ، وَتَنَاسُلِ الذُّرِّيَّةِ).

أَبَداً مَا صَدرت أيّة بَادرَة مِن آدَمَ فِي حَقّ إِبْلِيسَ... كَيْفَ وَقَد كَانَ آدَمَ فِي عَالَم الْغَيْب حِينَ أَضْمَر لهُ إِبْلِيسَ العدَاوة، وَالبَغضَاء؟. بيّت لهُ السُّوء، لاَ لِشيء إلّا لأنّه عَلِمَ، وأيقن بِأنّ الله سَيُفَضله عَلَيْهِ، وَجَاءه هَذَا العِلم مِن قَوْله تَعَالَىٰ: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُواْ لَهُۥ سَٰجِدِينَ﴾. سُورَةُ صٓ: ٧١ ـ ٧٢.

(وَ تَعَزَّزَ بِخِلْقَةِ النَّارِ، وَ اسْتَوْهَنَ خَلْقَ الصَّلْصَالِ). يُشِير إِلَىٰ قَول إِبْلِيسَ: ﴿أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ ـ أَي مِن آدَمَ ـ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ﴾. ٱلْأَعْرَافِ: ١٢. وَمُنذ القَدِيم ٱكتَشف ٱلإِنْسَان أنّ فِي ٱلنَّار أَحيَاء تتَكيف بِطَبعها مَع ٱلنَّار.

قَالَ الْمجْلِسي: «قَالَ بَعْضهم: أنّ كُرة ٱلنَّار تَكُون مَملُوءة مِن الرّوحَانيات» أُنظر، بحَار الأَنْوَار: ٦٠/ ٣٣٠. تمَاماً كَقَطرة الْمَاء، وَقَالَ الجُدد مِن أَهْل الإخْتِصَاص: أَنّ نَوعاً مِن الأَحيَاء يَعِيش فِي ٱلْهَوَاء السّام، وآبَار البترُول.

(فَأَعْطَاهُ اللهُ النَّظِرَةَ اسْتِحْقَاقاً لِلسُّخْطَةِ). طَلَب إِبْلِيسَ مِن الله أَنْ يُمهله، وَيَبْقه حَيّاً مَا دَام عَلَىٰ وَجه ٱلأَرْض إِنْسَان، ليتَوَلّى غوَايَة البَشر أبنَاء آدَمَ، وعَدوّه الأَكْبَر، طَلَب الإِمدَاد لهُ، وَهُو يَعلم أَنّ ذَلِكَ يَعود عَلَيْهِ بالشَّرّ، والوَبَال، وَمَع هَذَا أَصرّ، وآثرَ أَنْ يَتَحمل كُلّ شَيء مِن أَجل التّنكِيل بِآدم وَذُريته، والإنتقَام مِنْهُم.. فَاخْتَار الله تَعَالَىٰ لإِبْلِيس مَا ٱخْتَار هُو لنَفْسِه، وَٱستَحق غَضب الله، وَعَذَابه بسُوء مَا ٱخْتَار: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا
↔

الحُرِيّة وَشُبْهَة الإغْوَاء:

وَهَذَان المَوقِفَان قَد اتَّخذهُما إبْلِيس بحُرّيّته، وَلَم تَتدَخل الإرَادَة الإلَهيَّة التَّكوينيَّة فِي حَمله عَلَىٰ اتّخَاذ مَوقِف اتّخذَه.

يَدُلنَا عَلَىٰ ذَلِكَ ـ مُضَافاً إلَىٰ المَبْدَأ العَالَم الَّذي قَدمنَاه فِي مَطلَع هَذَا الحَدِيث ـ يَدلنَا عَلَىٰ ذَلِكَ أَيْضاً أَنَّ إبْلِيس عَللَّ مَوقِفه السَّلبي مِن السُّجُود بأَنَّه خَير مِن آدَم، فهُو لأَنّه خَير مِن آدَم ـ فِي زَعْمه ـ يَكُن عَاطِفَة الإحتقَار لَهُ، مِن هُنَا تَكبَّر عَلَىٰ الله إمتثَال أَمْرَه القَاضي بالسُّجُود لآدَم.

قَد يُقَال هُنَا إستنَاداً إلَىٰ النَّص القُرْآني: أَنَّ إبْلِيس كَان مُسَيّراً فِي مَوقِفه، وأَنَّهُ لَم يَتّخذ قرَار الرَّفض بحُرّيَّة. وَالنَّص القُرْآني هُو قَوْلَه تَعَالَىٰ:

﴿قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾[1].

مَّدْحُورًا﴾. ٱلإسْرَاء: ١٨.

وَقَالَ الإمَام ﷺ: «مَا أبتلي أَحَدُ بِمِثْلِ الإمْلاَء لهُ». أُنظر، شَرْح نَهْج ٱلبَلاَغَة لمحَمَّد عَبْدَه: ٢٧/٤ ٱلحِكْمَة (١١٦).

(وَ ٱسْتِتْمَاماً لِلْبَلِيَّةِ). أي أنَه تَعَالَىٰ أَمهَل إبْلِيسَ لِيَبتَلي بِهِ عِبَادِه، وَتَظهر سرَائِرهُم بِأفعَالهم الَّتي يَسْتَحقُون بِها الثَّوَاب، والعقَاب (وَ إنْجَازاً لِلْعِدَةِ). أي الْوَعْد، واختَلف الشّارحُون فِي تَفْسِير هَذَا الْوَعْد، فمَن قَائِل؛ أَنَه الوَعْد بِالإمْهَال. وهَذَا اشتبَاه، لأنّ الله سُبْحَانَهُ مَا وَعده بشيء قَبل قَوْله: ﴿قَالَ إنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ﴾. ٱلأَعْرَافِ: ١٥. وَقَائِل آخر: أَنَه جَزَاء، وَمُكَافأة لإبْلِيس عَلَىٰ عِبَادَته السّابقة... وَهَذَا حَدس لاَ مُستَنَد... والَّذي نَفْهَمه مِن سِيَاق الكَلاَم، وقَوْله: «ٱسْتِتْمَاماً لِلْبَلِيَّةِ». أنَّ الْمُرَاد بِالْوَعْد هُنا مَا سَبق فِي تَقدِيره تَعَالَىٰ أنْ يَبتلي الْعِبَاد بالْفِتْنَة، لِيَعلم أيّهم أَحْسَن عَملاً. والشَّيْطَان فِتْنَة مَا فِي ذَلِكَ رَيب، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَفِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ﴾. ٱلْحَجّ: ٥٣. أُنظر، فِي ظِلاَل نَهْج البَلاَغَة شَرْح العَلاَّمَة الشَّيخ مُحمَّد جوَاد مُغنيَّة: ١١٩/١، بتَحقِّيقنَا. «بِتَصرّف».

(١) ٱلحِجْر: ٣٩.

وقَوْلَه تَعَالىٰ :

﴿قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾[١] .

إِنَّ هَذَا الوَهم نَاشيء مِن تَصور أَنَّ المُرَاد الغوَايَة بـعُصيَان الْأَمـر بـالسُّجُود ، فَيكُون ٱمتنَاع إِبْلِيس مِن السُّجُود مُستنداً إِلَىٰ إِغوَاء الله لَهُ . وَلَكن هَذَا الخَطَأ ، فَإِنَّ المَعنيّ فِي الْآيَتَين بـ« أَغْوَيْتَنِي » لَيْسَ الْإِمْتنَاع عَن طَاعَة الْأَمـر بـالسُّجُود كَـمَا تَوهَمّ المُؤَلّف فِي صَفْحَة « ١٠٧ » وَغَيرهَا إِذْ لاَ تُوجد عِلاَقَة سَببيَّة بَيْنَ مَـعصيَة مَخْلُوق وَمَعصيَة مَخْلُوق آخر ، فَلاَ عِلاَقَة سَببيَّة بَيْنَ رَفض إِبْلِيس للسّجود وبَيْنَ صدُور المَعَاصي للْأَوَامر الْإِلَـهيَّة مِـن أَفـرَاد النَّـوع الْإِنْسَـاني . وَإِنَّـما المُـرَاد بـ «أَغْوَيْتَنِي» الغوَايَة (الهَلاَك وَالخَيبَة وَالبُعد النَّاتجَة عَن عُصيَان الْأَمر بـالسُّجُود . فَقرَار رَفض إِطَاعَة الْأَمر بالسُّجُود ٱتّخَذه إِبْلِيس بحُرّيَّة ، وَقَد نَتَج عَن هَذَا القَرَار إِبعَاد الله لَهُ ، وَطَردَه مِن مَنْزلَته الَّتي كَان فِيْهَا :

﴿قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَـإِنَّكَ رَجِـيمٌ وَإِنَّ عَـلَيْكَ ٱللَّـعْنَةَ إِلَـىٰ يَـوْمِ ٱلدِّيـنِ قَـالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِى﴾[٢] .

﴿قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّـٰغِرِينَ قَالَ أَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ قَالَ إِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِي﴾[٣] .

فَالغوَايَة هُنَا إِهبَاطه عَن مَنْزلَته ، وَإِخرَاجه عَن مُجْتَمع المَلاَئِكَة ، وَوَصمَه بالصّغَار .

---

(١) ٱلْأَعْرَاف : ١٦ .

(٢) ٱلْحِجْر : ٣٥ ـ ٣٩ .

(٣) ٱلْأَعْرَاف : ١٣ ـ ١٦ .

هَذِهِ النَّتَائِج الَّتِي تَرتَبت [illegible] مِن قرَار عَدَم السُّجُود الَّذي ٱتّخذ بحُرّيَّة هِي الغوَايَة ، فَهي نَتِيجَة لقرَار إِبْلِيس الَّذي ٱتّخذَه بحُرّيّة وعَلَيهِ أَنْ يَتحمل مَسؤوليَة مَا يَنْتج عَن قرَارهِ مِن نَتَائج .

وَالتَّحلِيل اللُّغوي للآيَة يُعطي أَيْضاً النَّتيجَة الَّتي ذكرنَاهَا : ﴿فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِي﴾ فَإِنَّ البَاء للسَّببيَّة ، وَ«مَا» مَصْدَريَّة ، وَمَعْنَىٰ الجُملَة : (بسَبب إِغْوَائِك لِي سَأغوي عِبَادَكَ) ، فَإِنّه لمَّا حلّت عَلَيهِ اللَّعنَة ، وَطُرد عَن مَنْزلته غدَا شرّيرَاً ، وَكَونه شِرّيرَاً سَبَب لنَشْره الشَّر بَيْنَ النَّاس . وَلَكن هَذِهِ النَّتيجَة : جَعَله شرّيرَاً نَتَجت عَن إِختيَاره الحرّ ، وَهُو رَفض السُّجُود ، وَمَعصيَّة الأَمر الإِلٰهي .

هَذَا هُو مَعْنَىٰ الإِغوَاء فِي الآيَتين . وَإِذَن فإِبْلِيس لَم يَكُن مُسَيّرَاً فِي مَوقِفه الَّذي ٱتّخَذه ، وَإِنَّما تَصرّف بحُرّيَّة مُطلقَة . وَإِذَن فَإِبلِيس لَيْسَ «بَطَلاً مَأساويَّاً» كَمَا يُريد المُؤَلّف أَنْ يُصورَه ، وَإِنّما هُو مُتَكبّر سَخِيف قَادَه تَكبّره الأَجوَف إِلَىٰ عَاقِبَة وَخِيمَة .

* * *

بِسَبب وَضعَه الجَدِيد غَدَا إِبْلِيس قوّة شرّيرَة فِي العَالَم الإِنْسَاني :

١ ـ ﴿قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّـٰغِرِينَ قَالَ أَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ قَالَ إِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ثُمَّ لَأَتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَـٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَـٰكِرِينَ﴾[1] .

٢ ـ ﴿قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ وَإِنَّ عَلَيْكَ ٱللَّعْنَةَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ قَالَ رَبِّ

---

(١) الأَعْرَاف : ١٣ ـ ١٧ .

فَأَنظِرْنِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾[١].

٣ ـ ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾[٢].

٤ ـ ﴿قَالَ أَرَءَيْتَكَ هَـٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا﴾[٣].

تُعلِّمنَا هَذِهِ الآيَات كَيْف أَنَّ إِبْلِيس غَدَا عَامِلاً شرّيراً فِي العَالَم الإِنْسَاني، وَمِن خِلاَل الصّراع مَع إِغوَائه وإِضلاَلَه يُمَارس الإِنْسَان حُرّيَّة الإِخْتيَار بَيْنَ الحَقّ وَالبَاطل وبَيْنَ الهُدىٰ وَالضَّلاَل.

وَلَم يَتْرُك الإِنْسَان مَعزُولاً أَمَام قوّة الشَّر الجَدِيدَة الَّتي نَشَأت بسَبب مَوقِف إِبْلِيس. وَإِنَّما عَزّز مَوقِف الإِنْسَان فِي مُقَابل قُوّة الشَّر: عُزّز بالفِطرَة المُسْتَقِيمة الَّتي فُطرَ عَلَيهَا والَّتي بهَا يُدرك وَبهَا يُمَيّز بَيْنَ الحَقّ والبَاطل، وهَذِهِ الفِطرَة قوّة دَاخليَّة تُعِين الإِنْسَان الَّذي يَختَار طَرِيق الحَقّ عَلَىٰ التَّمييز وعَلَىٰ إِدرَاك المَوَاقف الصَّالحَة. وَعُزّز بعَامل خَارجي هُو قِوىٰ خيّرة سَخّرهَا الله تَعَالىٰ لتُعزّز مَوقِف الإِنْسَان أَمَام إِغرَاءَات الشَّر وَتُثَبته، وَقَد عَبّر الله عَنْهَا فِي قَوْلَه تَعَالىٰ:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَـٰمُوا۟ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَبْشِرُوا۟ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ

---

(١) ٱلْحِجْر: ٣٤ ـ ٤٠.

(٢) ص: ٨٢ ـ ٨٣.

(٣) ٱلْإِسْرَاء: ٦٢.

﴿ٱلدُّنْيَا﴾[١].

وَالله سُبحَانه وتَعَالىٰ قَبل كُلّ شَيء، وَفَوق كُلّ شَيء يَمنَح المَعُونة، وَالتَّسدِيد، وَالهدَايَة، وَالتَّوفِيق لمَن يُؤثِر الْإِسْتقَامَة وَالصَّلَاح. قَالَ تَعَالىٰ:

﴿وَٱلَّذِينَ جَـٰهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾[٢].

* * *

بَقي عَلَينَا ـ قَبل إِنْهَاء هَذَا المُوجز عَن قِصّة إِبْلِيس القُرْآنيَّة ـ أَنْ نَبْحَث عَن أُمُور:

الْأَوَّل: إِنَّ إِبْلِيس أُمر بالسُّجُود فَلمَن السُّجُود؟.

وَالثَّاني: أَنَّ مَعْنَىٰ السُّجُود مَا هُو؟.

وَالثَّالِث: عَن مَغْزىٰ السُّجُود مَا هُو؟.

الْأَوَّل ـ لِمَن السُّجُود؟:

إِنَّ الْآيَات الَّتي وَرَد فِيْهَا أَمر المَلَائِكَة وإِبْلِيس بالسُّجُود فِي سُورَة ٱلْبَقَرَة (آيَة ٣٤)، وَسُورَة الْأَعْرَاف (آيَة ١٠)، وَسُورَة الْإِسرَاء (آيَة ٦١)، وَسُورَة ٱلْكَهْف (آيَة ٥١)، وَسُورَة طٰه (آيَة ١١٦)، وَرَدّ فِيْهَا الْأَمر بالسُّجُود لْآدَم، فَفي هَذِهِ الْآيَات يَرد هَذَا النَّص: ﴿قُلْنَا لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِأَدَمَ﴾. وَلَكن الْأَمر بالسُّجُود وَرَد فِي سُورَة صٓ (آيَة ٧١ ـ ٧٢) بالصُّورَة التَّاليَة: ﴿إِنِّى خَـٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَـٰجِدِينَ﴾ وفِي سُورَة ٱلْحِجْر (آيَة ٢٨ ـ ٢٩): ﴿إِنِّى خَـٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَـٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ

(١) فُصِّلَتْ: ٣٠ ـ ٣١.

(٢) ٱلْعَنكَبُوت: ٦٩.

مِن رُّوحِى فَقَعُواْ لَهُۥ سَٰجِدِينَ﴾.

وَالظَّاهر أَنَّ المُرَاد بالبَشر فِي الْآيَتَين الْأَخِيرتَين هُو آدَم. والتَّعْبِير عَنْهُ بالبَشر فِي الْآيَتين رُبَّما يَكُون المُرَاد مِنْهُ الْإِشَارَة إِلَىٰ مَعْنَىٰ سَنُنَبه عَلَيهِ فِيمَا بَعْد.

وهُنَا يوَاجهنَا سُؤال: هَل السُّجُود كَان لْآدَم بمَا هُو شَخص أَو أَنَّ السُّجُود للنَّوع الْإِنْسَاني؛ وَآدَم رَمز للنَّوع؟.

يَبدُو أَنَّ الهَدف مِن السُّجُود كَان تَعظِيم النَّوع الْإِنْسَاني كُلّه، وَلْإِظهَار فَضل الخَلِيقَة الْإِنْسَانيَّة عَلَىٰ الخَلاَئق الْأُخرىٰ، وَلَم يَكُن آدمَ إِلاَّ رَمزاً وَمثَالاً للنّوع الْإِنْسَاني.

تَدلنَا عَلَىٰ ذَلِكَ الْآيَة الحَاديَة عَشرَة مِن سُورَة الْأَعْرَاف: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِأَدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ﴾.

فَإِنَّ الخطَاب: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ﴾ لجَمِيع النَّوع الْإِنْسَاني، ومِن بَعْد هَذَا الخطَاب جَاء قَوْلَه تَعَالىٰ: ﴿ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا﴾ فالسُّجُود لْآدَم بمَا هُو مُمثّل للنَّوع الَّذي خَلَقه الله وَصَورَه.

وَهَذَا المَعْنَىٰ ـ وَهُو أَنَّ السُّجُود لَيْسَ لْآدَم بإِعتبَاره شَخصَاً، وَإِنَّما السُّجُود للنَّوع الْإِنْسَاني وَآدَم رَمز مُمّثل هَذَا النَّوع ـ هَذَا المَعْنَىٰ يَظهر بصُورَة جَليَة فِي الْآيَات المُتعَلقة بالمَوضُوع فِي سُورَة ٱلْبَقَرَة (٣٠ ـ ٣٤) فَفي الْآيَات بَيَّن الله أَنَّهُ سَيَجعل فِي الْأَرْض خَلِيفَة، ومِن المَعْلُوم أَنَّ خِلاَفة الله فِي الْأَرْض لَيْسَت مُخْتَصّة بِآدَم، وَإِنَّمَا هِي ثَابتَة لجَمِيع أَفرَاد النَّوع الْإِنْسَاني. وبَعْد أَنْ بَيَّن الله فِي تِلْكَ الْآيَات هَذِهِ الحَقِيقَة ـ الخِلاَفَة فِي الْأَرْض ـ أَمَر المَلاَئِكَة بالسُّجُود لْآدَم،

فَالسُّجُود لْآدَم بِإعتبَار الخِلاَفَة ، وَلمَّا لَم يَكُن هَذَا الْإِعتبَار مُختصًّاً بِهِ ، بَل هُو شَامل لجَمِيع ذرِّيته ، فَالسُّجُود إِذَن لجَمِيع ذرِّية آدَم أَي للنّوع الْإِنْسَاني كُلّه ، لْأَنَّ مقيَاس عَظمَة هَذَا النَّوع وَكَرَامته وَهُو خِلاَفة الله فِي الْأَرْض مَوجُود فِي جَمِيع الْأَفرَاد .

الثَّاني ـ مَعْنَىٰ السُّجُود :

العِبَادَة هِي أَنْ يَجْعَل الْإِنْسَان نَفْسَه فِي مَقَام العُبُوديَّة لله تَعَالىٰ ، وَحَقِيقَة العُبُوديّة هِي التَّسلِيم المُطلَّق وَالْإِستسلاَم الكَامِل لْإِرَادَته تَعَالىٰ . فَالعَابد هُو الَّذي يَجْعَل نَفْسَه فِي مقَام الطَّاعَة المُطْلَقَة وَالْإِنقيَاد التَّام لْأَوَامر الله وَنوَاهِيه .

وَيُعَبّر عَن العِبَادَة بأَشكَال شَتىٰ مِن جُملتهَا الحَرْكَات الجَسديَّة ، ومِن جُملَة الحَركَات الجَسديَّة السُّجُود .

فالسُّجُود فِي بَعْض الحَالاَت يَكُون تَعْبِيرَاً جَسديّاً عَن العِبَادَة ، كالسُّجُود فِي الصَّلاَة الْإِسْلاَميَّة ـ وَهُو فِي هَذِهِ الحَالَة وَضع الجَبْهَة عَلَىٰ الْأَرْض تَذَلُلاً وَتَخشعَاً لله تَعَالىٰ .

وَيُمكن أَنْ يَكُون السُّجُود تَعْبِيراً عَن الْإِحترَام ، والتَّعْظِيم فَقَط ، وحِينَئْذٍ يَتَجرّد مِن مَعْنَىٰ العِبَادَة ، وَمثَال ذَلِكَ مَا وَرَد فِي قِصّة يُوسُف : ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَخَرُّوا۟ لَهُۥ سُجَّدًا﴾[1] .

فَإِنَّ يَعْقُوب وَأَبنَاءه لَم يَسجدُوا ليُوسُف سجُود عِبَادَة ، كَيْف ويَعْقُوب نَبيّ ؟ ، بَل سَجدُوا شُكراً لله ، وَتَعظِيماً ، وَتكرِيماً ليُوسُف عَلَىٰ مَنزلَته الَّتي بَلغهَا فِي مَصْر .

---

(١) يُوسُف : ١٠٠ .

وَيُمكن أَنْ يَكُون السُّجُود تَعْبِيراً عَن السُّخريَّة والْإِسْتهزَاء بالمَسجُود لَهُ.

وَإِذَن فالسُّجُود بمَا هُو حَركَة جَسديَّة مُعَيَّنَة لاَ يُلاَزم مَعْنَىٰ العِبَادَة دَائِمَاً، بَل قَد يُفَارقه كَمَا رَأينَا. فَيُمكن أَنْ تَكُون عِبَادَة وَيُمكن أَنْ لاَ تَكُون عِبَادَة، وذَلِكَ بحَسب المَعْنَىٰ الَّذي تَتضَمّنه وَتَرمز إِلَيهِ.

إِلاَّ أَنَّهُ يَنْبَغي التَّنْبِيه عَلَىٰ أَنَّ السُّجُود فِي الذَّوق الْإِسْلاَميّ المُستَفَاد مِن الكِتَاب وَالسُّنَّة لاَ يَكُون إِلاَّ لله تَعَالىٰ بنَحو العِبَادَة، وَلاَ يَجُوز السُّجُود لغَير الله تَعَالىٰ: بقَصد التَّعْظِيم والتَّكرِيم إِلاَّ بأَمر إِلٰهي خَاصّ.

وَهُنَا نَصل إِلَىٰ بَحْث مُشكْلَة سجُود المَلاَئِكَة لْآدَم.

فَسجُود المَلاَئِكَة لْآدَم بإِعْتبَاره مُمثّلاً للنَّوع الْإِنْسَاني ثُمَّ وفقَاً لْأَمر إِلٰهي خَاصّ، وَهُو بِهَذَا الْإِعتبَار يَنْطَوي عَلَىٰ جِهتَين:

الْأُولىٰ: أَنَّهُ عِبَادَة لله تَعَالىٰ مِن حَيْث كَونه طَاعة لْأَمْرَه بالسُّجُود.

وَالثَّانيَة: أَنَّهُ تَعظِيم للنَّوع الْإِنْسَاني ـ لاَ عِبَادَة ـ وَإِقرَار بسيَادَته وَأَفضَلِيتَه مِن حَيْث إِختيَار الله لَهُ للخِلاَفَة فِي الْأَرْض.

* * *

بِهَذَا البَيَان يَتّضح لنَا خَطَأ المُؤَلّف فِي الصَّفحَة (٩٠، وَغَيرهَا) حِينَ يُكرّر فِي أَكثَر مِن مَوضع مَا يُفِيد أَنَّ السُّجُود لاَ يَكُون إِلاَّ عِبَادَة، وأَنَّ إِبْلِيس لَمْ يَسجُد، لْأَنّه لَم يَرد أَنْ يَشْرك بعبَادته لله أَحدَاً، وَسَنُعَالج هَذِهِ النُّقطَة فِي مَوْضُوع آخر أَيْضَاً.

الثَّالِث ـ مَغْزىٰ السُّجُود:

إِنَّ الغَايَة مِن أَمر المَلاَئِكَة وإِبْلِيس بالسُّجُود للحَقِيقَة الْإِنْسَانيَّة مُمثّلَة فِي آدَم

هِي إظهَار أَنَّ جَمِيع القِوىٰ الكَونيَّة مُسَخّرة لأَجْل الإنْسَان وَتقدّمه، وذَلِكَ لأَنَّ المَلاَئِكَة أَسْبَاب إلٰهيَّة وَأَعوَان للإنْسَان عَلَىٰ تَقَدمه الرُّوحي وَالمَادِيّ، وَسعَادَته الأُخرويَّة وَالدّنيويَّة. وذَلِكَ لأَجْل تَأكِيد مَعْنَىٰ خِلاَفَته فِي الأَرْض.

ومِن هُنَا فَرَفض إبْلِيس للسُّجُود ـ وهَذِهِ هِي الغَايَة مِن السُّجُود ـ تَعبير مِنْهُ عَن رَفضَه الإعْتِرَاف بالمَنْزِلَة الَّتي أَعْطَاهَا الله للإِنْسَان، وَرَفضه لأَنْ يَجْعَل نَفْسَه حَيْث أَرَادَه الله أَنْ يَكُون: عَامِلاً فِي سَبِيل تَقَدّم الإِنْسَان وَسعَادَته الرُّوحيَّة والمَادِيَّة.

وَقَد أَدرَك إبْلِيس المَنْزِلَة العَاليَة الَّتي جَعَلهَا الله للإِنْسَان، وَأَدرَك أَنَّ الأَمر بالسُّجُود نَتِيجَة لذَلِكَ، فَرَفض الإِعْترَاف بِهَذِهِ الحَقِيقَة، وَبَدلاً مِن أَنْ يَجْعَل نَفْسَه عَامِلاً فِي سَبِيل تَقَدّم الإِنْسَان جَعَل نَفْسَه ـ عَلَىٰ الضّد مِن ذَلِكَ ـ عَامِلاً فِي سَبِيل تَأخّر الإِنْسَان وَشتَاته قَالَ تَعَالىٰ عَلَىٰ لسَان إبْلِيس يُوضّح مَوقِفه: ﴿قَالَ أَرَءَيْتَكَ هَـٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلاً﴾[1].

* * *

بَعْد هَذَا الإِستعرَاض السَّرِيع لأَبعَاد مَسأَلة إبْلِيس مِن وجْهَة النَّظر الإِسْلاَمِيَّة نَعُود إِلَىٰ المُؤَلّف، فَنَقف مَعَهُ عَلَىٰ بَعْض الأَخْطَاء الَّتي تَورّط فِيْهَا فِي فَهْمَه لِهَذِه القِصّة وَذَلِك نَتِيجَة لعَدَم إِطّلاَعه عَلَىٰ المُصطلحَات وَعَدم مُعَانَاته للمَصَادر الأَسَاسيَّة الَّتي يَجب أَنْ تُعْتَمد فِي هَذِهِ الدّرَاسَة.

* * *

قَالَ المُؤَلّف (فِي صَفْحَة ٨٩):

(١) ٱلإِسْرَاء: ٦٢.

« وَتَبْدو قِصّة إِبْلِيس كَمَا وَرَدَت فِي الْآيَات (القُرْآنيَّة) بَسِيطَة فِي ظَاهرهَا . لَقَد أَمْرَه الله أَنْ يَقع سَاجداً لْآدَم فَرَفض ، وكَان مَا كَان مِن شَأنَه . غَير أَنَّا لَو أَرَدنَا أَنْ نَتجَاوز هَذِهِ النَّظرة السَّطحيَة إِلىٰ مُشكْلَة إِبْلِيس لرَجَعنَا إِلَىٰ فِكرَة هَامّة قَالَ بِهَا بَعْض العُلْمَاء المُسْلِمِين ، وهِي التَّمييِّز بَيْنَ الْأَمر الْإِلٰهي وبَيْنَ المَشِيئَة ، والْإِرَادَة الْإِلَهيَّة ، فَالْأَمْر بطَبيعَة الحَال أَمَّا أَنْ يُطَاع وَيُنَفذ وَأَمَّا أَنْ يُعصىٰ وَللمَأمُور الخَيَار فِي ذَلِكَ . أَمَّا المَشِيئَة الْإِلَهيَّة فَلاَ تَنْطَبق عَلَيهَا مِثل هَذِهِ الْإِعتبَارَات لْأَنَّهَا بطَبِيعتهَا لاَ تُرَد . . . لَقَد شَاء الله وجُود أَشْيَاء كَثِيرَة غَير أَنَّهُ أَمر عِبَادَه بالْإِبْتعَاد عَنْهَا ، كَمَا أَنَّه أَمرهُم بأَشيَاء ولَكنّهُ أَرَادهُم أَنْ يُحَققُوا أَشْيَاء أُخرىٰ ، لذَلِكَ بإِستطَاعتنَا القَول بأَنَّ الله أَمَر إِبْلِيس بالسُّجُود لْآدَم ، ولَكنّهُ شَاء لَهُ أَنْ يَعصي الْأَمر ، وَلَو شَاء الله لْإِبْلِيس أَنْ يَقع سَاجداً لوَقع سَاجداً لتوّه ، إِذْ لاَ حَول وَلاَ قوّة للعَبد عَلَىٰ رَدّ المَشِيئَة الْإِلَهيَّة » .

هَذَا النَّص هُو العَمُود الفَقري فِي نَظَرِيَّة المُؤَلّف عَن قِصّة إِبْلِيس مِن وجْهَة النَّظر الْإِسْلاَمِيَّة ، وَسَيَتّضح لنَا مَدىٰ خَطأ المُؤَلّف فِي فَهْمَه لِهَذِه القِصّة ، وَسَيَتّضح لنَا أَنَّ نَتِيجَة إِنْكشَاف خَطَأه هُو تَسَاقط جَمِيع النَّتَائِج الَّتي رَتّبهَا عَلَىٰ هَذَا الْأَسَاس :

١ ـ يَعْتَرف المُؤَلّف بأَنَّ قِصّة إِبْلِيس ـ مِن خِلاَل النُّصُوص القُرْآنيَّة ـ تَبدُو

وَاضِحَة وَبَسِيطَة، وَلاَ تُشَكّل أَي مَأسَاة، وَلَيْسَ فِيْهَا أَي تَعقِيد وَلاَ غمُوض. وَلَكن بِمَا أَنَّ المُؤَلّف يُرِيد أَنْ يَحْصَل عَلَىٰ «بطُولَة فِكريَّة» فهُو يَستَعِين بـ«بَعْض العُلْمَاء المُسْلِمِين» لِيَنظر إِلَىٰ القِصّة مِن زَاوِيَة أُخرىٰ وَنَسأَل المُؤَلّف:

أَوّلاً: مَن هُم هَؤْلاَء العُلْمَاء المُسْلِمِين (لاَبُدّ أَنَّ الحَلاَّج مِنْهُم!!)؟.

ثَانِيَاً: مَاذَا يَقُول هَؤْلاَء العُلْمَاء المُسْلمُون؟.

أَنَّهُ لَمْ يتَبَيَّن لنَا قَولَهُم لنَرىٰ مَا إِذَا كَان قَد فَهُم نصُوصهِم إِذَا كَانُوا مِن العُلْمَاء المُسْلِمِين حَقّاً.

وَثَالِثَاً: فَلنَفتَرض أَنَّهُ يُوجد عُلمَاء مُسلمُون أَخْطَأوا فِي الفَهْم، فخَلطُوا بَيْنَ مجَال عَمَل الإِرَادَة التَّشريعيَّة، وَمجَال عَمل الإِرَادَة التَّكْوِينيَّة، فَهَل مِن العِلم وهَل مِن المَنْهَج العِلمي أَنْ نَصْدر أَحْكَامَاً حَاسمَة اعتمَاداً عَلَىٰ قَوْل بَعْض العُلْمَاء فَهُم أَكْثَر العُلْمَاء، مَع اعترَافنَا بأَنَّ القِصّة فِي مَصْدرهَا الأَسَاسي (القُرْآن) تَبدُو وَاضحَة وَبَسِيطَة، لَيْسَ فِيْهَا أَي عُنْصر مَأسَاوي. وَلَكن... عفوَاً، لَقَد غَفَلتُ عَن أَنَّ المُؤَلّف يُرِيد أَنْ يَحصل عَلَىٰ «بطُولَة فِكريَّة» بإِكتشَافه لعُنصر المَأسَاة فِي قِصّة إِبْلِيس، وَسَتفُوته هَذِهِ الفُرصَة لَو أَنَّهُ سَلَكَ فِي بَحْثه مَسلَك العُلْمَاء الأُمنَاء للمَنْهَج العِلمي، فَلنَترك المَنْهَج العِلمي، وَلنُلَفق، ولنَصرف النُّصُوص عَن دَلاَلاَتها، وَلنَستَعن بمَصَادر أَجنبيَّة عَن طَبِيعَة بَحْثنَا، كُلّ ذَلِكَ مِن أَجْل أَنْ نَحْصل -بِهَذِهِ الأَسَالِيب- عَلَىٰ بطُولَة فِكريَّة.

٢- أَنَّ الله لَم يَأمُر عِبَادَه بأَشيَاء أَرَاد عَدَم وجُودهَا، وَلَم يَنْه عَن أَشْيَاء أَرَاد وجُودهَا. وهَذَا الفَهْم مِن المُؤَلّف فَهُم خَاطيء نَتِيجَة لخَلطَه بَيْنَ مجَال الإِرَادَة التَّشريعيَّة وَمَجَال الإِرَادَة التَّكْوِينيَّة. أَنَّ الله أَمَر عِبَادَه وَنَهاهُم وَأَعطَاهُم حُرّيَّة

الإِخْتيَار ، وَحقَقَّ لَهُم أَقْصىٰ الحُرِّيَّة حِينَ يَسّر لَهُم أَنْ يُحقّقُوا إِرَادتهُم وَينتَقلوا بهَا مِن المجَال النَّظري المَحض إِلَىٰ مَرْحَلَة التَّنفِذ فِي عَالم الوَاقع ، أَمّا الْأَشْيَاء الَّتي يُرِيدهَا الله بالْإِرَادة التَّكْوِينيَّة فَهي لَيْسَت أَفعَال العِبَاد كَمَا رَأينَا .

وَإِذَن ، فَقَد أَمَر الله إِبْلِيس بالسُّجُود لْآدَم بالْأَمر التَّشرِيعي ، وَتَرك لَهُ حُرِّيَّة إختيَار قَرَارَه بإِطَاعَة هَذَا الْأَمر أَو عصيَانه ، وَحِينَما ٱختَار إِبْلِيس المَعْصيَة وَعَدَم السُّجُود مَارس حُرِّيّته المُطْلَقَة ، وَتَرتَب عَلَىٰ ذَلِكَ نَتِيجَة المَعْصيَة ، وَهِي الطَّرد وَاللَّعنَة ، وذَلِكَ لأَنَّ الحُرِّيَّة تُلاَزمهَا المَسؤولِية .

٣ ـ لَقَد رَتَّب المُؤَلّف فِي الصَّفحَة (٩٠ وَمَا بَعْدهَا) ثَلاَث نَتَائج عَلَىٰ تَحلِيلَه السَّابق الَّذي بَيّنَّا وَجْه الخطَأ فِيهِ :

النَّتِيجَة الْأُولىٰ : أَنَّ إِبْلِيس وإِنْ خَالَف الأَمر الإِلٰهي إِلاَّ أَنَّهُ كَان مُنسجماً مَع المَشِيئَة الإِلٰهيَّة .

وَنَقُول : هذَا خَطَأ ، فَقَد بَيّنَّا أَنَّ المَشِيئَة (الْإِرَادَة التَّكْوِينيَّة) لاَ دَخل لَهَا فِي أَفْعَال العِبَاد ، وَإِنَّما أَمَر الله إِبْلِيس بالسُّجُود ، وَتَرك لَهُ حُرِّيَّة الإِخْتيَار ، وَقَد ٱختَار العُصْيَان .

النَّتِيجَة الثَّانيَة : أَنَّ إِبْلِيس لَو وَقَع سَاجداً لْآدَم لخَرَج عَن حَقِيقَة التَّوحِيد (. . .) إِذْ أَنَّ السُّجُود لغَير الله لاَ يَجُوز عَلَىٰ الإِطْلاَق لأَنّه شِرك بهِ (. . .) نَسْتَنْتج إِذَن أَنَّ مَوقِف إِبْلِيس يُمَثّل « الْإِصرَار المُطلَّق عَلَىٰ التَّوحِيد » .

هَذَا خَطَأ : لمَا بَيّنَّاه مِن أَنَّ الخرُوج عَن حَقِيقَة التَّوحِيد بالسُّجُود لغَير الله إِنَّما يَكُون لَو كَان السُّجُود لغَير الله بنَحو العِبَادَة ، وَأَمّا إِذَا كَان بنَحو التَّعْظِيم والتَّكرِيم فَلاَ يَعد عِبَادَة ، ومَن ثَمَّ فَلاَ يَكُون خُرُوجاً عَن حَقِيقَة التَّوحِيد ، وَقَد أَطَاع

المَلاَئِكَة الأَمر الإِلٰهي بالسُّجُود فَلَم يَخْرجُوا عَن حَـقِيقَة التَّـوحِيد، بَـل أَكّـدُوا إِخلاَصهُم فِي التَّوحِيد بخضُوعهِم للأَمر الإِلٰهي[1]، أَمَّا إِبْلِيس فَقَد وَاجَـه الأَمـر الإِلٰهي بِالكِبريَاء، وَإِظهَار «الأَنَا» كَمَا بَيْنَّا وَنُبَيِّن فِيمَا يَأتِي. مَوقِف إِبْلِيس لاَ يُمثّل «الإِصرَار المُطلَّق عَلَىٰ التَّوحِيد». وَإِنَّما يُمثّل خَلق التَّكَبر وَالكُفر بأَجلىٰ صُوَرهِ، وَأَحطّ مَعَانِيه. وَلَو كَان مَوقِف إِبْلِيس نَاجمَاً عَن إِصرَاره عَلَىٰ التَّوحِيد لعَلَّل مَوقِفه بِإِلتزَام خَطّ التَّوحِيد المُطلَّق، ولَكنّهُ لَم يُعَلّل مَوقِفه بَذَلِكَ، وَإِنَّما عَلّله بأَنَّه خَير مِن آدَم لأَنَّ آدَم مِن طِينٍ أَو مِن صِلصَالٍ، وَ﴿قَالَ أَرَءَيْتَكَ هَـٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ لَـئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلاً﴾[2].

تَنَاقُض:

وَمِن تَنَاقُضَات المُؤَلّف أَنَّهُ يَقُول فِي هَذِهِ الفِقْرَة عَن إِبْلِيس أَنَّهُ مَثّل الإِصـرَار المُطلَّق عَلَىٰ التَّوحِيد، بَيْنَما يُصَرّح فِي الفِقْرَة الَّتي بَعْدهَا أَنَّ إِبْلِيس بَرّر مَوقِفَه ـ لاَ بالتَّوحِيد ـ وَإِنَّما بالعُنصريَّة، وإِنَّهُ خُلِق مِن نَار بَيْنَما خَلق آدَم مِن طِينٍ.

النَّتِيجَة الثَّالِثَة: ذَكَر المُؤَلّف حُجّتَين إِسْتَند إِلَيهَا إِبْلِيس فِي رَفض السُّجُود.

الأُولىٰ: أَنَّ إِبْلِيس مَخْلُوق مِن عُنْصر أَعلَىٰ فِي مَرتبَة الكَمَال مِن عُنْصر آدَم.

---

(١) أَنّ كَلِمَة التَّوْحِيد تَنزِيه للخَالق عَن الشّرِيك، وَللمَخلُوق عَن العبُودِية لِغَيرالله. وَصَدَق مَـن قَـالَ: أَنّ كَلِمَة التَّوْحِيد لَيْسَت حرُوفاً، وَلكنْ مَنْهَج حَيَاة، وشَرِيعَة قَلْب... ومِن هُنا قَالَ رَسُول الله ﷺ: «خَير مَا جِئتُ بِهِ أَنَا، وَٱلنَّبِيُّونَ مِن قَبلي كَلِمَة لاَ إِله إِلاّ الله». أُنظر، تُحْفَة الأَحْوَذي للـمُبَاركفُوري: ١٠٧/٩، قَرِيب مِن هَذَا، شَرْح نَهْج ٱلْبَلاَغَة للمُعتزلي: ١٩٠/٦، البَحر الرّائق: ٥٩٢/٢، كتَاب المُوطّأ: ٢١٥/١ ح ٣٢، إِعَانة الطّالبِين: ١٩/١، فَتْح العَزِيز لعبدٱلْكَرِيم الرّافعي: ٣٥٩/٧، الَمجْمُوع: ٩٤/٨.

(٢) ٱلْإِسْرَاء: ٦٢.

الثَّانيَة : أَنَّ آدَم وَذرّيَته سَيَعيثُون فِي الْأَرْض فَسَاداً .

وَالمُؤَلّف مُخطيء فِي تَحلِيلَه المَذكُور .

أَمَّا بالنّسبَة إِلَىٰ الحُجّة الْأُولىٰ نَقُول للمُؤلّف : أَنَّهُ لَيْسَ فِي الْإِسلاَم ـ وَلاَ فِي أَي دِين آخر فِيمَا أَعْلَم ـ سُلّم تَقيِّيمي للعنَاصر والْأَجْسَام يَجْعَل أَحدهَا أَفْضَل مِن الْآخر ، وَلَيْسَ لَدَينَا فِي الْإِسلاَم نُصُوص تُوحي بَذَلِكَ فَضلاً عَن أَنْ تَدل عَلَيهِ . لَيْسَت النَّار أَفْضَل مِن الطِّين ، وَلاَ الطِّين أَحطّ مِن النَّار ، وَلاَ لأَي عُنْصر فَضل عَلَىٰ أَي عُنْصر آخر . وَلَكن مَا العَمَل إِذَا كَان المُؤَلّف يَتَعسف ليَخْتَلق خَيَالاَت تَجْعَل فِكرَته مُنْسَجمَة .

وَأَمّا بالنّسبَة إِلَىٰ الحُجّة الثَّانيَة : فَإِنَّ الْإِعْتِرَاض هُو مِن المَلاَئِكَة ، وإِبْلِيس كَمَا بَيْنَّا لَيْسَ مِنْهُم ، فَقَد قَالُوا عِندَمَا عَلمُوا بخَلق آدَم وَخِلاَفَته فِي الْأَرْض ، وَسيَادَته عَلَيهِم : ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ﴾[1] ، وَقَد بَيَّن الله لَهُم السّر فِي تَفضِيل النَّوع الْإِنْسَاني :

﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَـٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ قَالُوا۟ سُبْحَـٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ قَالَ يَـٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ﴾[2] .

ثُمَّ أَنَّهُ كَان عَلَىٰ إِبْلِيس أَنْ يُطِيع الْأَمر الْإِلٰهي كَمَا أَطَاعه المَلاَئِكَة بَعْد أَنْ بَيَّن الله لَهُم ، فكَان عُصيَانه ٱستكبَاراً مُوجباً للعقَاب .

---

(١) ٱلْبَقَرَة : ٢٩ .

(٢) ٱلْبَقَرَة : ٣٠ ـ ٣٣ .

قَالَ المُؤَلّف فِي الصَّفحَة : (٩٢) .

« لذَلِكَ سَنَرىٰ فِيمَا بَعْد أَنْ أَمَر السُّجُود لَمْ يَكُن أَمر مَشِيئَة ، وَإِنَّما كَان أَمر إِبْتلاَء » .

هُنَا يَكْشف المُؤَلّف ـ كَمَا فِي كَثِير مِن كتَابه ـ عَن عَدَم وضُوح المَفَاهِيم لَدَيه .

إِنَّ أَمر الإِبْتلاَء (الأَمر االإِمْتحَاني) قِسم مِن الأَمر التَّشرِيعي وَهُو أَمر صُوري المَقصُود مِنْهُ فِي الحَقِيقَة تَربيَة الإِرَادَة الإِنْسَانيَّة عَلَىٰ الإِذعَان المُطلَّق لإِرَادَة الله . وَكَشَف حَقِيقَة العَبد لمُجْتَمعه ، وَمزدىٰ ثبَاته عَلَىٰ الطَّاعَة وَتَحَمله لكُلّ شَيء فِي سَبِيلهَا . (ومِن نمَاذج هَذَا الأَمر االإِمْتحَاني أَمَرَ إِبْرَاهِيم بذَبح وَلدَه) .

هَذَا هُو الأَمر االإِمْتحَاني أَو أَمر الإِبْتلاَء كَمَا يُسمّيه المُؤَلّف .

بَيْنَما نُلاَحظ أَنَّ الأَمر بالسُّجُود لآدَم لَيْسَ أَمراً إِبتلاَئيّاً صُوريّاً وَإِنَّما هُو أَمر حَقِيقي المَطلُوب تَنْفِيذه وَجَعله حَقِيقَة مُعَاشة ، وَلَو كَان أَمراً إِبتلاَئيّاً لمَا تَمَّ سجُود المَلاَئِكَة لآدَم ، وَلإِكتَفىٰ مِنْهُم بإِظهَار ٱستعدَادهم للسُّجُود كَمَا ٱكْتَفىٰ مِن إِبْرَاهِيم بإِظهَار عَزمَه تَنْفِيذ أَمر الذَّبح .

وَلَم يَخْتَص إِبْلِيس ـ دُون المَلاَئِكَة ـ بأَمر مُستَقل حَتَّىٰ يُقَال أَنَّهُ وَحدَه أُمر بأَمر إِبتلاَئي ، بَل ثَمّة أَمر وَاحد ، توجّه إِلَىٰ المَلاَئِكَة وإِبْلِيس مَعاً : أَطَاعَه المَلاَئِكَة ، وَعصَاه إِبْلِيس .

❋ ❋ ❋

عَلَىٰ هَذَا الضَّوء :

خُلاَصَة المُؤَلّف الَّتي ذكَرهَا فِي الصَّفحَة (٩٢ ـ ٩٣) غَير صَحِيحَة ، أَنَّ قِصّة إِبْلِيس هِي قِصّة كُلّ مَخْلُوق عَاقل مَدْرَك يوُضع أَمَام الإِخْتيَار بَيْنَ الخَير وَالشَّر ،

فَيختَار الشَّر وَالجَريمَة . وَقَد اتّضح مِمَّا ذَكرنَا أَيْضاً أَنَّ مُنَاقشَة المُؤَلّف للعَقّاد في الصَّفحَة : (٩٤ ـ ٩٦) غَير صَحِيحَة أَيْضاً ، فإِنَّهَا مَبنيَّة عَلَىٰ المُـقَدّمَات والنَّـتَائِج الَّتي بَيْنَّا بُطلاَنهَا سَابقاً .

فِي (١٠٥ ـ ١٠٦) يُصَور المُؤَلّف إِبْلِيس وَهُو مَسُوق إِلَىٰ قَدْر مَحتُوم لاَ فكَاك مِنْهُ ، وَيَسْتَشهد عَلَىٰ ذَلك بحَدِيث قُدْسي ، وَكَلاَم للحَلاّج ، وبآيَة ﴿إِنَّا كُلَّ شَـيْءٍ خَلَقْنَـهُ بِـقَدَرٍ﴾[1] وَقَد بَيْنَّا رَأينَا فِي مُسْتَهل هَذَا الحَـدِيث فِـي قِـيمَة مَـا يُسـمّىٰ بالأَحَادِيث القُدسيَّة ، وَكَذَلكَ فِي فَهُم الحَلاّج لقصّة إِبْلِيس .

أَمَّا الآيَة فَهي بَعِيدَة جدّاً عَن الدّلاَلَة عَلَىٰ مَقْصَد المُؤَلّف . أَنَّ القَدر فِي الآيَة مِن المُقدَار ـ وَتَعني النِّظَام وَعَدم الفُوضىٰ وَالعَبَث ، وَلاَ تَعني الجَبر ، وَقَد بَحثنَا هَـذَا المَوْضُوع فِي مَوضع سَابق مِن هَذَا الحَدِيث ، وَبَيْنَّا أَنَّ إِرَادَة الله التَّكْوِينيَّة لاَ دَخل لَهَا بأَفعَال العِبَاد .

وَكَلاَم المُؤَلّف فِي الصَّفحَة : (١٠٧) عَن المُقَارنَة بَيْنَ آدَم وإِبْلِيس خَطَأ أَيْضاً ، فَقَد نَهىٰ الله آدَم عَن الأَكل مِن الشَّجرَة وَتَركَه حُرّاً ، وَحِينَ خَالَف آدَم الأَمر الإِلٰهي وَتَلقىٰ نَتِيجَة مُخَالفَته تَاب ، فتَاب الله عَلَيهِ[2] . وَكَذَلكَ الحَال بالنّسبَة إِلَىٰ إِبْلِيس

---

(١) ٱلْقَمَر : ٤٩ .

(٢) تَتَفق الأَدْيَان السّماوِية عَلَىٰ أنّ آدَمَ لَم يَستَمع لله فِي نَهيه عَن الأَكل مِن الشَّجَرَة ... وتولّد مِن فِكـرةِ هَذِه الْخَطِيئَة ، أو هَذِه المُخَالفة آرَاء مُخْتَلفة عَن طَبِيعَة ٱلإِنْسَان ، أَو عَن الجِنْس البَشري بالنَّظر إِلَىٰ أنّ آدَمَ أبا البَشر هُو المُمثل لهَذه الطَّبِيعَة ، أو لهَذا الجِنْس ... فَمن قَائل : أنّ ٱلإِنْسَان خيّر بِطَبعه . وقَائل : هُو شرِير وذِئب ... وَقَالَ المَاركسيُون : لاَ يَتصف ٱلإِنْسَان بِخَير ، أو شرّ ، لأنّه صَنِيعة الطَّبِيعَة ، وخَاضع لقَانون التّطور كَغَيره مِن ٱلْكَائِنَات الحَيَّة ، ولَيْسَ هُناك ما يَمنع مِن أَنْ يَتحول فِي المُسْتَقْبَل إِلَىٰ ↔

⇔ شَيء آخر يَبعد كُلّ البُعد عَن مَفهوم ٱلإِنْسَان الحَالي، وإذَنْ، لَيْسَ ثَمَّة طَبِيعَة بَشرية ثَابتَة كِي نَصفها بِخَير، أَو شَرّ.

أُنظر، أَضوَاء عَلَىٰ السُّنَّة المُحمَّدية للشَّيخ مُحَمَّد أَبو ريّة: ١٨٦ و ١٨٧، تَفْسِير المِيزَان: ١/١٣٥، جَامع الْبَيَان: ١٥/٣٢٣، تَفْسِير القُرطُبي: ١/٢٩٥.

وَوقفت ٱلْمَسِيحِية فِي الجَانب المُقابل حَيْث ٱعْتَبرت ٱلإِنْسَان مُذنباً، ومُخطئاً بِطَبعه، وإِنّه لاَ خَلاص لهُ مِن الذّنب، والْخَطِيئَة إِلّا بقُوَّة عُظمىٰ خَارجَة عَن طَبِيعَته وإِرَادته، وَتولد مِن هَذِه الْفِكْرة فِكْرَة الفِدَاء، أَو القُربَان، وإِنَّ الله قَد تَمثّل فِي صُورة إِنْسَان، وَأنّـه صُـلب، وعُـذّب ليـخلّص البَشـر، ويُكـفّر عَـنهم سَيِّئَاتِهم... ومِن أَجل هَذَا يَطلق ٱلْمَسِيحِيُون عَلَىٰ السَّيِّد ٱلْمَسِيح ﷺ لَـقَب «الْـمخلّص» وَيَـعتبرُون الْخَطِيئَة وَالفِداء مِن صَمِيم الدِّين، وَالْعَقِيدَة.

أُنظر، تَفْسِير المِيزان: ٣/٣١٩.... وَقد وَصف أَحدَهم هَذَا الوَضع بقَوْله: «لقَد أَصْبَحَ الدِّين عِنْدَنَا ـ أَي عِند المَسحِيين ـ مُجَسّداً فِي الْخَطِيئَة». وَقَالَ آخر: أَنّ الكَنِيسَة ٱختَرعت فِكـرَة الْـخَطِيئَة، فِكـرَة الخَلاَص مِنْهَا بِالفِدَاء كَي تَقْنَع مَن تَسعىٰ إِلَىٰ تَحوِيلهم عَن دِيـنهِم، تَـقْنَعهم بأَنّ الخَـلاص، والعِـلاج مَوجُود فِي جَيبهَا... وهُو ٱعتنَاق ٱلْمَسِيحِية فَقط لاَ غَيْر.

وَوَجد المُستعمرُون، وَالصّهاينة الشّفِيع، والمُبرر لطُغيَانهم، وعُدْوَانهم عَلَىٰ ٱلإِنْسَانية، وَقِيمها، وَجدوا هَذَا الشّفِيع عِند الكَنِيسة الَّتي تَقول: أَنّ الْخَطِيئَة غَرِيزَة فِي طِينَة ٱلإِنْسَان، وَجِبلَّته... فإِذَا مَا ٱعتَرض مُعترض عَلَىٰ بَغيهِم، وآثَامهِم قَالُوا: هَذَا مِن صِنع الله، لاَ مِن صُنعنا... وكلّ مَن مَلك ٱستَأثر، وَمَا كفّ أَحد إِلّا لِعلَّة الْعَجْز، ومِن أَجل هَذَا سَاندَت قِوىٰ الشَّرّ، والْعُدْوَان الكَنِيسَة بكلّ ما تَملك، بَل وَسخّرت لِهَذه الْغَايَة بَعْض العمَائِم الَّتي تَقلبت فِي البِلاد، وأَكْثَرت فِيْهَا ٱلْفَسَاد. فمُنذ عَهدٍ قَرِيب خَطَب مُعَمم، وَنَشر فِي الصّحف: أَنّ ٱلأَنْبِيَاء كَغيرهِم فِي المِيُول، وَالأَهوَاء مُستنَداً إِلَىٰ مَا ظَهر فِي بَعْض الآيَات، ومَا تَنبَه لأَهدَافه المَأجورَة إِلّا قَلِيل.

ورُوي ـ ولاَ أَستَبعد هَذِه الرّواية ـ إِنَّ إِرسَاليات التّبشِير ٱلْمَسِيحي أَغرَت دَاراً لِلنَّشر بإِعَادة طَبع، وَنَشر كتَاب تَنْزِيه ٱلأَنْبِيَاء لِلشّرِيف المُرتضىٰ، وٱشتَرت مِن صَاحب الدَّار العَدِيد مِـن النُّسـخ، وَوَزعـتها بِطَرِيقٍ، أَو بآخر... والقَصد أَنْ يَتنَبه النَّاس لقَوْله تَعَالَىٰ: ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ﴾. سُورَةُ طَه: ١٢١. وقَوْله: ﴿لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا ⇔

﴿مُسْتَقِيمًا﴾ ٱلْفَتْح: ٢. وَمَا إِلَىٰ ذَلِكَ..

أَمَّا تَأْوِيل الشَّرِيف بِخلاَف الْأُولَىٰ، وبأنّ الْأَمْر والنّهي مِنْهُ تَعَالَىٰ فِي هَذَا البَاب هُما للإرشَاد فَقط. أَمَّا هَذَا التّأويل وَنَحوه فَيَتعقّله، وَيَقتنع بِهِ الْخَاصَّة ٱلْمُؤْمِنُون دُونَ الْعَامَّة الّذين لاَ يَفْهمُون مِن كَلِمَة ٱلْمَعْصِيَة إِلّا الْمَعْنَىٰ الْحَقِيقِي الْأَصِيل.

أُنظر، كتَاب عصمَة ٱلْأَنْبِيَاء للسَّيِّد المُرتضىٰ، وعصمَة ٱلْأَنْبِيَاء للرّازي، وبحثاً مُفصلاً فِي كتَاب حُجّية السُّنَّة للشَّيخ عِبد الْغَنِيّ عبد الْخَالِق بعنوان (المُقدّمة الثَّانِيَة) فِي عصمَة ٱلْأَنْبِيَاء: ٨٥ ـ ٢٣٩.

وَالخُلاَصة أنّ المَاركسِية وَقَفت فِي أَقصىٰ اليَسار حِينَ نَفت الطَّبِيعَة البَشرِية الثّابتة مِن الْأَسَاس، ووَقفت ٱلْمَسِيحية فِي أَقصىٰ الْيَمِين حِينَ ٱعتبَرت الْخَطِيئَة طَبِيعَة وعقِيدة، أَمَّا ٱلْإِسْلاَم فَقَد وَقف مُوقِفاً وَسَطاً بَيْنَ المَاركسِية، وٱلْمَسِيحية: وَلَم يَربط الْعَقِيدَة بِهَذه المَسألة مِن قَرِيب، أو بَعِيد بل أَشَار إِلَىٰ طَبِيعَة ٱلإِنْسَان مِن بَاب التّعرِيف، وَالْإِرْشَاد إِلَىٰ الوَاقع، وأنّ كلّ مَوْلُود يُوْلَد عَلَىٰ الْفِطْرَة الصّافِية، أقتباساً مِن الْحَدِيث المروي (كلّ مَوْلُود يُوْلَد عَلَىٰ الْفِطْرَة...).

أُنظر، صَحِيح مُسْلِم: ٤/ ٢٠٤٧ ح ٢٦٥٧، صَحِيح ٱبن حبّان: ٣٣٦/٧ ح ١٢٨، سُنن التِّرمِذي: ٤٤٧/٤ ح ٢١٣٨، سُنن أَبي دَاود: ٢٣٠/٤ ح ٤٧١٦، المُصَنَّف لعبدالرّزاق: ٥٣٣/٣ ح ٦٦١١، الْمُعْجَم الأوسط: ٢٢٧/٤ ح ٤٠٥٠. وَالتّربِية هِي الَّتي تُكدره، وتُلوثه... أَمَّا قَوْله تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾. إِبْرَاهِيم: ٣٤. وَنحوه مِن الْآيَاتِ فَقد أجابُوا عَنْه بأَنّ هَذَا الْحُكْم عَلَىٰ ٱلإِنْسَان إِنّما هُو بِالنَّظر إِلَىٰ بَعْض أفرَاده، لا بِالنَّظر إِلَىٰ طَبِيعَته، وَجِنْسه.

أُنظر، التَّفْسِير الكَاشف: ٢١٣/٤: «إِنَّ ٱلْإِسْلَـم يَنظر إِلَىٰ ٱلإِنْسَان مِن خِلال عَقِيدَته، وَسلُوكه بِصَرف النّظر عَن طَبِيعَته، وَعَلَىٰ هَذَا الْأَسَاس وَحده يَحكم عَلَيْهِ بأنّه صَالح، أَو طَالح، طيّب، أَو خَبِيث».

وَتَسْأَل: إِذَا كَان إِبْلِيسَ قَد تَوَلَّىٰ غوَاية آدَمَ، فَمَن الَّذي تَوَلَّىٰ غوَاية إِبْلِيسَ؟.

الْجَوَاب: ٱلْحَسَد تَوَلَّىٰ غوَاية إِبْلِيسَ، وإِلَىٰ ذَلِكَ أَشَار الْإِمَام عليه السلام بقَوْله: «نَفَاسَةً عَلَيْهِ». وٱلْحَسَد لا يَحْتَاج إِلَىٰ من يتوَلَّاهُ... حَتَّىٰ الْأَطْفَال يَتحاسدُون، وَيَتغَايرُون... ومِن هُنا قَالَ الرَّسُول الْأَعْظَم صلى الله عليه وآله: «وَإِذَا حَسَدت فَلا تَبغ».

أُنظر، تَفْسِير القُرطُبي: ٣٣٢/١٦، فَتح البَاري: ٢١٣/١٠، التَّمهِيد لِابْن عَبدالبر: ١٢٥/٦، شَرْح الزّرقاني: ٣٢٨/٤، تُحفَة الْأَحْوَذي: ٥٥/٦، سُبل السَّلاَم: ١٨٢/٤. نَهىٰ عَن آثَار ٱلْحَسَد، وإِظْهَارها

لَقَد أَمَر الله إبْلِيس بالسُّجُود لآدَم وَتَرَكَه حُرّاً، فَعَصىٰ وَتَلقىٰ نَتِيجَة عُصيَانه، وَلَم يَتُب وَإِنَّما أَصرَّ عَلَىٰ مَوقفهِ فَتَحمّل مَسؤوليَة هَذَا المَوْقف.

كِبْرِيَاء إبْلِيس:

وَفِي الصَّفحَة: (١٠٨ ـ ١١٠) عَالَج المُؤَلّف عَاطِفَة الكِبْرِيَاء عِنْدَ إبْلِيس بإعتبَاره بَطَلاً مَأسَاويّاً. وَيُميّز بَيْنَ نَوعَين مِن الكِبْرِيَاء:

أَحدهُما: الكِبرِيَاء الَّتي تَعْني التَّعجْرف.

وَ**ثَانِيهُما:** الكِبْرِيَاء المَأسَاويَّة. وَيَرىٰ المُؤَلّف أَنَّ كِبْريَاء إبْلِيس مِن النَّوع الثَّاني.

أَمَّا نَحْنُ فَنَرىٰ أَنَّ كِبْرِيَاء إبْلِيس مِن النَّوع الأَوَّل. يَتّضح ذَلِكَ حِينَ نُحَلّل عَاطِفَة الكِبْرِيَاء. إنَّ الكِبْرِيَاء تَعْني رَفض الوَاقع وَالتَّعالي عَلَيهِ. وَلَكن تَارَة يَكُون حقّاً فَتَكُون الكِبْرِيَاء عَجْرَفة. وأُخرىٰ يَكُون الوَاقع فَاسداً وَظَالمَاً وَبَاطلاً وحِينَئذٍ تَكُون الكِبْرِيَاء بطُولَة، وتَكُون تَعْبِيراً عَن الكَرَامَة.

عَلَىٰ هَذَا الضَّوء تَبدُو لنَا كِبْرِيَاء إبْلِيس عَجْرفَة لاَ مُبرّر لَهَا. أَنَّهُ أُمر بالسُّجُود لآدَم مِن قِبل السُّلطَة الَّتي لَهَا حَقّ الأَمر وهِي الله، فَهَذَا إذَن وَاقع، وَهُو وَاقع حَقّ، فَإِنَّ آدَم جَعَله الله خَلِيفَته فِي الأَرْض وَسَخّر جَمِيع القِوىٰ الكَونيَّة ومِنْهَا المَلاَئِكَة وإبْلِيس لخِدمَته وَمعُونَته عَلَىٰ بلُوغ الكمَال فِي تَحقِّيق هَذِهِ الغَايَة، وَلَكنَّ إبْلِيس غُرُوراً مِنْهُ، رَفَض الإِنْصِيَاع إِلَىٰ هَذَا الوَاقع، وَلَم يَسْتَجب لَهُ، فكَان تَكَبرهُ عَجْرَفَة

↔ فِي قَولٍ، أو فِعلٍ، وَلَم يَنهِ عَن ٱلْحَسَد بِالذَّات، لأَنّه تَكلِيف بِغَير المَقدُور. أُنظر، ظلاَل نَهْج البَلاَغَة شَرْح العَلاَّمَة الشَّيخ مُحَمَّد جوَاد مُغنيَّة: ١/١٢٥، بتَحقّيقنَا. «بِتَصرّف».

سَخِيفَة ، بَيْنَما كَان ٱعترَاف آدَم بوَاقعهِ فَضِيلَة خَلّصَتهُ مِن الذَّنْب وَالمَعْصيَة[١] .

---

(١) الْعِبَر فِي قِصَّة آدَمَ، إبْلِيسَ:

١ ـ إنَّ كلّ مَن حَقد عَلَىٰ ذِي فَضل لِفَضله ، أو صَاحب مكَانة لِمَكانته ، أَو عَادىٰ إنْسَانَاً لُمجَرد المُزَاحمة ، أَو المُشَاركة فِي الرّيَاسَة ، وَالمِهنَة فهُو عَلَىٰ دِين إبْلِيسَ وَمَبدَئه ، وَيُحشر يَوْم ٱلْقِيَامَة فِي زُمرَته .

٢ ـ إنَّ الطَّرِيق لِمَعرِفة الدِّين ، وَالخُلق ٱلْكَرِيم وَاحد فَقط ، وَهُو الثَّبات عَـلَىٰ الْـحَقِّ عِـند الإبْـتلاَء ، والّتمسك بهِ مَهما تَكُن النّتائج ، فَلَقد كَان إبْلِيسَ مَضرب المَثل فِي الخشُوع ، والْعِبَادَة ، ثُمَّ ٱنْتَهىٰ أَمْرِه إلَىٰ مَا ٱنْتَهىٰ حِينَ ٱمْتَحَنه الله ، وأَمْره بِالسّجُود لآدَم .... وَمَن يَعبد الله ويَخْشَع ، لْأَنّه يَسـمع كَـلمَات المَدِيح ، والْإِطْرَاء عَلَىٰ خشُوعه وتوَاضعَه ، فإذَا مُحصّ بِالبَلاء أَعرَض عَن الْحَقِّ ، وَكَفَرَ ـ فهُو مِن جنُود إبْلِيسَ وَأتْبَاعه .

٣ ـ إنَّ كَثِيراً مِن النَّاس يَصرّون عَلَىٰ ٱلْبَاطِل لاَ لِشيء إلّا عِنَاداً لِخَصمهِم ، وَنِكَاية بِهِ ، وَهُم يَعْلمُون عِلم الْيَقِين إنَّ هَذَا الْإِصْرَار يَعود عَلَيْهِمْ بِأسوَأ ٱلْعَوَاقِب ، وَأوْخَمها ، وَهَذَا هُو شَأن إبْلِيسَ بالذَّات ، أصَّر عَلَىٰ مَعْصِيَة الله ، وهُو يَسمع تَهدِيده وَوَعِيده مُبَاشرة ، وَبِلا وَاسطة : ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ . سُورَةُ صٓ : ٨٥ . وأَقدَم عَلَىٰ عذَاب جَهَنَّمَ ، وَلَعنة الله ، وَلَعنة اللّاعنِين ، وهَانَ عَلَيْهِ كُلّ شيء إلّا الخضُوع ، والسّجود لآدَم ، والتّنازل عِن كِبرِيَائه .

إنَّ الله سُبْحَانَهُ يَقبل ٱلتَّوْبَة مِن إبْلِيسَ إذَا تَاب ، وأَخْلَص ، وأيضاً إبْلِيسَ عَلَىٰ أتَم الْإِسْتعدَاد لْأَنْ يَتُوب ، وَيخُلصّ ، وَلكنْ بِشَرط أنْ لاَ يأَمْرِه الله ثَانِيَة بالسّجُود لآدَم ، أَو لِغَيره ـ عَلَىٰ الْأَصَح ـ والله سُبْحَانَهُ لاَ يَقبل ٱلتَّوْبَة إلّا بِهَذَا الشّرط .

وَمَن دُعي إلَىٰ خَير ، وَقَالَ : أسْتَجِيب لكلّ شَيء إلّا لهَذا ، لْأَنّ فِيهِ إعزَازاً لزَيد ، أَو مَساً بِشَخصِيتي فهُو عَلَىٰ مَبدأ إبْلِيسَ وَمُقلد لهُ ، أرَاد ذَلِكَ أَم لَم يُرد .

هَذِه بَعْض العِبر ، والعِظات فِي قِصَّة إبْلِيسَ مَع آدَمَ ، وعَلينا أَنْ نَقرأهَا ، ونُكرّر قرَاءتهَا بِتَدبر ، وإمعَان ، والْعَاقِل مَن ٱتّعَظ بِالغَير ، وٱنْتَفع بِالعِبر .

(ثُمَّ أَسْكَنَ سُبْحَانَهُ آدَمَ دَاراً أَرْغَدَ فِيْهَا عَيْشَهُ) . وكُلّ نَعِيمٍ دُونَ ٱلْجَنَّةِ فَهُوَ مَحْقُورٌ ، (وَحَذَّرَهُ إبْلِيسَ ، وَ عَدَاوَتَهُ) . ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَـٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾ . فَاطِرٍ : ٦ .

(فَٱغْتَرَّهُ عَدُوُّهُ) . أي أَنّ إبْلِيسَ غَرَّر بآدَم . وَقَالَ الشّيخ مُحَمَّد عَبْدَه : ٱنْتَهز إبْلِيسَ مِن آدَمَ غِرّة فَأغوَاه ، وكلّ مِن التّفسِيرِين صَحِيح . والغِرة ـ بِكَسر الغِين ـ الغَفْلَة (نَفَاسَةً عَلَيْهِ بِدَارِ الْمُقَامِ) . أي حَسداً لآدَم عَلَىٰ ↔

↔ الخلُود فِي ٱلْجَنَّة (وَمُرَافَقَةِ الأَبْرَار). وَهُم ٱلْمَلاَئِكَة.
(فَبَاعَ الْيَقِينَ بِشَكِّهِ). أَي نَقض الْيَقِين بِالشَّك، والْمُرَاد بالْيَقِين هُنا عِلم آدَمَ بِالنَّهي عَن الشَّجَرَة. والْمُرَاد بِالشَّك أَنّ آدَمَ بَعد أَنْ كَان عَلَىٰ يَقِين مِن أَنّ النّهي حَتم وإلزَام ـ اَحتَمل إِنّ هَذَا النّهي لِغَير الحَتم، والإِلزَام، إِبْلِيسَ هُو الَّذي أَوحىٰ إِلَيْهِ بِهَذا الإِحْتِمال... هَذَا مَا يَدل عَلَيْهِ سِياق الكَلاَم، وظَاهره، أَو مَا نَفْهمه نَحْنُ (وَالْعَزِيمَةَ بِوَهْنِهِ). أَي ضَعفه الَّذي أَدىٰ بِهِ إِلَىٰ نَقض الْيَقِين بِالشَّك، وهُو تَفْسِير لقَوْله تَعَالَىٰ: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِىَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا﴾. سُورَةُ طَه: ١١٥.
(وَٱسْتَبْدَلَ بِالْجَذَلِ) الفَرح (وَجَلًا) ٱلْخَوْف (وَبِالاِغْتِرَارِ نَدَماً). وهَكذا عَاقِبَة التَّفْرِيط (ثُمَّ بَسَطَ اللهُ سُبْحَانَهُ لَهُ فِي تَوْبَتِهِ). وَفَتح بَاب ٱلتَّوْبَة حَتم، وَسَده ظُلم مَا دَام ٱلإِنْسَان بِطَبعه غَيْر مَعْصُوم (وَلَقَّاهُ كَلِمَةَ رَحْمَتِهِ، وَوَعَدَهُ الْمَرَدَّ إِلَىٰ جَنَّتِهِ). وَلَكنْ جَعل الطَّرِيق إِلَيْهَا مَحفُوفاً بِالمكَاره: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَـٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّـٰبِرِينَ﴾. آلِ عِمْرَانَ: ١٤٢.
(وَأَهْبَطَهُ إِلَىٰ دَارِ الْبَلِيَّةِ، وَتَنَاسُلِ الذُّرِّيَّةِ).
وَعَمليّة التّنَاسل سَهلة جِدّاً، بَل وَلذِيذَة أيضاً، وَلكنْ عَاقِبتها كَارثَة بخاصَّة فِي هَذَا العَصر الَّذي نَعِيش فِيهِ... وَنُشِير إِلَىٰ هَذِه النُّكتَة الَّتي تَخْلط الجدّ بِالهَزل، قَالهَا فِيلسُوف ظَرِيف: أَكلَ آدَمَ مِن الشَّجَرَة عَن قصدٍ، وَعمدٍ، لأَنّه مَلَّ حَيَاة الفَرَاغ، والبَطَالَة، وآثَر المتَاعب، والآلاَم مَع الجدّ وٱلْعَمَل عَلَىٰ الدِّعَة، والرّفَاهيَة مَع البَطَالة، والكَسَل... ولمَاذا العَضلاَت وَالمَقدرة عَلَىٰ الأَعْمَالِ مَا دَام ٱلإِنْسَان بلاَ عَمل؟. وَهل هُو فِي حَاجَة إِلَىٰ أَكْثَر مِن مَعِدَة تَمتَلىء، وَتَهضم، وَلِسَان يَهذر، وَيُثر ثر. أُنظر، ظلاَل نَهج البَلاَغَة شَرْح العَلاَّمَة الشَّيخ مُحَمَّد جوَاد مُغنيَّة: ١٢٢/١، بتَحقِّيقنَا. «بِتَصرّف».

بَيْنَ قِصّة إِبْرَاهِيم وَقِصّة إِبْلِيس

فِي الصِّفحَات: (٩٩ ـ ١٠٠ و ١٠٢ ـ ١٠٣ و ١١٢ وَمَا بَعْدهَا) قَارَن المُؤَلّف بَيْنَ قِصّة إِبْرَاهِيم فِي أَمْرَه بذَبح وَلَده، وبَيْنَ قِصّة إِبْلِيس فِي أَمْرَه بالسُّجُود. وَخَرج مِن هَذِهِ المُقَارنَة بأَنَّ قِصّتي إِبْلِيس وإِبْرَاهِيم مُتْشَابهتَان فِي أَنَّ كُلّ وَاحدَة مِنْهُمَا مَأسَاة، إِلاَّ أَنَّ العُنْصر المَأسَاوي فِي قِصّة إِبْلِيس أَبلَغ وأَعْظَم.

ونَحْنُ نَرىٰ أَنَّ المُؤَلّف مُخطيء فِي المُقَارنَة، وَبالتَالي فَهو مُخطيء فِي الإِسْتنتَاج، لأَنّه لَيْسَ ثَمَّة أَيّة عِلاَقَة بَيْنَ قِصّة إِبْرَاهِيم وبَيْنَ قِصّة إِبْلِيس، بَل نُلاَحظ أَنَّ بَيْنَهُما جُملَة مِن الفوَارق:

الأَوَّل: أَنَّ أَمْر إِبْرَاهِيم بذَبح وَلَده إِسْمَاعِيل كَان أَمرَاً ٱمتحَانيَّاً (كَمَا ٱنْكَشَف فِيمَا بَعْد ـ ﴿وَفَدَيْنَـٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ﴾[1] والأَمر االإِمْتحَاني يُرَاد مِنْهُ ـ كَمَا ذَكرنَا آنفَاً ـ تَربيَة إِرَادَة إِبْرَاهِيم وإِسْمَاعِيل عَلَىٰ الطَّاعَة المُطْلَقَة وَالإِذعَان التَّام للإِرَادَة الإِلٰهيَة مِن جِهْة، وَإِظهَار فضَلهُما للمُجْتَمع بإِنقيَادهُما التَّام لإِرَادَة الله تَعَالىٰ مِن جهَة أُخرىٰ.

وَأَمّا أَمر إِبْلِيس والمَلاَئِكَة بالسُّجُود لآدَم فكَان تَكلِيفَاً حَقِيقيَّاً يُرَاد مِنْهُ تَحقّيق مَضمُونه فِي الخَارج، وَتَحويلَه إِلَىٰ عَمْل مُعَاش.

---

(١) ٱلصَّافَّات: ١٠٧.

الثَّاني : أَنَّ إِبْرَاهِيم حِينَ تَلَقىٰ الْأَمر الْإِلٰهي بذَبح وَلَده (وَلَم يَكذن يَعْلَم أَنَّهُ أَمر ٱمْتحَاني بطَبيعَة الحَال) سُرعَان مَا عَزَم عَلَىٰ تَنْفِيذ هَذَا الْأَمر . قَالَ الله تَعَالىٰ فِي حكَايَة حَال إِبْرَاهِيم فِي مَوقفهِ ذَاك :

﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ قَالَ يَـٰبُنَىَّ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ فَـانظُرْ مَـاذَا تَرَىٰ قَالَ يَـٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّـٰبِرِينَ فَلَمَّآ أَسْلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ﴾[1] .

أَمَّا إِبْلِيس فَحِينَ تَلقَىٰ الْأَمر الْإِلٰهي بالسُّجُود ، رَفَض إِطَاعَة هَذَا الْأَمر ، وَلَـم يَرفض لْأَنّه حَرِيص عَلَىٰ التَّوحِيد المُطلَّق ـ كَمَا يُكرّر المُؤَلّف الَّذي بَـيْنَّا خَـطَأ نَظرِيته هَذِهِ :

أَوَّلاً : لْأَنَّ السُّجُود المَأمُـور بـهِ لاَ يُـنَافِي التَّـوحِيد ، ولذَلِكَ بَـقي المَـلاَئِكَة مُوحدِين بَعْد أَنْ سَجدُوا .

وَثَانِيَاً : لْأَنَّ إِبْلِيس لَمْ يُعَلّل مَوقِفه السَّلبِي بِـهَذِهِ العِـلّة ، وَإِنَّـمَا عَـلَّل مَـوقِفه بِالعُنصريَّة ، وَالتَّكبر ، وَٱحتقَار آدَم .

الثَّالِث : أَنَّ عَاقِبَة ٱنقيَاد إِبْرَاهِيم لتَنفِيذ الْأَمر الْإِلٰهي هِي الكَرَامَة والسَّعَادَة ، قَالَ الله تَعَالىٰ :

﴿فَلَمَّآ أَسْلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ وَنَـٰدَيْنَـٰهُ أَن يَـٰٓإِبْرَٰهِيمُ قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ إِنَّـا كَـذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ إِنَّ هَـٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَـٰٓؤُا۟ ٱلْمُبِينُ وَفَدَيْنَـٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْأَخِـرِينَ سَـلَـٰمٌ عَـلَىٰٓ إِبْـرَٰهِـيمَ كَذَٰلِكَ نَـجْزِى ٱلْـمُحْسِنِينَ إِنَّـهُۥ مِـنْ عِـبَادِنَا

---

(١) ٱلصَّافَّات : ١٠٢ ـ ١٠٣ .

ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[١].

هَذِهِ هِي عَاقِبَة إبْرَاهِيم. أَمَّا عَاقِبَة إبْلِيس فكَانَت عَلَىٰ العَكس مِن ذَلِكَ: لَعنَة، وَطَرداً وَرَجماً.

وإخْتلاَف النَّتِيجتَين لَيْسَ إلاَّ لإختلاَف المَوقفَين: مَوقِف إبْرَاهِيم مَوقِف الطَّاعَة، ومَوقِف إبْلِيس مَوقِف الجُحُود والطُّغيَان.

إذَن لاَ عِلاَقَة بَيْنَ قِصّة إبْرَاهِيم الَّتي هِي قِصّة القَداسَة والطَّاعَة المُطْلَقَة، وبَيْنَ قِصّة إبْلِيس الَّتي هِي قِصّة الجُحُود، وَالعصْيَان، وَالجَرِيمَة[٢].

---

(١) ٱلصَّافَّات: ١٠٣ ـ ١١١.

(٢) أَنّ الدَّلِيل الَّذي يَحتج بِهِ سُبْحَانَهُ عَلَىٰ الْجَاحِدِين بوجُوده، ووجُوب الإيمَان بِهِ هُو نَفس الدَّلِيل الَّذي يَستدلُون بِهِ عَلَىٰ وجُود الأَشْيَاء، والتّصدِيق بهَا فِي حيَاتهم اليَومِية، وأعْني الْجَاحِدِين ـ أَنّهم إذَا رَأوا بأعْينهُم كتَاباً، مَثلاً، تَجزم، وتَحكم عُقُولِهِمْ بوجُود المُؤلّف، فيُؤْمِنُون، ويُصَدّقُون، وَإذَا سَمعوا بآذَانِهم كَلاَماً من وَرَاء حجَاب آمنُوا بوجُود المُتكَلّم؟. والله سُبْحَانَهُ يَقول للجَاحدِين: لقَد رَأيتُم بِأعينكُم الكَوْن، وَمَا فِيهِ من نظَام، وأَحْكَام، كمَا رَأيتُم ٱلْكِتَاب، وسَمعتُم المُتكَلّم، وعقُولكُم فِي وَاقعهَا، وطَبِيعَتها تَحكُم بوجُود المُكوِّن بَعد أَنْ رَأت الْعُيُون الكَوْن، بَل الدَّلِيل هُنَا أوْضَح، وَأَقوىٰ. وإذَنْ مَا هُو المُسوغ للجحُود، والإنْكَار؟ وكَيْفَ ٱعتَمدتُم عَلَىٰ مَنطق ٱلْحِسّ، وٱلعَقْل فِي إثبَات مَا أَثبتُّموه، ولَم تَعتمدُوا عَلَىٰ هَذَا المَنطق نَفْسه فِي إثبَات الْخَالِق، والتّصدِيق به؟. وَمَا هُو المُبرّر لِهَذَا التّنَاقض، وفَصل الشّيء عَن نَفْسِه؟ فإنْ كَانَ مَنطق ٱلْحِسّ، وٱلْعَقْل حُجّة فِي إثبَات الشّيء، والتّصدِيق بِهِ فَهُوَ حُجّة فِي كلّ مَورد حَتَّىٰ فِي دَلاَلَة الكَوْن عَلَىٰ المُكوِّن، بَل هُو هُنَا أدَلّ، وَأقوىٰ. وَإنْ لَم يَكُنْ هَذَا المَنطق حُجّة فِي إثبَاته تَعَالَىٰ عَلَىٰ الرّغم مِن رُؤيَة الكَوْن، ونظَامه ـ فَلا يَكُون حُجّة أَيضاً فِي أي شَيء مِن الأَشْيَاء، والقَوْل بالفَصل، والتَّجزئَة جَهالة، وَضَلالَة... وَهَذَا الرّد، والإلزَام يُقر بِه قَلب الجَاحد، ويَطمَئن إلَيْهِ، وإنْ أنكَره بلسَانه. تَعَالَىٰ اللهُ عَمَّا يَقُولُهُ الْجَاحِدُونَ لَهُ عُلوّاً كَبِيراً.

لَقَد يَحْدث أَخيراً أَنْ يَكْتفي المَرء ـ وهُو يُودّي وَاجبَاته الأَسَاسيَّة، وَيَطرح الذّنُوب الفَاحشَة ـ بهَذَا المُستَوىٰ المُتوَاضع للرَّجُل الطّيب، وَمَعنىٰ ذَلِكَ أَنّه بَدأ ـ دُون شَكّ ـ بتَثْبِيت مَثَله الأَعَلىٰ عِند دَرجَة ↔

وإِلَىٰ اللّقَاء مَع المُؤَلّف فِي الحَدِيث عَن «المَكْر الإِلٰهي».

↔ مُتوسطَة. هِي أَقصىٰ مَا يبلُغه الجُهد المُعْتَدل. وَهُو خَطَأ يَخْتَلط بِهِ «الهَدف» و «العَمَل».
إِنّ اَعتدَال العَمل لاَ يَنْبَغي أَنْ يتَأتّىٰ، وَلاَ يُمكن أَنْ يُنَال، إِلّا عَلىٰ أَسَاس بِنيّة تَسْتَهدف أَعْـلىٰ قِـيمَة، وَأَسمىٰ دَرجَات الكَمَال. وَأي حَدّ يَهْبط عَن هَذَا المُستَوىٰ سَـتَكُون لهُ بـالضَّرورَة إِنـعكَاسَاته عَـلىٰ الإِرَادَة، التّوقف، وَالتّنَاقص، وَالكفَاف.

المَكْر الإِلٰهي

المَكْر الإِلٰهي

حَاوَل المُؤَلّف فِي الصَّفحَات: (١١٩ ـ ١٢٨) «إيجَاد تَعْلِيل دِيْني مَقبُول» لمَا فَهْمَه ـ خَطأً ـ مِن قِصّة إِبْلِيس. وبَعْد أَنْ آستَعرض فِي الصَّفحَات: (١١٩ ـ ١٢٠) مَا سمَّاه «المُفَارقَات» فِي قِصّة إِبْلِيس، وَعِلاَقَته بالله، قَالَ: «أَعْتَقد أَنَّ الصِّفَة الإِلَهيَّة الَّتي نَبْحث عَنْهَا للإِجَابَة عَلَىٰ هَذِهِ الأَسئلَة هِي صِفَة المَكْر».

ثُمَّ عَرَض بَعْض الآيَات الَّتي وَرَد فِيْهَا لفَظ المَكْر، والإِسْتهزَاء، وَالإِملاَء، والخَدِيعَة. وَآستَخلص مِنْهَا أَنَّ الله يَمْكر بعبَاده و «لَم يَكُن أَمر الإِبْتلاَء إِذَن سِوىٰ أَدَاة المَكْر الإِلٰهي، غَايَتهَا تَنْفِيذ أَحكَام المَشِيئَة، وَتَبريرهَا أَمَام مَخلُوقَاته، فَتَصبَح بَذَلِكَ مَقبُولَة فِي أَعيُنهِم (...) وَلَكنَّ المَكْر الإِلٰهي يَتَدخل ليَجْعَل الأُمُور تَبدُو للعِبَاد فِي غَير مَاهِي عَلَيهِ، أَي ليَجعَل المَشيئَة وَكَأَنَّ لَهَا غَايَات وَمُبرّرَات وَأَسبَاباً (...) رَدّدنَا مرَاراً أَنَّ الله هُو صَانع الخَير وَالشَّر (...) وَلَكن مِن مَكْرِهِ أَرَاد للعِبَاد أَنْ يَعْتَقدُوا غَير ذَلِكَ...»[1].

وَقَد عَزَّز المُؤَلّف هَذِهِ الأَحْكَام الإِعْتبَاطيَة الَّتي لاَ أَسَاس لَهَا مِن الصّحَة إِطلاَقاً بالإِستشهَاد بِالنّصُوص الصُّوفِيَّة وَمَا يُسمىٰ بالأَحَادِيث القُدسيَّة، وَقَد نَبْهنَا فِيمَا

---

(١) أُنظر. الصَّفحَات: (١٢٣ ـ ١٢٥). (مِنْهُ ﷺ).

سَبق عَلَىٰ أَنَّ هَذِهِ الشَّوَاهد عَدِيمَة القِيمَة مِن حَيْث كَونهَا مَصْدَر لفَهم القِصّة القُرْآنيَّة.

يَبدُو الله فِي الْإِسلاَم مِن خِلاَل اسْتنتَاجَات المُؤَلّف بَعْد «اكْتشَافة» لِـلمَكْر الْإِلٰهي ـ يَبدُو الله كَائنَاً شرّيرَاً، مُخَادعَاً، عَابثزاً، لاَعبَاً. يَبدُو الله وَكأَنّه أَحد آلهَة اليُونَان القَدِيمَة فِي أَنَّ فِيهِ كَثِيراً مِن نقَائِص البَشر، وَلَيْسَ فِيهِ الكَثِير مِن كَمَالاَتهِم.

وَالمُؤَلّف مُخطيء فِي بَحْثه، وفِي فَهْمَه لمَا أَسمَاه «المَكْر الْإِلٰهي»، وَفِي اسْتنتَاجَاته أَخِيرَاً بطَبِيعَة الحَال.

وَلَكن مِن أَينَ جَاء الخَطَأ؟.

لَقَد قُلتُ أَكْثَر مِن مرّة فِي الحَلقَات المُتقدّمَة مِن هَذَا البَحْث أَنَّ المُؤَلّف جَاهل بمَوضُوع نَقْده، وَهُو الدِّين الْإِسْلاَميّ، وَأُضِيف هُنَا إِلَىٰ مَا تَقَدّم أَنَّ المُؤَلّف غَير مُتَمكّن ـ بصُورَة بَاعثَة عَلَىٰ الْأَسف ـ مِن لُغَة القُرْآن وأَسَالِيبَه البَلاَغيَّة.

هُو غَير مُتَمكّن مِن اللُّغَة العَربيَّة، وَدَلِيلي عَلَىٰ ذَلِكَ كَثرَة الْأَخْطَاء الَّتي يَقع فِيْهَا بإستمرَار. وَلَو كَان المُؤَلّف يَكتُب بلُغَة غَير لُغزته لمَا اُغتفر لَهُ ذَلِكَ، لْأَنّه يَكتُب فِي مَوْضُوع مِن أَخطَر مَوضُوعَات الفِكْر الْإِنْسَاني، فَكَيف وَهُو يَكْتُب بلُغَته هُو، لُغَة بزلَده وَقَومه، ويَتنَاول بكتَابتهِ نَقْد نُصُوص مَكْتُوبَة باللُّغَة نَفْسهَا.

عَن أَي شَيء يَكْشف هَذَا؟ أَنَّهُ يَكْشف عَن أَنَّ عَقل المُؤَلّف قَد تَكوّن فِي منَاخ غَير عَربي، وَيُبَرّر لنَا القَول بأَنَّ المُؤَلّف لَيْسَ مُؤهلاً للكتَابَة عَن نَقْد الفِكْر الدِّينيّ الْإِسْلاَميّ.

وَهُو غَير مُتمَكّن مِن لُغَة القُرْآن وأَسَالِيبَه البَلاَغيَّة، وَدَلِيلي عَلَىٰ ذَلِكَ كَثِير مِن الشَّوَاهد الصَّغِيرَة الَّتي مرّت عَليّ فِي كتَابه، وَدَلِيلي الكَبِير عَلَىٰ ذَلِكَ بَحْثَه عَن المَكْر الْإِلٰهي، مَوْضُوع حَدِيثنَا الْآنْ. إِنَّ القُرْآن لَيْسَ كَلاَمَاً بَسِيطَاً عَاديَّاً ليُمكن

تَنَاوله ، وفَهْمَه ببَسَاطَة وَكَأَنَّنا نَتَحدث مَع بعَضنَا ، أَو كَأَنَّنا نَقرَأ جَرِيدَة . إِنَّ القُرْآن عِنْدَ المُؤْمِن بهِ وَحي إِلٰهي مُعْجِز فِي بلاَغَته ، وعِنْدَ غَير المُؤْمِن بـهِ كَـلاَم يُـعتَبر نَمُوذجَاً أَعْلَىٰ للبَلاَغَة العَربيَّة ، وَلِذَا فَلاَبُدّ ـ لأَجْل فَـهْمَه بشَكـلٍ صَـحِيح ـ مِـن الإِحَاطَة التَّامّة بقوَاعد البَلاَغَة العَربيَّة ، وأَسَالِيب البَـيَان العَـرَبي . إِنَّ أَي أُسـتَاذ للأَدَب لاَ يَجرؤ عَلَىٰ تَنَاول نَصّ أَدَبي عَادي بالنَّقد مَا لَم يَتّخذ لَهُ أُهْبَته ، وَيَستَعد لَهُ بمَا يُلزمه مِن مَعْرِفَة ، فَكَيف بالمؤلّف وَهُو يَتنَاول النُّصُوص القُـرْآنيَّة دُون أَنْ يَملك الأَدَاة الَّتي تَجعَله قَادرَاً عَلَىٰ فَهمهَا بصُورَة صَحِيحَة .

وَثمَّة شيء أَسَاسي آخر يَجْب أَنْ يَتَحلىٰ بهِ البَاحِث ـ نَاقدَاً كَان أَو غَير نَاقد ـ عِندَمَا يَتنَاول نصّاً مِن النُّصُوص ، وَهُو الأَمَانَة الفِكْريَّة : يَجْب أَنْ يَعرض النَّـص بتَمَامه ليُحِيط بجَمِيع عَنَاصره ، وَيَفهم جَمِيع عِلاَقَاته الدَّاخليَّة ، وبَذَلِكَ يَستَطِيع أَنْ يُكوّن عَنْهُ فِكرَة صَحِيحَة أَو مُقَاربة . أَمّا أَنْ يَبْتَر النَّص ، وَيَختَار مِنْهُ المَقْطَع الَّذي يُؤيّد هَوَاه ، فَهَذَا لَيْسَ مِن الأَمَانَة الفِكْريَّة فِي شَيء . أَنَّهُ أَحَق أَنْ يُسمىٰ تَـزوِيرَاً فِكريَّاً . وَسَنَرىٰ فِي هَذَا الحَدِيث أَنَّ الأَمَانَة الفِكْريَّة كَانَت عُـنصرَاً مَـفقُودَاً عِـنْدَ المُؤَلّف ـ رُبَّما بِسَبب عَدَم تَمَكنه مِن لُغة القُرْآن ، وأَسَالِيبه البَلاَغيَّة ـ فإِنَّهُ فِي نَقْله للآيَات القُرْآنيَّة الَّتي جَعَلهَا شَوَاهد عَلَىٰ « اكتشَافه » لِلمَكْر الإِلٰـهي ، لَـم يَـنْقل النُّصُوص كَاملَة ، وَإِنَّما وَقع إِختيَاره مِنْهَا عَلَىٰ مقَاطِع مُعَيَّنَة تَوهَمَّ أَنَّها تُؤيّد هَوَاه وَنَظريته ، وَعزَلَهَا عَن عِلاَقَاتهَا بغَيرهَا مِن المَقَاطع الأُخرىٰ فِي النَّص الَّذي تَنَاول الوَاقعَة .

* * *

لَقَد وَرَدَت مُشْتقَات مَادّة (م . ك . ر) فِي سِتٍ وَعشرِين آيَـة مِـن القُـرْآن ،

وذَلِكَ فِي السُّوَر التَاليَة:

«آل عِمْرَان . الأَنْعَام . الأَعْرَاف . الأَنفَال . يُوْنُس . يُوسُف . ٱلرَّعَد . إِبْـرَاهِـيم . ٱلنَّحل . النَّمل . المُؤْمِن . نُوح . فَاطر . سَبَأ» .

وَمُشْتقَات هَذِهِ المَادّة لَيْسَت مُضَافَة إِلَىٰ الله تَعَالىٰ فِي جَمِيع موَاردهَا، وَإِنَّـما هِي مُضَافَة إِلَىٰ الله بشَكلٍ أَو بآخر فِي سِتِ آيَات فَقَط، وهِي الآيَات التَاليَة:

١ ـ فِي شَأن عِيْسَىٰ عليه السلام، وإِرْسَالَه إِلَىٰ بَني إِسْرَائِيل، وَدَعوَته لَهُم إِلَىٰ الإِيمَان، وَكُفرهُم بهِ: ﴿وَمَكَرُواْ وَمَكَرَ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَـٰكِرِينَ﴾[1].

٢ ـ فِي شَأن أَهْل القُرىٰ: ٱبتدَاءً مِن الآيَة (٥٩ ـ ٦٤ الأَعْرَاف) ذَكَر الله طَرَفاً مِن قِصّة نُوح مَع قَومهِ، وَكُفرهم بهِ وعقَابِهْم.

وفِي الآيَات (٦٥ ـ ٧٢) ذكَر الله طرَفاً مِن قِصّة النَّبيّ هُود مَع قَـومهِ عَـاد، وَكَفرهم بهِ، وَعقَابِهْم.

وفِي الآيَات (٧٣ ـ ٧٩) ذكَر الله قِصّة النَّبيّ صَالِح مَع قَومه ثَمُود وَكَفرهم بهِ.

وفِي الآيَات (٨٠ ـ ٨٤) ذكَر الله طَرَفاً مِن قِصّة النَّبيّ لُوط مَع قَومهِ وَكفرهم بهِ وَعقَابِهْم.

وفِي الآيَات (٨٥ ـ ٩٣) ذكَر الله طَرَفاً مِن قِـصّة النَّـبيّ شُـعَيب مَـع قَـومه، وَإِنقسَامهم بَيْنَ الكُفر والإِيمَان، وَعقَاب الكَافِرين مِنْهُم.

وفِي الآيَات (٩٤ ـ ٩٥) ذكَر الله قَاعدَة عَامّة فِي الرُّسُل وَالأَنبيَاء مَع أَقوَامهِم، وكَيْف يُربي الله الإِنْسَان ليَعي ويُؤمِن، ثُمَّ بَعْد هَذَا البَيَان عَن أَهْل القُرىٰ، قَالَ الله تَعَالىٰ:

---

(١) الأَعْرَاف: ٥٤.

﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَـٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَـٰكِن كَذَّبُوا۟ فَأَخَذْنَـٰهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ أَفَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَـٰتًا وَهُمْ نَآئِمُونَ أَوَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ أَفَأَمِنُوا۟ مَكْرَ ٱللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ﴾(١).

٣ ـ فِي قَوْم ثَمُود وَنَبِيّهم صَالِح، وَدَعوَته لَهُم إِلَىٰ الإِيمَان وَكُفرهُم بِهِ وتَآمرهُم عَلَىٰ قَتْله:

﴿وَمَكَرُوا۟ مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَـٰهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ﴾(٢).

٤ ـ فِي شَأن النَّبيّ مُحَمَّد ﷺ وقُرَيْش، وتَآمرهُم عَلَيهِ، ونجَاته مِنْهُم بالهِجرَة إِلَىٰ المَدِينَة:

﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَـٰكِرِينَ﴾(٣).

---

(١) ٱلأَعْرَاف: ٩٦ ـ ٩٩.

(٢) ٱلنّحل: ٥٠ ـ ٥١.

(٣) ٱلأَنْفَال: ٣٠.

دَار النَّدوة: هِي دَار قُصي بن كلاَب الَّذي كَانَتْ لهُ رِئَاسة عَامّة، وزعَامَة مُطلقة عَلىٰ قُرَيْش، فاَتخَذُوا دَاره مَركزاً لهُم، واَستمرّوا عَلىٰ ذَلِكَ بَعد وفَاته، وقِيل: إنّها أَوّل دَار بُنِيت بِمَكَّة، وسُمّيت بِالنَّدوة لأَنَّهم كَانوا يَنتَدُون بِها ـ أي يَجْتمعُون فِيها للخِير والشَّرّ ـ وفِيها تَقضي قُرَيْش أُمُورها، فمَا تُنكح امرأة ولا تُدرع جَارِية ولا يَتزوج رَجُل من قُرَيْش ولا يَتشاورون فِي أمرٍ نَزَل بِهِمْ إلاّ فِيها.

(أنظر، طَبقَات اَبن سعد: ١/ ٧٠ و ٧٧، السِّيرَة لِاَبْن هُشام: ١/ ١٣٠، فتوح البلدان للبلاذري: ٧٠، تَأريخ الطَّبَري: ٢/ ٢٥٨).

٥ ـ ٱبتدَاءً مِن أَوَّل سُورَة يُونُس يَعرض الله تَعَالىٰ صُوراً مِن مَوَاقف المُشْرِكِين مِن النَّبيّ ﷺ والقُرْآن وَيُذَكّر المُشْرِكِين بمَا حَدَث لأَسلافهم مِن مُكَذّبي

⇔ وقِيل : كَان ٱجتمَاعهم هُنا أَرْبَعِين رَجُلاً ، وقَالُوا بِأَجْمَعهُم : أَنْ يَجتمع مِن كلّ بَطن مِن بطون قُرَيْش رَجُل شريف ويَكُون مَعهم مِن بَنِي هَاشم وَاحد فيَأخذُون حَدِيدة أو سَيْفاً ويَدخلون عَلَيْهِ فَيضربُونه كُلّهم ضَربةً وَاحدة فَيَتفرّق دَمَه فِي قُرَيْش كُلّها فَلا يَسْتَطِيع بنُو هَاشم أنْ يَطلبوا بِدَمه ، فَٱختاروا خَمْسَة عَشر رَجُلاً فِيهِمْ أَبُو لَهب عَلَىٰ أنْ يَدخلوا عَلىٰ رَسُول الله فَيَقتلونَه ، فَأنزل الله سُبْحَانَهُ وتَعَالىٰ عَلىٰ رَسُوله ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ﴾ (ٱلْأَنفَال : ٣٠) . فَأمر رَسُول الله ﷺ أنْ يُفرش لهُ ، وَقَالَ لِعَليّ عليه السلام : يَا عَليّ أفدنِي بِنَفْسَك ، قَالَ : نَعم يَا رَسُول الله ، قَالَ لهُ : نَمْ عَلىٰ فِرَاشي وٱلتّحف بِبُردي . فنَام عَليّ عليه السلام عَلىٰ فِرَاش رَسُول الله ﷺ وٱلتَّحف بِبُردته .

وقِيل : إنّ الله أوحىٰ فِي تِلك اللَّيْلَة إِلىٰ جِبْرِيل ومِيَكائِيل : إنّي قَضِيت عَلىٰ أحدكُما بِالمَوْت فَأيكُما يوَاسِي صَاحبه فَٱختَار الحيَاة كِلاهما . . . وسَاق الحَدِيث وخَرج رَسُول الله ﷺ عَلَيْهِمْ وهُو يَقرأ «يَس» إِلىٰ قَوْله : ﴿وَجَعَلْنَا مِن م بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَـٰهُمْ فَهُمْ لَايُبْصِرُونَ﴾ (يَس : ٩) . وأَخذ تُرَاباً بِكفّه ونَثَره عَلَيْهِمْ وهُم نِيام ومَضىٰ . فقَال لهُ جِبْرِيل : يَا مُحَمّد خُذ نَاحِية ثور ـ وهُو جَبل عَلىٰ طَرِيق مِنىٰ لهُ سِنام كَسنَام الثّور ـ فمرّ رَسُول الله وتَلقّاه أبُو بَكْر فِي الطَّرِيق فَأخذ بِيده ومَرّ بِهِ فَلما ٱنتهىٰ إِلىٰ ثور دَخل الغَار .

(أُنظر ، الدُّر المَنثُور : ٤/ ٢٠٢ وأخرج عبدالرَّزاق ، وٱبن الْمُنْذِر عن الزّهري ، وأُنظر تَفْسِير المِيزان للسيّد مُحَمَّد حُسين الطَّباطبَائي : ٩/ ٣٠٦، المُسترشد فِي الْإِمَامَة لُمحَمَّد بن جرِير الطَّبَرِي الْإِمَامي (ق ٥) : ٤٣٤، تَذكرة الخواصّ لِسبط ٱبن الجَوزي : ٤٠، والطَّرائِف لِابْن طَاووس : ٤٠٧ : الشَّافي للسِّيّد المُرتضى : ٤/٢٥) .

وروى ٱبن الْأَثِير في الكَامِل : ٢/ ٧٣ : أنّه سَأل أُولَئِكَ الرَّهط عَلِيّاً عَن النَّبيّ ﷺ فقَال : لاَ أَدري أمَرتمُوه بِالخرُوج فَخَرج ، فَضَربوه وأَخرجُوه إِلىٰ المَسجد فَحَبسُوه سَاعة ثُمّ تَركوه ، ونَجّىٰ الله رَسُوله مِن مَكرهِم وأمَره بِالْهِجْرَة ، وقَام عَليّ يؤدّي أمَانَة النَّبيّ ﷺ ويَفعل مَا أَمره . ونَحنُ لا نُريد التَّعلِيق عَلىٰ كلاَم ٱبن الأثِير بل نَقول لهُ : مَاذا تَقول لرواة حَدِيث : ٱهبطا إِلىٰ الْأَرْض فٱحفظَاه مِن عدوّه ، كَان جِبْرِيل عِند رَأْسه ومِيَكائِيل عِند رِجليه يُنادي ويَقول : بَخٍ بَخٍ مَن مِثلك يا ٱبـن أبِـي طَـالب يُـباهِي الله بِك المَلائكة ؟ وقَد رواه الثّعلبي فِي الكَشف والْبَيَان . ومَاذا تَقول لِنَفْسك عِندما رويت الحَدِيث فِي أُسد الغَابَة : ٤/ ١٨ و ١٩ و ٢٥ فهَل هُو التّنَاقض الَّذي وَقعت فيهِ أَم التّعصُّب الَّذي أعمَاك ؟

الرّسالاَت ، وَيُسَفّه وَتَنيتهُم ، وَيَذْكُر طَلَبهم للمُعْجزَات ، ثُمَّ يَقُول تَعَالىٰ :

﴿وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً مِّنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُم مَّكْرٌ فِىٓ ءَايَاتِنَا قُلِ ٱللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ﴾(١) .

٦ ـ بَعْد أَنْ ذَكَر الله فِي أَوَّل السُّورَة الدَّلاَئِل الكَونيَّة عَلَىٰ وجُـودَه وَقُـدرَته ، وَسَفّه أَفكَار المُلحدِين للحيَاة الآخرَة ، وَٱستعجَالَهُم للعَذَاب مَع عِلْمِهم بمَا حَدَث لمَن قَبلِهم مِن الأُمَّم المُشركَة ، وَطَلبهُم للمُعْجزَات ، ثُمَّ يَذْكر الآيَات الكَونيَّة الدَّالَة عَلَىٰ وجُودهِ ، وَقُدرَتهِ ، وَحِكمَتهِ ، وصُوراً عَن مَوَاقف المُؤْمِنِين بالله ، وصُـورَة عَن مَوقِف المُشْرِكِين وَعَاقِبتهم ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ لَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ﴾(٢) ثُمَّ يَذْكُر طَلَبهُم للمُعْجزَة ، ثُمَّ يَذْكر المُؤْمِنِين ، وَيَذْكر ٱسْتهزَاء الأُمَّـم السَّـابقَة بأَنـبِيَائهَا ، وَكَيْف ﴿زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ مَكْرُهُمْ﴾(٣) . الجَنّة وَعَد بهَا المُتّقُون ، وَالقُرْآن ، والرُّسُل السَّابِقِين ، ثُمَّ يَقُول تَعَالىٰ :

﴿وَقَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ ٱلْمَكْرُ جَمِيعًا يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ وَسَيَعْلَمُ ٱلْكُفَّـٰرُ لِمَنْ عُقْبَى ٱلدَّارِ﴾(٤) .

❊ ❊ ❊

هَذِهِ هِي الآيَات الَّتي وَرَد فِيْهَا المَكر مَـنسُوباً إِلَـىٰ الله تَـعَالىٰ . أَمّـا الآيَـات الأُخرىٰ الَّتي وَرَدَت فِيْهَا صِفَة الإِسْتهزَاء وَالمُخَادعَه مَنْسُوبتَين إِلَىٰ الله فمَوعدنَا

(١) يُونُس : ٢١.

(٢) ٱلرَّعَد : ٢٥.

(٣) ٱلرَّعَد : ٣٣.

(٤) ٱلرَّعَد : ٤٢.

مَعْهَا بَعْد الحَدِيث عَن «المَكْر الإلٰهي». فَلنُحَاول الآنْ أَنْ نَفْهَم كَيْف يَنْسب الله المَكْر إِلَىٰ نَفْسَه، وَمَا المُرَاد مِن ذَلِكَ؟.

* * *

إِنَّ المَكْر مِن العَبد هُو الحِيلَة وَالخَدِيعَة. وَالمَكْر مِن الله هُو المُجَازَاة، وَالعُقُوبَة عَلَىٰ الذَّنْب. وَالتَّعْبِير عَن المُجَازَاة، والعُقُوبَة عَلَىٰ الذَّنْب فِي هَذِهِ المَوَارد بِلَفْظ «المَكْر» مَظْهَر مِن مَظَاهر البَلاَغَة العَربيَّة. وهَذَا النَّحو مِن البَيَان يُسَمّىٰ فِي البَلاَغَة العَربِيَة «المُشَاكلَة» و «المُجَانسَة» وذَلِكَ بأَنْ يَذْكر الشَّيء بِلَفْظ غَيْرَه لوقُوعَه فِي صُحبَته. وَهُو كَثِير الورُود فِي الشِّعر الجَاهِلي مِن ذَلِكَ قَوْل يَزِيد بن نَوفَل الكِلاَبي مُخَاطبَاً الحَارث بن أَبي شمّر الغَسّاني وكَان قَد اغْتَصب ابْنَة الشَّاعِر فخَاطَبه بقَصِيدَة مِنْهَا:

يَا حَار، أَيْقن بأَنَّ مِلكك زَائِل وَاعْلَم بِأَنْ كَمَا تَدِينُ تُدَانُ[1]

---

(١) رُوي هَذا القَول تَارَة عَن النَّبي ﷺ، وتَارةً عَن الإِمَام عَليّ عليه السلام، وتَارةً عَن الإِمَام البَاقر عليه السلام، وتَارةً عَلىٰ لِسَان قَالَ الشَّاعر، وتَارَةً عَلىٰ لِسَان كمَا جَاء فِي الأَمْثَال، وَلكنْ كُلَّها تُؤَدِّي نَفْس المَعْنىٰ: فَمَثلاً رُوي عَن الإِمَام البَاقر عليه السلام قَالَ: «كَان فِيمَا أَوحىٰ الله تَعَالىٰ إِلىٰ مُوسىٰ بن عِمرَان:

يَا مُوسىٰ مَن زَنَا زنىٰ بِهِ، ولَو فِي العَقب مِن بَعدِهِ، يَا ابن عِمْرَانَ: إِنْ تَعَفْ تَعْفُ أَهْلك، يَا مُوسىٰ بن عِمْرَانَ إِنْ أَرَدت أَنْ يَكثر خَيْر أَهْل بيتك فإِيَّاك والزِّنا، يَاابن عِمْرَانَ كَمَا تَدِينُ تُدَانُ».

أُنظر، مَن لاَ يَحضره الْفَقِيه: ٤/١٣ ح ٤، دعَائِم الإِسْلام: ٢/٤٤٩ ح ١٥٧١، وقَرِيب مِنْهُ فِي الكَافِي: ٥/٥٥٣ ح ١، الَمحَاسِن: ١/١٠٧ ح ٩٤. وذَكَره الشَّيخ الصَّدوق فِي كتَاب التَّوحيد: ٢١٦، بِقوله كمَا قَالَ الشَّاعر:

كمَا يَدِين الفَتىٰ يَوْمَاً يُدَان بِهِ مَن يَزرع الثّوم لاَ يَقْلَعه ريحَانا

↔

وَالدَّين هُنَا هُو الجَزَاء، وَمَعْنَىٰ "بَيْت (كَمَا تَجزي تُجزىٰ) مَع أَنَّ فِعل الحَارث الغَسّاني مَع الشَّاعِر لَيْسَ بجَزَاء، وَإِنَّمَا هُو العُدْوَان، وَلَكن الشَّاعِر عَبّر عَن العُدْوَان والجَزَاء بمَادّة وَاحدَة. تَدِين تُدَان.

ومِن ذَلِكَ قَوْل المُنخل اليَشكَري:

أَلاَ لاَ يَجْهَلَنَّ أَحَد عَلَينَا فَنَجْهَل فَوق جَهل الجَاهلِينَا[1]

فَعَبّر عَن الجَزَاء عَلَىٰ الجَهَالَة بالجَهَالة، مَع أَنَّ مَرَادهُ مِن قَوْلَه «فَنَجْهَل...» لَيْسَ جهَالة العُدْوَان وَإِنَّما الجَزَاء عَلَىٰ العُدوَان.

↔ ورُوي هَكَذا:

وَاعْلَم، وأَيقن أَنَّ مُلكك زَائل وَاعْلم بِأَنَّك كَمَا تَدِينُ تُدَانُ

زَائـــــل

ورُوي هَكذا:

يَا حَار، إِنَّك مِيتٌ ومُحَاسب وَاعْلم بِأَنْ كَمَا تَدِينُ تُدَانُ

وقَد نَسبهُ صَاحب جَمهَرة الأَمثَال لِلعَسكري: ١٦٩ إِلىٰ خُوِيلد بن خُوِيلد الكِلاَبي، وقِيل هَذا المَثل مَكتُوب في التّورَاة كمَا جَاء فِي أَقْتضَاء الْعِلْم العَمل لِلخَطيب البَغدادِي: ٨٩، ونُزهة النَّاظر وتَنبِيه الخَاطر: ١٦ ح ٣١، وقِيل مَكتُوب فِي الْإِنْجِيل، كمَا جَاء فِي كَنز العُمال: ١٥ / ٧٧٢ ح ٤٣٠٣١ و ٤٣٠٣٢، شَرح مُسْنَد أبِي حَنِيفة: ١٩٤.

أُنظر، صَحِيح البُخَاريّ: ١٤٦/٥، مُقدّمة فَتح البَاري: ١١٥/١ و: ١١٩/٨، المُصَنَّف لعبدالرّزاق: ١٧٩/١١ ح ٢٠٢٦٢، الأَسماء والصِّفَات لِلبَيهقي: ٦٠، بُغية البَاحث: ٣١٣ ح ١٠٥٠، كتَاب السُّنَّة لِابْن أبي عَاصم: ٣٠٥، الجَامِع الصَّغير: ٤٩٣/١ ح ٣١٩٩ و: ٢٩٥/٢ ح ٦٤١١، كَشف الخَفَاء: ٢٨٤/١ ح ٩٠٢، جَامع الْبَيَان لِابْن جَرير الطَّبَرِي: ١٠١/١، تَفْسِير القُرطُبي: ١٤٤/١، تَفْسِير الثَّعالبي: ١٦٥/١، تَأرِيخ دِمَشْق: ٦٢/١٧، لِسَان العَرب: ٩٢/١ و: ١٦٩/١٣، المَحَاسِن لِلبَرقي: ١٠٧/١ ح ٩٤، وَسَائِل الشِّيعة: ٣٥٥/٢٠ ح ٢، عوَالي اللّئالي: ٥٤٦/٣ ح ٥.

(١) يُنْسَب هَذَا الشِّعر إِلىٰ عَمرُو بن كُلثُوم التّغلبي كمَا جَاء فِي شَرْح المُعلقَات لِلتَّبرِيزي: ٢٣٨، وَأَمَالي السَّيِّد المُرتَضىٰ: ٤٢/١.

وَقَد وَرَد كَثِير مِن ذَلِكَ فِي شِعر مَا بَعْد الْإِسْلَام أَيْضاً.

وَوَرَد هَذَا النَّحو مِن البَيَان فِي القُرْآن فِي عِدّة موَاضع.

مِنْهَا: قَوْلَه تَعَالىٰ: ﴿تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ﴾[١]. والمُرَاد: وَلاَ أَعْلَم مَا عِنْدَك، وَعبّر بالنَّفس للمُشَاكلَة، وَإِلاَّفَلَيْسَ لله نَفْس.

وَمِنْهَا: قَوْلَه تَعَالىٰ: ﴿نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْ﴾[٢]. وَالمُرَاد مِن ﴿أَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْ﴾ أَهْمَلهُم، وَعبّر عَن الْإِهْمَال بالْإِنْسَاء لوقُوعه فِي صُحبَته مُرَاعَاة للمُشَاكلَة، وَالمُجَانسَة.

وَمِنْهَا: قَوْلَه تَعَالىٰ: ﴿فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُوا۟ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ﴾[٣]. فَعبَّر فِي هَذَا الْآيَة بالْإِعتدَاء عَن الجَزَاء عَلَىٰ الْإِعتدَاء مُرَاعَاة للمُشَاكَلة.

وَمِنْهَا: قَوْلَه تَعَالىٰ: ﴿وَجَزَٰٓؤُا۟ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾[٤]. فَعبّر عَن جَزَاء السَّيئَة بالسَّيئَة أَيْضاً.

وَمِنْهَا: قَوْلَه تَعَالىٰ: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ﴾[٥] فَعبَّر عَن الجَزَاء عَلَىٰ الْإِعتدَاء بالعُقُوبة كَمَا عَبَّر عَن الْإِعتدَاء نَفْسَه بالعُقُوبة.

وَمِن ذَلِكَ الْآيَات الَّتي وَرَد فِيْهَا نِسبَة المَكْر إِلىٰ الله تَعَالىٰ، فَفي جَمِيع هَذِهِ

---

(١) ٱلمَائِدَة: ١٩.

(٢) ٱلحَشْر: ١٩.

(٣) ٱلْبَقَرَة: ١٩٤.

(٤) ٱلشُّورىٰ: ٤٠.

(٥) ٱلنَّحل: ١٢٦.

الآيَات يَأتِي المَكْر مَنسُوباً إلَىٰ الله فِي مُقَابل مَكْر الكَافِرين، وَكُفرهُم وَجحُودهُم، فهُو تَعبِير عَن الجَزَاء والعِقَاب الَّذي أَنزَلَهُ الله بِهِم لمَكرهِم، بَل هُو النَّتيجَة الطَّبيعَة لمَكرهم وَاحتيَالَهم وَخدَاعهِم، وَاستَعمل فِي هَذِهِ الآيَات لَفظ المَكْر للمُشَاكلَة وَالمُجَانسَة.

وَالآنْ نَستَعرض كُلّ وَاحدَة مِن الآيَات السّت الَّتي ذَكرنَاهَا وَنُحلّلها لنَكشف بوضُوح عَن هَذَا المَعْنَىٰ.

* * *

الآيَة الأُولىٰ:

﴿وَمَكَرُواْ وَمَكَرَ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَـٰكِرِينَ﴾(١).

تَتحدّث الآيَة عَن اليَهُود الَّذِين كَفرُوا بعِيْسَىٰ عليه السلام، فَقَد مَكرُوا عَلَىٰ عِيْسَىٰ عليه السلام بِالحِيلَة لقَتله، وَجَازَاهُم الله عَلَىٰ مَكرهم بالخَيبَة وَالخُذلاَن، إذْ خَلصّه مِنْهُم وَأَلقىٰ شُبهَة عَلَىٰ شَخصٍ آخر. أَو أَنَّهُم مَكرُوا بالكُفر برسَالَة عِيْسَىٰ وَالإنْكَار فجَازَاهُم الله عَلَىٰ ذَلِكَ بالعُقُوبة وَالخُذلاَن.

الآيَة الثَّانيَة:

بَيّنَّا آنفاً طَبيعَة الجَو الَّذي وَرَدَت فِيهِ الآيَة ومِن الوَاضح أَنَّ إسنَاد المَكْر إلَىٰ الله فِي الآيَة الأَخِيرَة هُو بِمَعْنَىٰ المُجَازاة لأَهْل القُرىٰ عَلَىٰ مَكرهِم وَكُفرهِم وَجحُودهم، وَلَيْسَ المَكْر فِيْهَا بالمَعنىٰ الَّذي يُنسَب إلَىٰ البَشر، وعَلَىٰ القَاريء أَنْ يَرجع إلَىٰ عَرضنَا للآيَة فِي نطَاق جَوّها القُرْآني ليَتَبيّن هَذِهِ الحَقِيقَة بوضُوح تَام.

---

(١) الأَعْرَاف: ٥٤.

الآيَة الثَّالِثَة :

وَقَعَت هَذِهِ الآيَة فِي عَرض القُرْآن لقِصّة ثَمُود ، وَبَغيهِم ، وَكِفرهم . فَبَعد أَنْ بَيَّن الله فِي الآيَات (٤٥ ـ ٤٩) إنشقَاقهم القَبلي ، وَدعوَة النَّبيّ صَالِح لَهُم إِلَىٰ الإِيمَان ، وَرَدهُم عَلَيهِ ، ذَكَر الله تَعَالىٰ أَنَّ القِوىٰ المُسَيطرَة فِي ذَلِكَ المُجْتَمع تَآمرَت عَلَىٰ صَالِح وأَهْلَه :

﴿وَكَانَ فِى ٱلْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ قَالُوا۟ تَقَاسَمُوا۟ بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِۦ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِۦ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ﴾[١] .

هَذِهِ المُؤامرَة سمَّاها الله ﴿مَكْرًا﴾ ، فَقَال :﴿وَمَكَرُوا۟ مَكْرًا﴾ .

وَأَخبرنَا الله أَنَّهُ جزّاهُم عَلَىٰ مَكرهِم بالمُؤْمِنين بالعذَاب والعُقُوبَة ، وَسمّىٰ هَذَا الجَزَاء مَكرَاً للمُجَانسَة ، والمُشَاكلَة فَقَالَ تَعَالىٰ :

﴿وَمَكَرُوا۟ مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَٰهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ﴾[٢] .

الآيَة الرَّابعَة :

فِي هَذِهِ الآيَة أَخبرنَا الله تَعَالىٰ كَيْف أَنَّ مُشركي قُرَيْش إِجْتَمعُوا يَتَآمرُون عَلَىٰ النَّبيّ ﷺ فَمَن قَائِل ٱقتلُوه ، ومَن قَائِل ٱسجنُوه ، ومَن قَائِل ٱنفُوه عَن بلاَدكُم[٣] .

---

(١) ٱلنَّمل : ٤٨ ـ ٤٩ .

(٢) ٱلنَّحل : ٥٠ ـ ٥١ .

(٣) تَفْصِيل المُؤامرَة ، وَمَبِيت الإِمَام عَليّ بي أَبي طَالب عَلَىٰ فرَاش النَّبيّ ، وَهِجرَة النَّبيّ ﷺ مَذكُور فِي ↔

لَقَد سَمّىٰ الله تَعَالىٰ هَذِهِ المُؤامرَة ﴿مَكْرًا﴾ : ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ﴾[1] .

وَلَكنَّ الله خَلّصَه مِن كَيدهِم وَمَكرهم ، وَمَكّنه مِن الهِجْرَة إِلَىٰ المَدِينَة دُون أَنْ يَتمكنُوا مِن قَتْله ، وَقَد عَبَّر الله عَن هَذَا التَّدبِير ، وهَذَا الصَّنِيع الجَمِيل بـ ﴿مَكْـرًا﴾ أَيْضاً ، وذَلِكَ للمُشَاكلَة ، وَالمُجَانسَة كَمَا قُلْنَا ، فَقَال : ﴿وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَـٰكِرِينَ﴾[2] .

الآيَة الخَامِسَة :

﴿وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً مِّنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُم مَّكْرٌ فِىٓ ءَايَاتِنَا قُلِ ٱللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ﴾[3] .

بَيّنَّا فِيمَا سَبق طَبِيعَة الجَو الَّذي وَرَدَت فِيهِ الآيَة .

إنَّ المُرَاد بِالنَّاس فِي هَذِهِ الآيَة غَير المُؤْمِنِين مِنْهُم . وتُبَيِّن الآيَة ظَاهِرَة سلُوكيَّة لَدىٰ هَؤُلاَء النَّاس : فَحِينَ تَتَبدّل حَالَهم بَعْد العُسْـر يُسـرَاً ، وبَـعْد الضِّـيق سِـعَة وَبحبُوحَة ﴿يَمْكُرُونَ﴾ فِي آيَات الله ، وَيحتَالُون عَلَىٰ تَزْوِيدها ، وَيُخَادعُون فِيْهَا ، بَدل أَنْ يُقَابلُوها بالشُّكر ، إِزاَء هَذَا المَوْقف مِن هَؤُلاَء النَّاس يَقُول الله :

﴿قُلِ ٱللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا﴾ يَعْنَي أَسرَع جَزَاء عَلَىٰ المَكْر ، فالمَكر المَنْسُوب إِلَىٰ الله

↔ كُتب التَّأرِيخ مِن ذَلِكَ : سِيرَة ابن هشَام بتَحقِّيق السّقا ، وَالأَبيَاري ، وَشَلبي . الطَّبعَة الثَّانيَة (١٣٦٥ هـ ـ ١٩٥٥م) : ١/ ٤٨٠ ، وَمَا بَعْدهَا . (مِنْهُ ﷺ) .

(١) الأَنفَال : ٣٠.

(٢) الأَنفَال : ٣٠.

(٣) يُونُس : ٢١.

هُنَا ـ كَمَا فِي موَاضع أُخَر ـ هُو الجَزَاء عَلَىٰ المَكْر. فَهُم بَـدل أَنْ يُـقَابلُوا النّـعمَة بِالشُّكر قَابلُوها بالمَكْر، وَجَزَاؤهُم عَلَىٰ مَكرهِم مَرصُود لَهُم ﴿إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ﴾. وَسَرِيع الحُلُول بِهِم ﴿قُلِ ٱللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا﴾.

وٱستعمَال المَكْر هُنَا مَنسُوباً إِلَىٰ الله إِنَّمَا هُو للمُشَاكلَة وَالمُجَانسَة اللَّفظيَّة كَمَا مَثّلنَا فِي موَاضع أُخر.

الآيَة السَّادِسَة:

﴿وَقَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ ٱلْمَكْرُ جَمِيعًا يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ وَسَيَعْلَمُ ٱلْكُفَّـٰرُ لِمَنْ عُقْبَى ٱلدَّارِ﴾[1].

بَيْنَّا فِيمَا سَبق الجَو العَامّ للْآيَة:

فِي هَذِهِ الآيه أَخبَر الله تَعَالىٰ أَنَّ الكُفّار الَّذِين كَانَا قَبل هَؤْلاَء الكُفّار مِن العَرب قَد مَكرُوا بالمُؤْمِنِين، وَٱحتَالوا عَلَىٰ خَنْق الرّسَالَة الإِلَهيَّة بقَتل أَتبَاعهَا المُؤْمِنِين وَتَعذِيبهم وَتَشريدهم. فَبَيَّن ﴿فَلِلَّهِ ٱلْمَكْرُ جَمِيعًا﴾ أَي أَنَّ بِيَده الجَزَاء والعُقُوبَة عَلَىٰ هَذَا المَكْر الَّذي يَمكرَه الكَافرُون بالمُؤْمِنِين.

وَقَوْلَه تَعَالىٰ: ﴿يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ وَسَيَعْلَمُ ٱلْكُفَّـٰرُ لِمَنْ عُقْبَى ٱلدَّارِ﴾. بَيَان لطَبيعَة المُرَاد مِن المَكْر المَنْسُوب إِلَىٰ إلله تَعَالىٰ وأَنَّهُ الجَزَاء عَلَىٰ ٱضْطهَاد الكَافِرين للمُؤْمِنِين.

وَقَد عَبّر عَن الجَزَاء بالمَكر للمُجَانسَة، والمُشَاكَلَة كَمَا قُلْنَا.

* * *

(١) ٱلرَّعد: ٤٢.

وَيَبدُو أَنَّ الرَّاغب الإِصْفهَاني[١] قَد فَهَم مِن ٱستعمَال «المَكْر» تَارَة فِي الحِيلَة وَالخَدِيعَة للتَوصل إِلَىٰ مقَاصد شرّيرَة، وأُخرىٰ فِي الجَزَاء العَادِل عَلَىٰ الشَّر، أَو فِي الرّدع عَن فِعل الشَّر، وَكَشف الْأَسَالِيب الشَّرِيرَة للمُجرمِين ـ يَبدُو أَنَّ الرَّاغب الْإِصْفهَاني قَد فَهَم مِن تَنوع ٱستعمَال المَكْر أَنَّ لِلمَكْر مَعنَيَّين، فَقَد قَالَ فِي كتَابهِ «المُفردَات فِي غَرِيب القُرْآن»:

(المَكْر صَرف الغَير عمَّا يَقْصدَه بحِيلَة) وذَلِكَ ضَربَان: ضَرب مَحمُود، وذَلِكَ أَنْ يَتحرىٰ بهِ فِعل جَمِيل، وعَلَىٰ ذَلِكَ قَالَ: ﴿وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَـٰكِرِينَ﴾ وَمَذمُوم، وَهُو أَنْ يَتحرىٰ بهِ فِعل قَبِيح. قَالَ: ﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ﴾[٢] ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾[٣] ﴿فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ مَكْرِهِمْ﴾[٤]، وقَالَ فِي الْأَمرَين: ﴿وَمَكَرُوا۟ مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا﴾[٥].

وَمِمَّا يُعَزّز فَهم الرَّاغب الْإِصْفهَاني لِإستعمَال «المَكْر» مَنسُوبَاً إِلَىٰ الذَّات الْإِلَهيَّة بِمَعْنَىٰ يَخْتَلف عَن ٱستعمَاله مَنسُوبَاً إِلَىٰ الكَافِرين بالْأَنْبيَاء والرّسَالَات أَنَّ مَكْر اليَهُود بالنَّبيّ مُحَمَّد ﷺ وصِفَ فِي بَعْض الْآيَات بأَنَّه مَكْر سَيء، قَالَ تَعَالىٰ: ﴿وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَـٰنِهِمْ لَئِن جَآءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى ٱلْأُمَمِ فَلَمَّا جَآءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا ٱسْتِكْبَارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَكْرَ ٱلسَّيِّئِ وَلَا يَحِيقُ

---

(١) الحُسَين بن مُحَمَّد بن المُفضّل (ت ٥٦٥ هـ). (مِنْهُ ﷺ).

(٢) فَاطِر: ٤٣.

(٣) ٱلْأَنْفَال: ٣٠.

(٤) ٱلنَّمل: ٥١.

(٥) ٱلنّحل: ٥٠ ـ ٥١.

ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلْأَوَّلِينَ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلاً وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلاً﴾[1].

مِن هَذَا البَيَان يَتّضح مَدىٰ خَطَأ المُؤَلّف فِي فَهُم «المَكْر الإِلٰهي» وأَسْبَاب هَذَا الخَطَأ. ويَتّضح أَنَّ المُؤَلّف فَشَل فِي إِيجَاد «تَعْلِيل دِيْنِي مَقبُول» لمَا فَهْمَه ـ خَطَأ ـ مِن قِصّة إِبْلِيس. لَقَد أَخْطَأ فِي فَهم أَصْل القِصّة، وأَخْطَأ فِي فَهم «المَكْر» المَنْسُوب إِلَىٰ الذَّات الإِلَهيَّة فِي القُرْآن. وَمَا تَوهَمهُ المُؤَلّف اكتشَافاً كَبِيراً تَبَيَّن أَنَّهُ لَمْ يَكُن شَيئاً عَلَىٰ الإِطْلاَق. لَقَد كَان خَطَأ وَحَسب.

* * *

بَقي عَلَينَا أَنْ نُصَحّح فَهم المُؤَلّف لبَعض الآيَات الأُخرىٰ الَّتي ذَكَرهَا فِي مَعْرَض حَدِيثَه عَن «المَكْر الإِلٰهي» والَّتي رَأىٰ أَنَّها تَتَّفق فِي مَدلُولَهَا مَع الآيَات الَّتي نَسَب فِيْهَا المَكْر إِلَىٰ الذَّات الإِلَهيَّة. وَسَنَرىٰ أَنَّهُ أَخْطَأ فِي فَهم هَذِهِ الآيَات كَمَا أَخْطَأ فِي فَهم آيَات «المَكْر الإِلٰهي» وَسَنَرىٰ أَنَّهُ بَتَر بَعْض الآيَات وَعَزَلَهَا عَن جَوّهَا العَامّ ليَتَأتىٰ لَهُ الإِستعَانة بهَا عَلَىٰ إِثْبَات دَعوَاه.

قَالَ المُؤَلّف في الصَّفحة (١٢١):

«نَجد أَيْضَاً بَعْض الآيَات تَنْسب إِلَىٰ الذَّات الإِلَهيَّة صِفَة مُشَابهَة هِي صِفَة الإِسْتهزَاء (...) وَأَوَرَدَت بَعْض الآيَات المَعْنَىٰ نَفْسَه دُون ذِكْر المَكْر الإِلٰهي وَتَخصِيصَه...».

وَقَد ذَكَر المُؤَلّف الآيَات الَّتي اعْتبرهَا شَوَاهد عَلَىٰ دَعوَاه عَن المَكْر الإِلٰهي،

---

(١) فَاطِر: ٤٢ ـ ٤٣.

وَسَنَذكر الْآيَات الَّتي ذَكَرهَا، وَنَكشف عَن خَطَأه فِي فَهْمَه لَهَا.

الْآيَة الْأُولىٰ:

ذَكَرهَا المُؤَلِّف هَكَذَا: ﴿ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِى طُغْيَـٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾[1].

وهَذِهِ الآيَة مِن جُملَة مَقْطَع وَرَد فِي بَيَان حَال المُنَافقِين وَمَلامحهم، وَموَاقفهم المُخَادعَة، وَالمُروَاوغة مِن المُؤْمِنِين، وَسُخريتهُم مِنْهُم. أَوَّل المَقْطَع المَذكُور: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ﴾[2]. ثُمَّ يُبَيِّن الله خدَاعهُم، وَفسَاد نوَاياهُم، وَإِفسَادهُم فِي الأَرْض، وَٱستكبَارهُم عَن الْإِيمَان الحَقِيقي، وَتَسميتهُم للمُؤْمِنِين سُفهَاء، ثُمَّ يَقُول تَعَالىٰ:

﴿وَإِذَا لَقُوا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوٓا ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَـٰطِينِهِمْ قَالُوٓا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِى طُغْيَـٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا ٱلضَّلَـٰلَةَ بِالْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَـٰرَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾[3].

هَذَا هُو الجَو العَامّ للْآيَة، وهَذِهِ هِي عِلاَقَاتهَا الدَّاخليَّة.

وَقَد سَمّىٰ الله جَزَاءهُم عَلَىٰ نفَاقهِم، وموَاقِفهم المُلتويَة مِن العَقِيدَة وَأَتبَاعهَا، وَٱستهزَاءهُم بالمُؤْمِنِين ـ سَمّىٰ الله ذَلِكَ الجَـزَاء ٱستهزَاء مُـرَاعَـاة للـمُشَاكَـلَة والمُجَانسَة، كَمَا تَقَدّم فِي كَلاَمنا عَن المَكْر الإِلٰهي، وَقَدّمنَا الشَّوَاهد عَـلَيهِ مِـن القُرْآن وَالشِّعر الجَاهِلي.

(١) ٱلْبَقَرَة: ١٥.

(٢) ٱلْبَقَرَة: ٨.

(٣) ٱلْبَقَرَة: ١٤ـ١٦.

الآيَة الثَّانيَة :

﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓاْ إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾[1] .

هَذِهِ الآيَة وَرَدَت فِي شَأن المُنَافقِين الَّذِين تَخْلفُوا عَن النَّبيّ ﷺ فِي مَعْركَة أُحد ، وغَزْوَة حَمرَاء الأَسَد . وهِي جُزء مِن مَقْطع يُعَالج هَذَا المَوْقف مِن مَوَاقف النَّبيّ والمُسْلِمين مُقَابل المُشْركِين .

فَقَد بَيَّن الله سَبَب للنَّكْبَة فِي أُحد ، ومَوقِف المُنَافقِين حِيْنَذَاك ، (الآيَات : ١٦٥ ـ ١٦٨) ثُمَّ بَيَّن الله مَنْزلَة الشُّهدَاء العَظِيمَة ، ومَدْح الَّذِين اسْتجَابُوا لدَعوَة النَّبيّ ﷺ إِلَىٰ غَزْوَة حَمرَاء الأَسَد عَلَىٰ مَا بِهِم مِن جُرَاح وَتَعب (الآيَات : ١٦٩ ـ ١٧٤) . ثُمَّ بَيَّن حَال المُنَافقِين فِي هَذَا المَوْقف فَقَالَ تَعَالىٰ مُخَاطبَاً النَّبيّ مُحَمَّدَاً ﷺ .

﴿وَلَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّواْ ٱللَّهَ شَيْـًٔا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِى ٱلْأَخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُاْ ٱلْكُفْرَ بِالْإِيمَٰنِ لَن يَضُرُّواْ ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ خَيْرٌ

---

(١) آل عِمْرَان : ١٧٨ . لا تَكُونُوا كالَّذِين غَصب الله عَلَيْهِمْ ، وَلم يُؤاخذهُم بِمَا كَسبُوا ، ويُعاجِلهُم بالنَّقمَة ، والعُقُوبَة عَلىٰ مَا أَفسدُوا ، وأَثارُوا من الْفِتَن ، لتكُون الحُجّة عَلَيْهِمْ أَقوىٰ وأَبلغ حَيْث يَتمادُونَ فِي الغَي ويُبدلُون نِعْمَة الله كُفراً . أَوْشَك أَنْ يَنتهي أَمد الإمْهَال ، والإِملاَء (وَاسْتَرَاحَ قَوْمٌ إِلَىٰ الْفِتَنِ) . تَمادىٰ فِي الْفَسَاد ، وَسكت عَنهُم قَوْم آخرُون دُونَ أَنْ يُحركُوا سَاكِناً (وَأَشَالُوا عَنْ لَقَاحِ حَرْبِهِمْ) أي أَنّ هَؤُلاَء الْقَوْم هَادنُوا أُولَئِكَ المُفسدِين الَّذِين طَال بِهِمْ الأَمد ، ولَم يَشنُوا الْحَرْب عَلَيْهِمْ حُبّاً بالدِّعة ، والسَّلامة ، وتَهاوناً بوَاجب النَّهي عَن الْمُنْكَر . أُنظر ، فِي ظلاَل نَهْج البَلاَغَة شَرْح العَلاَّمَة الشَّيخ مُحَمَّد جوَاد مُغنيَّة الخُطْبَة : (١٥٠) : ٣/ ٢٥٦ ، بتَحقِّيقنَا . «بِتَصرّف» .

لِّأَنفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓاْ إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ﴾[1].

هَذَا هُو الجَو العَامّ للْآيَة.

ومِنْهُ يَتّضح أَنَّ الله تَعَالىٰ لاَ يُرِيد أَنْ يُملي (يُمْهل) لغَايَة أَنْ يَزدَاد الكَافرُون إِثمَاً بحَيْث يَكُون الغَرَض والعِلّة فِي إِمهَالِهم هُو أَنْ يَزدَادوا إِثمَاً، وَإِنَّما يُملي (يُمهل) الله الْإِنْسَان ليُتِيح لَهُ الفُرصَة التَّامّة لتَلقي الهدَايَة وَالْإِقرَار بالحَقّ، وَيُعَرّضهُ لْأَنوَاع التَّجارب ليُعطِيه القُدرَة عَلَىٰ الْإِخْتيَار، والحُرّيَّة. وحِينَئْذٍ فَإِذَا ٱختَار طَرِيق عَاقِبَة ٱمهَالَهُ وَبَالاً عَلَيهِ؛ لْأَنّه لَم يَنْتَفع مِن الفُرصَة الَّتي أُتِيحَت لَهُ، كَمَا تَكُون عَاقِبَة ٱمهالَهُ المُؤْمِن خَيراً وَبَركَة عَلَيهِ لْأَنّه ٱنْتَفَع مِن الفُرصَة الَّتي أُتِيحَت لَهُ.

فَاللَّام فِي قَوْلَه تَعَالىٰ: ﴿فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُواْ خَٰطِـِٔينَ﴾[2].

فَإِنَّ إِلتقَاط آل فِرْعَون لَم يَكُن مِن أَجل أَنْ يَجعلُوا مِن مُوسَىٰ عَدوّاً لَهُم، وَلَكن عَاقِبَة إِلتقَاطهم لَهُ هِي أَنَّهُ كَان لَهُم عَدوّاً وحُزْنَاً. ومِن ذَلِكَ أَيْضَاً قَوْل أَحد الشُّعرَاء الجَاهلِين:

وَأُمّ سَمَّاك فَلاَ تَجْزَعي ... فَلِلْمَوْتِ مَا تَلِدُ الوَالِدَة[3]

---

(١) آل عِمْرَان: ١٧٦ ـ ١٧٩.

(٢) ٱلْقَصَص: ٨.

(٣) أُنظر، التِّبيَان لِلشَّيخ الطُّوسي: ٣/٦٠ و: ٤/١٤٦ و ٢٦١، تَفْسِير مَجْمَع الْبَيَان: ٢/٤٥٥ و: ٤/١٥٣، ↔

فَلَيْسَ مُرَادَه أَنْ الغَرَض والعِلّة مِن الولاَدَة هِي المَوْت، وَإِنَّما مُرَادَه أَنَّ عَاقبَة كُلّ مَولُود هِي المَوْت.

وهَكَذَا الحَال فِي الْآيَة الكَرِيمَة.

الْآيَة الثَّالِثَة:

﴿وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا۟ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَـٰهَا تَدْمِيرًا﴾[1].

إِنَّ هَذِهِ الْآيَة لاَ تَدل مِن قَرِيب وَلاَ مِن بَعِيد عَلَىٰ مَا ذَهَب إِلَيهِ وَهم المُؤَلّف. وَإِنَّما هِي مِن جُملَة الشَّوَاهد عَلَىٰ المَبْدَأ القُرْآني: «مَبْدَأ أَثَر التَّغيِّير الدَّاخلي فِي حَركَة التَّأرِيخ». وَقَد شَرحتَه فِي كِتَاب لِي بعُنْوَان «مُقَدَّمَة لدّرَاسَة تَأرِيخ الثَّورَات فِي الْإِسْلاَم» آمُل أَنْ أَنْجزهُ قَريبَاً، وأَذكر هُنَا مَا تَسمَح بِهِ هَذِهِ العُجَالَة.

أَنَّ الْآيَة السَّابقَة عَلَىٰ هَذِه الْآيَة هِي قَوْلَه تَعَالىٰ:

﴿مَّنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾[2].

↔ كَنز الفوَائِد: ٤٨، سِمط الآلي: ٩٢، أَحْكَام الْقُرْآن لِلجَصاص: ٤٧/٣، شَرح نَهْج الْبَلاَغَة لِابْن أَبـي الْحَدِيد: ٣٢٨/١٨. وَقَد نُسبَ هَذا المَثل إِلىٰ شَتِيم بن خُوِيلد الفـزَاري، وَقِـيل لِسَـمَّاك بـن عَـمرُو البَاهِلي.

وَمِثلُه قَوْله تَعَالىٰ: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ﴾ الْأَعْرَافِ: ١٧٩؛ لَيْسَ أَنَّه ذَرَأهم لِيعذِّبَهم فِي جَهنَّم، بَل ذَرَأهم وَكَان عَاقبةُ ذَرْئِهم أَنْ صَارُوا فِيهَا، وَبِهَذا الحَرف يَحصُل الجوَابُ عَن كَثيرٍ مِن الآيَات المُتشَابهة الَّتي تَتعلّق بِهَا المُجبّرَة.

(١) الْإِسْرَاء: ١٦.

(٢) الْإِسرَاء: ١٥.

فَهَذِه الآيَة تُقَرّر مَبْدَأ الحُرّيَّة الدَّاخليَّة : حُرّيَّة الإِرَادَة وَالإِخْتيَار ، وَمِن ثَمَّ تُقَرّر مَبْدَأ التَّبْعَة الفَرديَّة والمَسْؤوليَّة الشَّخصيَّة . وَدَور الرَّسُول هُو دَور الَهَادي وَالمُرشد لاَ غَير ، وَالله لاَ يُرغم العَبد عَلَىٰ فِعل شَيء أَو تَركَه .

عَلَىٰ ضَوء هَذِهِ الآيَة يَجْب أَنْ تُفهَم الآيَة التَاليَة لَهَا ، وهِي مَوْضُوع البَحْث ، وذَلِكَ وفقاً للمَبْدَأ القُرْآني : « مَبْدَأ أَثَر التَّغيِّير الدَّاخلي فِي حَركَة التَّأرِيخ » :

يُعطي الله الفُرصَة وَيُهيء الظُّرُوف المُنَاسبَة للمُجْتَمع ، ليُحْرز المُجْتَمع التَّقدّم المَادِيّ وَالمَعنَوي ، وليُحَافظ عَلَىٰ مُستوىٰ هَذَا التَّقدّم : ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ هَذَا الرَّسُول يَأمُر بالإِصلاَح ، ويَأمُر بالنّظام العَادِل ، وَيُخَطط الشّكل الَّذي يَضمَن للمُجْتَمع بقَاءَه وَتَقدّمه .

وهَذَا الرَّسُول يَتوجّه بتَعالِيمه إِلَىٰ المُجْتَمع كُلّه ، إِلاَّ أَنَّهُ يَتوجّه بصُورَة خَاصّة إِلَىٰ الطَّبقَة المُسَيطرَة فِي المُجْتَمع « المُتْرَفِين » .

وَحِينَ لاَ يُطِيع هَؤْلاَء ، وَيَستمرُون مُغرَقِين فِي التَّرَف الَّذي يقُودهُم إِلَىٰ الإِنحلاَل ، وَيَستمرُون مُغرَقِين فِي الطُّغيَان الَّذي يَقودَهُم إِلَىٰ إِذلاَل الإِنْسَان ، وَلاَ يَتَحرك المُجْتَمع وَلاَ يُحَاول التَّغيِّير بَل يَستَمر فِي رضُوخه ، وفِي خضُوعه . حِينَئِذٍ .. حِينَئِذٍ تَتَوفر الشُّرُوط المَوْضُوعيَّة لإِنحلاَل المُجْتَمع : مِن شُيُوع التَّرَف ، وَسيَادَة المُتْرَفِين المُطْلَقَة ، والإِنْقسَام الطَبيعِي الحَاد ، وحِينَئِذٍ يَحْصل الإِنحلاَل وَالإِنهيَار وَالهَلاَك .

وَقَد وَرَد هَذَا القَانُون فِي القُرْآن مُطبقاً عَلَىٰ حَالاَت تَأرِيخيَّة مُعَيَّنَة فِي أَكْثَر مِن مَوضع ، مِنْهَا قَوْلَه تَعَالىٰ :

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ ٱلَّتِى لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِى ٱلْبِلَـدِ

وَثَمُودَ ٱلَّذِينَ جَابُواْ ٱلصَّخْرَ بِالْوَادِ وَفِرْعَوْنَ ذِى ٱلْأَوْتَادِ ٱلَّذِينَ طَغَوْاْ فِى ٱلْبِلَـٰدِ فَأَكْثَرُواْ فِيهَا ٱلْفَسَادَ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ﴾[١].

❊ ❊ ❊

بَقي عَلَينا أَنْ نُحلّل بَعْض النَّواحي التَّعبيريَّة فِي الآيَة مَوْضُوع البَحْث.

وَالَّذي يَسْتَرعي النَّظر مِن هَذِهِ الجِهَة أَمران.

الأمر الأَوَّل: قَوْلَه تَعَالىٰ: ﴿وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ﴾[٢].

فَهَم المُؤَلّف مِن «أَرَدْنا» الإِرَادَة الإِلَهيَّة الفِعْليَّة للإِهلاَك، وهَذَا خَطَأ. الحَقِيقَة هِي أَنَّ ٱسْتعمَال «أَرَدْنَا» فِي الآيَة مَوْضُوع البَحْث مِن قَبِيل قَولنَا: «إِذَا أَرَاد المَريض أَنْ يَمُوت ظَهَرت عَلَيهِ الأَعرَاض الفُلانيَّة» و «إِذَا أَرَادَت السَّمَاء أَنْ تَمْطُر ٱنْتَشرت فِيْهَا الغُيُوم» وَالمُرَاد مِن الإِرَادَة فِي هَذَين المَوردَين هُو إِجْتمَاع الشُّرُوط المَوْضُوعيَّة للمَوت وَالمَطر. وَقَد وَرَد نَظِير هَذَا التَّعْبِير فِي القُرآن فِي قِصّة مُوسَىٰ وَصَاحِبه: ﴿فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُ﴾[٣] وَمِن الوَاضح أَنَّهُ لاَ مَعْنَىٰ لِنِسبَة الإِرَادَة الفِعْليَّة إِلَىٰ الجدَار، وَإِنَّما المُرَاد أَنَّ الشُّرُوط المَوْضُوعيَّة لاِنقضَاض الجدَار قَد تَوفّرَت.

وَالتَّعْبِير بِـ«أَرَدْنَا» فِي الآيَة مَوْضُوع البَحْث مِن هَذَا القَبِيل، فَإِنَّ المُرَاد أَنَّ الشُّرُوط المَوْضُوعيَّة لِهَلاَك القَريَة قَد تَوفّرت، بِسَبب العصْيَان والطُّغيَان.

وَنِسبَة الإِرَادَة هُنَا إِلَىٰ الله «أَرَدْنَا» وَلَيْسَ إِلىٰ القَريَة «أَرَادَت» للإِشَارَة إِلَىٰ أَنَّ

(١) ٱلفَجْر: ٦ ـ ١٤.

(٢) ٱلإِسْرَاء: ١٦.

(٣) ٱلكَهْف: ٧٧.

هَذَا القَانُون كَوني أَوجدَه الله تَعَالىٰ فَالنّسبَة إِلَىٰ الله مِن حَيْث أَنَّهُ أَوجَد النِّظَام الكَوني مِن جُملَة قوَانِين الإِجْتمَاع الإِنْسَاني وَنمُو المُجْتَمعَات وَٱنحلالَهَا.

الأَمر الثَّاني: قَوْلَه تَعَالىٰ: ﴿أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا۟ فِيهَا﴾.

تَوهَم المُؤَلّف أَنَّ المُرَاد أَنَّ الله أَمرهُم بأَنْ يَفسقُوا. وهَذَا خَطَأ. الحَقِيقَة إِنَّ هَذَا الإِسْتعمَال مِن بَاب «أَمَرتَهُ فَعَصَاني» أَي أَمرنَاهُم بوَاسطَة رُسلنَا بِالطَّاعَة والإِسْتقَامَة ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾. ولَكنَّهُم عَصوا، وَٱستَمرُوا عَلَىٰ غَيّهم، فَتَمت بمَعصِيتهم الشُّرُوط المَوْضُوعيَّة للإِنحلاَل وَالدّمَار.

وَإِلاَّ فَكَيف يُعقل أَنْ يَكُون الله قَد أَمرهُم بالفِسق، وَهُو القَائِل:

﴿قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ﴾[1].

﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّىَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْىَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾[2].

* * *

مِن هَذَا التَّحلِيل يَبدُو كَم كَان المُؤَلّف سَاذجَاً وَسَطحيَّاً حِينَ عَلّق عَلَىٰ هَذِهِ الآيَة فِي الصَّفحَة (١٢٢) بقَوْلَه:

«كَان (الله) قَد شَاء تَدمِير القَريَة، وَلَكن لئَلَّا يَكُون للعِبَاد عَلَيهِ حُجّة فِي مَا لجَأ إِلَىٰ المَكْر، فَأَمر مُترَفيهَا أَنْ يَفسقُوا حَتَّىٰ يَبدُو للجَمِيع وَكَأَنَّ القَريَة ٱستَحقّت ذَلِكَ التَّدمِير. بَيْنَما الحَقِيقَة غَير ذَلِكَ».

الآيَة الرَّابِعَة:

---

(١) ٱلْأَعْرَاف: ٢٨.

(٢) ٱلْأَعْرَاف: ٣٣.

﴿إِنَّ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ يُخَـٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَـٰدِعُهُمْ﴾[١].

إِنَّ هَذِهِ الْآيَة جُزء مِن مَقْطَع مَوضُوعَه المُنَافقُون يَشتَمل عَلَىٰ الْآيَات (١٣٧ ـ ١٤٣ ـ ٱلنِّسَاء) وَيَبدأ بقَوْلَه تَعَالىٰ :

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ثُمَّ كَفَرُوا۟ ثُمَّ ءَامَنُوا۟ ثُمَّ كَفَرُوا۟ ثُمَّ ٱزْدَادُوا۟ كُفْرًا لَّمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًۢا بَشِّرِ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ٱلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ ٱلْكَـٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلْعِزَّةَ فَإِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾.

ثُمَّ يَنْهىٰ الله فِي الْآيَة (١٤٠) المُؤْمِنين عَن مُجَالسَة هَؤْلاَء المُنَافقِين فِي حَالَة مُعَيَّنَة :

﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلْكِتَـٰبِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا۟ مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦٓ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ جَامِعُ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ وَٱلْكَـٰفِرِينَ فِى جَهَنَّمَ جَمِيعًا﴾[٢].

ثُمَّ بَيَّن الله للمُؤْمِنين مَظْهرَاً مِن مَظَاهر نفَاق هَؤْلاَء وَخدَاعهم :

﴿ٱلَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ ٱللَّهِ قَالُوٓا۟ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ وَإِن كَانَ لِلْكَـٰفِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوٓا۟ أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُم مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَـٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾[٣].

هَذَا المَوْقف مِن المُنَافقِين ، وَأَمثَالَهُ مِن مواقفهم سَمّاه فِي الْآيَة مَوْضُوع البَحْث

---

(١) ٱلنِّسَاء : ١٤٢.

(٢) ٱلنِّسَاء : ١٤٠.

(٣) ٱلنِّسَاء : ١٤٠ ـ ١٤١.

الله خُدَاعاً، وبَيَّن أَنَّ خداعهم [illegible] يَعْصمهُم مِن المُـجازَاة والعُـقُوبَة، وَسَـمّىٰ الجَزَاء عَلَىٰ الخُدَاع خُدَاعاً أَيْضاً، وذَلِكَ للمُشاكلَة وَالمُجَانسَة، كَمَا تَقَدّم نَـظِيرَه فِي تَحليلنَا للآيَات السَّابقَة.

﴿إِنَّ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ يُخَـٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَـٰدِعُهُمْ وَإِذَا قَـامُوٓاْ إِلَـى ٱلصَّـلَوٰةِ قَـامُواْ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلاً﴾ [1].

لَقَد تتَبَيَّن لنَا مِن هَذَا الحَدِيث أَنَّ الآرَاء الَّتي تَوصَل إِلَيهَا المُؤَلّف عَـن فِكـرَة «المَكْر الإلٰهي» كَانَت خَطَأً نَشَأ مِن الأَسْبَاب الَّتي قَدّمنَاهَا.

وإِلَىٰ اللّقَاء مَع المُؤَلّف فِي الحَدِيث عَن المَارْكسيَّة.

---

(١) ٱلنِّسَاء: ١٤٢.

نَظْرَة نَقْدِيَّة

إِلَىٰ رَكَائِز المَارْكسيَّة

الرَّكَائِز الْأَسَاسيَّة للفَلْسَفَة المَاركسيَّة

إنّ المَاركسيَّة عَاجزَة عَن تَقدِيم تَصور للكَون يُطمَئن إلَيه العَقْل. وَهي تَلجَأ فِي هَذَا المَيدَان ـ كمَا بَيْنَّا سَابقَاً ـ إِلىٰ الغَيب، وَهُو مَا تَتّهم بِهِ الدِّين. وَالفَرق بَيْنَ الغَيب الَّذي تَلجَأ إِلَيهِ المَاركسيَّة وَالغَيب الدِّينيّ أَنَّ الغَيب المَاركسي ٱعْتِرَاف بِالجهَالَة فِيمَا يَعُود إِلَىٰ أَصل الكَون يَتنَاقض مَع المواقف الفِكريَّة الجَازمَة فِي القَضَايَا المُتفرعَة عَن المَسأَلَة الأَسَاسيَّة، وَأَمّا الغَيب الدِّينيّ فهُو أَمر تَقْضي بِهِ الضَّرورَة العَقليَّة وهُو إدرَاك وَاعٍ للمَسأَلَة الأَسَاسيَّة يَجْعَل النَّتَائِج مُنْسَجمَة مَع مُقَدّمَاتها. وَقَد أَثْبَتنَا هَذِه الحَقِيقَة بصُورَة لاَ تَدع مَجَالاً للشَّك فِيمَا سَبق مِن هَذِه المَقَالاَت.

وَالآنْ نُرِيد أَنْ نُنَاقش رَكَائز المَاركسيَّة الأَسَاسيَّة لنَكْشف عَن أَنَّها بَعِيدَة عَن العِلم، وَأَنّهَا ـ عَلىٰ الصَّعِيد الفَلْسَفي ـ حَافلَة بالأَخطَاء.

تَحْدِيد المَفَاهِيم

ذَهَب المُؤلّف ـ كَغَيرهِ مِن المَاركسِّيين ـ إِلىٰ أَنَّ ثَمَّة مَفهُومَين فَلسَفِيَين للكَون هُمَا: المَفْهُوم المِثَالي، وَالمَفهُوم المَادِيّ. وَأَنَّ مَا أَسمَاه «الصُّورَة الكَونيَّة» وهُو مُصْطَلح آخْتَارَه للتَّعبِير عَن «مَجْمُوع النَّظريَات الشَّاملَة لطَبيعَة الكَون الَّتي تَسُود فِي عَصر مِن العُصِور»[1]. هَذِه الصُّورَة الكَونيَّة إِمَّا أَنْ تَكُون مثَاليَة أَو مَادِيَّة، وَلاَ شَيء آخر غَير هَذَين.

فهُو يَتَحدث فِي الفَصْل الْأَخِير مِن كتَابه (مَدْخَل إِلىٰ التَّصور العِلمي ـ المَادِيّ للكَون وَتَطورَه) عَن المَادِيّة المِيكَانِيكيَّة. وَنجَاحهَا العَظِيم فِي تَفْسِير الظّوَاهر الكَونيَّة، وَآنْتشَارهَا الكَبِير فِي شَتىٰ فرُوع المَعْرفَة البَشريَّة ثُمَّ سقُوطهَا نهَائيَّاً تَحتَ ضَربَات نَقْد الفَلْسَفَة المَادِيَّة الدّيَالكتيكيَّة ـ وَذَلكَ فِي مقَابل الفَلْسَفَة المثَاليَة الَّتي فَشَلت فِي التَّأثِير عَلىٰ المَادِيّة المِيكَانيكيَّة «وَجَاءَت أَوّل مَوجَة مِن النَّقد المُوجّه للصُّورَة الكَونيَّة المِيكانيكيَّة هَذِه مِن جِهَة اليَمِين.. وَكَان أَهم مُمَّثل لهَذِه النَّزعَة اليَمينيَّة فِي نَقْد المَاديَّة وَرفضهَا هُو الفَيلسُوف الْإِنجِلِيزي (بَاركلي) الَّذي حَاول أَنْ يَحل مَحلهَا صُورَة كَونيَّة مثَاليَّة رُوحيَّة تَعْتَبر جَمِيع الكَيفيَّات

---

(١) أُنظر، الصَّفحَة: ٢٠٣.

المَحسّوسَة ـ فِي التَّحلِيل الأَخِير ـ أَفكَارَاً فِي العَقْل الإِلهي، وَذَلِك بالمَعْنىٰ الحَرفي للعبَارَة تَقريبَاً. وَبهَذَا الصَّدد نَذْكر أَيضَاً أَنَّ الفَيلسُوف الأَلمَاني (لاَيبنَتز) دَخَل فِي جَدَل مَشهُور مَع (نيُوتن) وَأَتبَاعه هَاجَم فِيهِ أُسّس المَاديَّة السَّاكنَة مِن وجْهَة نَظر مثَاليَة رُوحيَة مَحضَة»[1].

وَبَعد أَنْ أَشَار إِلىٰ أَنَّ مَجمُوعَة مِن الشُّعرَاء وَالفَنَّانِين الإِنْجلِيز الَّذين يَنتمُون إِلىٰ المَدرسَة الرُّومَانسيَّة رَفضُوا المَاديَّة المِيكانيكيَّة لأَسبَاب غَير فَلسَفيَّة، قَال:

«غَير أَنَّ النَّقد اليَمِيني للمَاديَّة المِيكَانيكيَّة لَم يَلق آذَانَاً صَاغيَة خَارج أَوسَاط نَفر مِن الأُدبَاء وَرجَال الدِّين وَبَعض الفَلاَسفَة مِن أَصحَاب المَيُول المثَاليَة الوَاضحَة... أَمَّا النَّقد الأَهم الّذي وَجّه إِلىٰ المَاديَّة المِيكانيكيَّة فَقَد جَاء مِن جهَة اليَسَار، وَتَحت اسم المَاديَّة الدّيالكتيكيَّة...»[2].

وَسَأَعْرض فِي نهَايَة هَذَا الفَصْل إِلَىٰ التَّنَاقضَات الفِكريَّة العَجِيبَة الَّتي وَقَع فِيهَا المُؤلّف. أَمَّا هُنا فَعَلينَا تَصحِيح الخَطَأ الَّذي وَقَع فريهِ المُؤلّف حِينَ ذَهَب إِلَىٰ وجُود مَفهُومَين فَلسَفيَّين للكُون فَقَط هُما: المَاديَّة (مِيكَانِيكيَّة، وَديَالكتِيكيَّة) وَالمثَاليَّة. فِي حِين أَنَّ الحَقِيقَة هِي أَنَّ ثَمَّة ثَلاَثَة مَفَاهِيم فَلسَفيَّة نَشرحهَا فِيمَا يَلي.

---

(١) أُنظر، الصَّفحَة: ٢١٦.

(٢) أُنظر، الصَّفحَة: ٢١٧.

المَفْهُوم المِثَالي :

المَفْهُوم الفَلْسَفي المِثَالي عَن العَالَم يَـقْضي بأَنَّـه لاَ يُـوجَد خَـارج إِدْرَاكـنَا وَتَصورَاتنَا أَي وَاقع مَوضُوعي للْأَشيَاء، فكُلّ الْأَشْيَاء الَّتي يَتكوّن مِنْهَا العَالَم مَا هِي إِلاَّ أَلوَان مِن تَفْكِيرنَا وَتَصورَاتنَا، وَمَا لاَ نُدركَه فهُو غَير مَوجُود.

المَفْهُوم الوَاقِعي المَادِيّ :

المَفْهُوم الفَلْسَفي الوَاقِعي المَادِيّ يَقضي بأَنَّ العَالَم مَـوجُود خَـارج إِدْرَاكـنَا وَتَصورَاتنَا مُسْتَقل ! إِسْتقلاَلاً تَامّاً عَن وَعينَا لْأَنَّه وَاقع مَـوضُوعي قَـائِم بـنَفْسه خَارج ذَوَاتنَا. وَالحَقِيقَة النّهَائِيَّة فِي الكَون هِي المَادّة التَّـجرِيبيَّة، وَهـي السَّـبب الْأَعمَق للظوَاهر الكَونيَّة، وَلاَ يُوجد وَرَاءهَا شَيء آخـر يُـمكن اَعـتبَاره سَـبَبَاً لوجُود الكَون وَاَسْتمرَاره.

المَفْهُوم الوَاقِعي الإِلٰهي:

المَفْهُوم الفَلْسَفي الوَاقِعي الإِلٰهي يَقْضي ـ كالمَفهُوم المَادِيّ ـ بأَنَّه يُوجد وَاقع مَوضُوعي للعَالَم خَارج إِدْرَاكنَا وَتَصورنَا وَمُسْتَقل عَنْهُما، فهُو قَائِم بنَفْسه خَارج ذَوَاتنَا. وَلَكن هَذَا الوَاقِع المَوْضُوعي لَيْس ذَاتيَّ الوجُود ـ عَلىٰ خِلاَف مَا يَذْهَب إِلَيه المَفْهُوم المَادِيّ ـ بَل هُو مَعلُول الوجُود لمَبدإٍ غَير مَادّي فَوق الرُّوح، وَفَوق الطَبِيعَة مَعَاً، وَهِو الله تَعَالىٰ.

وَإِذَن فَالرَّأي الشَّائع تَورط فِيهِ المُؤلّف، وهُو اَعْتبَار أَنَّ ثَمَة مَـفهُومَين فَـقَط عَلىٰ الصَّعِيد الفَلْسَفي أَحَدهُما المَفْهُوم المِثَالي، والْآخَر المَفْهُوم الوَاقِعي المَادِيّ،

وَأَنَّ رَفضَ أَحدهُما يَعْني حَتمَاً الْإِيمَان بالآخر ـ هَذَا الرَّأي وَاضح الخَطأ، فَثَمَّة ـ كمَا بَيْنَّا ـ مَفهُومَاً ثَالثَاً هُو المَفْهُوم الوَاقِعي الْإِلٰهي. إِنَّ المَـفْهُوم المِـثَالي مُـقَابل للمَفهُوم الوَاقِعي الْإِلٰهي كمَا هُو مُقَابل للمَفهُوم الوَاقِعي المَادِيّ. وهَذَان المَفهُومَان للمثَاليَة يَلتَقيَان فِي أَنَّهُما مَعَاً وَاقعيَان يَلتزمَان بوجُود مَوضُوعي خَارجي للكَون مُسْتَقل عَن إِدرَاك الْإِنْسَان وَتَصورَاته، وَيَختلفَان فِي السَّـبب الْأَعـمَق للـتَّكوِين، فالمَاديَّة تَقف عِندَ المَادّة وَلاَ تَتعدَاها جَازمَة بأَنَّ المَادّة هِي أَصْل المَوجُودَات وجَائزَة فِي هَذَا المَسأَلة تَارَة أُخرىٰ، والْإِلٰهيَّة تَتجَاوز المَادّة فِي هَذِهِ المَسأَلَة إِلَىٰ الله.

* * *

وَيَجب أَنْ نُكرّر هُنا مَا سَبق وبَيْنَّاه فِي هَذِهِ المَقَالاَت وهُـو أَنّ الْإِيـمَان بـالله تَعَالىٰ سَبَباً لوجُود الكَون وَاستمرَاره لاَ يَعْني إِلغَاء نظَام العِلّيَّة وَالسَّببيَّة مِن الكَون كمَا يَشَاء المَادّيُون أَنْ يَتَصورُوا، فَإِنَّ الْإِلٰهي لاَ يَعْتَقد بأَنَّ يَداً تَمتَد مِن المَجهُول لتَحْدث ظوَاهر الطَبِيعَة وَتَغيرَاتها، وَإِنّما يُعْتَقد بأَنَّ لكُلّ شَيء سَبباً عَلىٰ الْإِنْسَان أَنْ يَبْحَث عَنْهُ، وَأَنَّ جَمِيع الْأَسْبَاب تَتنَاهىٰ فِي الْأَخِير إِلَىٰ سَبَب أَعلىٰ مِنْهَا جَمِيعَاً هُو الله تَعَالىٰ:

إِنَّ المَفْهُوم الوَاقِعي الْإِلٰهي يَعْتَرف بنظَام العِلّيّة فِي الكَون، بَل يَنْبَثق مِنْهُ، إِذْ أَنَّ مِن جُملَة أَدلّته دَلِيل العِلّيَّة، غَايَة مَا فِي الْأَمر أَنّه لاَ يَقْف عِندَ حَدّ المَادّة الَّتي ثَبَت عَجزهَا عَن التَّفسِير وَإِنّما يَسْتَجِيب للضَّرورَة العَقليَّة فَيقُول بوجُود عِلّيَّة أَسَاسيَّة عُظمىٰ تَنْتَهي إِلَيها جَمِيع العِلّل والْأَسْبَاب، وَهي الله تَعَالىٰ:

وَإِذَن فَهذَا المَفْهُوم الوَاقِعي الْإِلٰهي لاَ يَضع نَفْسَه فَي مُعَارضَة مَع البَحْث العِلمي فِي الطَبِيعَة وَاكتشَاف الْأَسْبَاب الكَامنَة وَرَاء حوَادثهَا وظوَاهرهَا، بَل يَفْتَح جَمِيع

الْأَبوَاب أَمَام البَحْث العِلمي فِي جَمِيع المَجهُولاَت.

* * *

وَيَترتَب عَلىٰ هَذَا أَمر آخر، وهُو أَنّه لاَ فَرق بَيْنَ الْإِلٰهي والمَادِيّ فِيمَا يَتَعلّق بالعِلم وَٱكتشَافَاته: فكلاَهُما يُعْتَبر الطَبِيعَة والْإِنْسَان مَوضُوعَاً لبَحْثه العِلمي، وَكلاَهُما يُؤْمِن بنَتَائج البَحْث العِلمي فِي مجَال التَّجربَة فِي الطَّبيعَة والْإِنْسَان، وَلَيس فِي حقَائِق العِلم شَيء يُمكن أَنْ يُسمّىٰ مَاديَّاً أَو إِلٰهيَّاً. الفَرق الْأَسَاسي بَيْنَهُما هُو أَنّ الْإِلٰهي يَردّ الكَون إِلَىٰ سَبب أَعمَق هُو الله تَعَالىٰ وَمَن ثَمَّ فإِنّه يُؤْمِن بنَوع مِن الوجُود المُجَرد، خَارج المَجَال التَّجرِيبي، وَيُرتب عَلىٰ هَذَا المَوقف نَتَائِجه فِي الْإِنْسَان وَالحَيَاة والمُجْتَمع، أَمّا المَادِيّ فَيَقف عِندَ المَادّة لاَ يَتعدّاهَا، وَلاَ يُؤْمِن بمَا وَرَاء التَّجربَة الحِسّيَّة.

وَيَتّضح لنَا مِمَّا سَبق أَنَّ الكِيَان الفَلْسَفي للمَادّيَّة لاَ يَرتَكز ـ عِندَ التَّحلِيل ـ عَلىٰ حَقَائِق إِيجَابيَّة فِي مقَابل الْإِلٰهي، وَإِنَّما يَرتَكز عَلىٰ النَّفي وَالْإِنْكَار للحَقِيقَة المُجَرّدَة الَّتي تَعْتبرهَا الْإِلٰهيَّة سَبَباً نهَائيَّاً للوجُود، وَلمَا يَترتب عَلىٰ هَذِهِ الحَقِيقَة المُجرّدَة الْأَسَاسيَّة مِن حَقَائِق مُتفرعَة عَن الْإِيمَان بهَا، وَمُستَند هَذَا الْإِنْكَار عِندَ المَادِيَّة هُو عَدَم قيَام التَّجربَة الحسّيَّة عَلىٰ وجُودهَا وَلَيس قيَام تَجربَة حسّيَّة عَلىٰ عَدمها، فَإِنَّ المَادِيَّة تَقول بالنّسبَة إِلَىٰ هَذِهِ المَسأَلة (لاَ أُومِن بالله لْأَنَّه لاَ دَلِيل حسّي تَجربي عَلىٰ وجُودَه» وَلاَ تَقول (لاَ أُومِن بالله لْأَنَّ لَدي دَلِيلاً حِسّيَّاً تَجرِيبيَّاً عَلىٰ عَدَمه).

وَلَكن مِن الوَاضح إِنَّ هَذَا الأُسلُوب فِي موَاجهَة هَذِهِ المَسأَلة غَير عِلمي فَإِنَّ مَوضُوع البَحْث فِيهَا حَقِيقَة مُجَرّدَة، وَلَيس شَيئَاً مَادِيَّاً.

وَإِذَا كَانَت التّجربَة الحِسّيَّة لاَ تُقَدّم دَلِيلاً عَلىٰ المَفْهُوم الإِلٰـهي للـعَالَم، أَي لاَ تَكشف فِي الظَّواهر المُحسّة عَن سَبب مُجَرّد، فَهي كَذَلكَ لاَ تُقَدّم دَلِيلاً عَلىٰ النَّفي المُطْلَق الَّذي تَقُوم عَلَيه المَادِيَّة، إِذْ أَنَّ مِن الوَاضح أَنَّ التَّجربَة الحِسّيَّة لاَ يُمكن أَنْ تُعْتَبر بُرهَاناً عَلىٰ نَفي حَقِيقَة خَارج حدُودهَا لمَا ذَكرنَا مِن أَنَّ مَوضُوع البَحْث فِي المَسأَلَة حَقِيقَة مُجَرّدة وَلَيس شَيئَاً مَاديَّاً.

وَعَلىٰ هَذَا فَالقَول بوجُود (مَاديّة عِلميَّة) أَي تَجرِيبيَّة مُجَرد دَعوىٰ لاَ أَسَاس لهَا مِن الصّحَة، لأَنَّ المَفْهُوم الفَلْسَفي المَادِيّ للعَالَم ـ كَالمَفهُوم الفَلْسَفي الإِلٰـهي للعَالم ـ شَيء لاَ يُمكن إِثبَاته بالتّجربَة الحِسّيَّة، لأَنَّ مَوضُوع البَحْث غَير تَجرِيبي، إِنَّ المَادِيَّة كَالإِلٰهيَّة آتّجَاه فَلسَفي فِي مُحَاولَة فَهم العَالَم، وَالطَّـرِيق إِلَـىٰ إِثـبَات صوَابيَّة أَحد المَفهُومَين مَحصُور فِي الفِكْر وَمُسلمَاته لاَ غَير.

وَقَد أَثبتنَا فِي أَبْحَاثنَا السَّابقَة عَجْز المَارْكسـيَّة عَـن تَـقدِيم تَـفْسِير مَـعقُول للكَون، وَأَنّ المَفْهُوم الصَّحِيح فَلسفيَّاً هُو المَفْهُوم الوَاقِعي الإِلٰهي للكَون.

وعَلَينَا الآن أَنْ نَفي بمَا وَعَدنا بهِ سَابقَاً مِن الكَشف عَن تـهَافُت المَـارْكسـيَّة وإِفلاَسهَا وَعُـقمهَا كـفَلسفَة تُـرِيد أَنْ تُـقَدّم تَـفسِيرَاً شَـاملاً للكَـون، وَالحَـيَاة، والإِنْسَان. وذَلِكَ مِن خِلاَل نَـظرَة نَـقديَّة إِلَـىٰ الرَّكَـائز الأَربـعَة الرَّئـيسيَّة فِـي المَاركسيَّة وَهي:

حَرَكَة التَّطَوّر.

وتَنَاقُضَات التَّطَوّر.

وَقَفزَات التَّطَوّر.

وَالإِرْتبَاط العَامّ.

حَرَكَة التَّطَوّر

خِلاَفَاً لمَا هُو شَائِع ، لَيْسَ القَول بأَنَّ الكَون المَادِيّ فِي حَالَة حَرَكَة مُسْتَمرَة وَقفَاً عَلىٰ التَّفْكِير المَاركسي ، فَالوَاقعيَّة الْإِلٰهيَّة تُؤْمِن بهَذَا أَيْضَاً قَبْلَ (هَيغل وَمَارْكس) ، وَقَبْلَ أَنَّ يَكُون ثَمَّة فِي تَأرِيخ الفَلْسَفَة ديَالكتِيك ، وَلاَ حَاجَة بالْإِنْسَان إِلَىٰ أَنَّ يَكُون مَاركسيَّاً ليَكتَشف هَذِهِ الحَقِيقَة البَسيطَة البَديهيَّة .

وَقَد بَلَغ المَفْهُوم الفَلْسَفي المِيتَافِيزيقي للحَرَكَة ذرّوَة كَمَالَه وَنُضجَه فِي الفَلْسَفَة الْإِسلاَميَّة في أَعمَال الفَيلسُوف الْإِسْلاَميّ العَظِيم صَدر الدِّين الشِّيرَازي ، مُحَمد بن إِبرَاهِيم القوَامي الشِّيرَازي (٩٧٩ هـ ـ ١٠٥٠ هـ) فِي نَظريتَه عَن الحَرَكَة العَامّة ، والحَرَكَة الجَوهريَّة ، وَقَد « بَرهَن عَلىٰ أَنَّ الحَرَكَة لاَ تَمس ظوَاهر الطَبِيعَة وَسَطحهَا العَرضي فَحَسب ، بَل الحَرَكَة فِي تِلك الظّوَاهر لَيْسَ إِلاَّ جَانبَاً مِن التَّطَوّر يَكشف عَن جَانب أَعمَق ، وَهُو التَّطَوّر فِي صَمِيم الطَبِيعَة وَحَركتهَا الجَوهريَّة . ذَلِكَ أَنَّ الحَرَكَة السَّطحيَّة فِي الظّوَاهر ، لمَّا كَان مَعنَاهَا التَّجدد وَالْإِنقضَاء فَيَجب، لهَذَا ، أَنْ تَكُون عِلتهَا المُبَاشرَة أَمرَاً مُتجدّداً غَير ثَابت الذَّات أَيْضَاً ؛ لْأَنَّ عِلّة الثَّابت ثَابتَة ، وَعلّة المُتَغيّر المُتَجدّد مُتّغيرَة مُتَجدّدة ، فَلاَ يُمكن أَنَّ يَكُون السَّبب المُبَاشر للحَركَة أَمرَاً ثَابتَاً ، وَإِلاَّ لْإِنْعَدَمت الحَرَكَة ، وَأَصبَحت قرَارَاً وَسكُونَاً» .

الجَدِيد الَّذي جَاءَت بهِ المَارْكسيَّة فِي حَرَكَة التَّطَوّر هُو فِكرَة التَّنَاقُض

الخَيَاليَّة البَاطلَة ، فَقَد ٱعْتَبرت المَاركسيّة أَنَّ التَّنَاقُض هُو سَبب الحَرَكَة فِي الطَبِيعَة ، وأَنَّ الحَرَكَة هِي المَظهَر الَّذي يَنْتج عَن الصّرَاع بَيْن المُتنَاقضَات . وَالحَقّ أَنَّ المَارْكسيَّة بِعَملهَا هَذَا وَقَعت فِي خَطاءٍ فَلسَفي جَسِيم ، وَلاَ بُدّ مِن تَجرِيد مَفهُوم حَرَكَة التَّطَوّر عَن فِكرَة التَّنَاقُض لتَنسَجم الرُّؤيَة الفَلسفيَّة لحَركَة التَّطَوّر مَع الوَاقِع المَوْضُوعي لهَذه الحَرَكَة فِي الطَبِيعَة .

وَإِذَن، فَلاَ خِلاَف بَيْنَ الإِلٰهي وَالمَادِيّ فِي أَصْل مَسأَلة الحَرَكَة فِي الطَبِيعَة ، وإِنَّمَا الخِلاَف بَيْنَهُما فِي نُقطَتَين . الأُولىٰ طَبيعَة الحَرَكَة ، وَالثَّانيَة مَجَال الحَرَكَة .

آ ـ طَبِيعَة الحَرَكَة :

يَدخِل مَبدَأ التَّنَاقُض عُنصرَاً أَسَاسَاً فِي مَفْهُوم الحَرَكَة عِند المَارْكسيَّة بَيْنَمَا يُعْتَبر مَبدَأ عَدَم التَّنَاقُض عُنصرَاً أَسَاسَاً فِي مَفْهُوم الحَرَكَة عِندَ الوَاقِعيَّة الإِلٰهيَّة . وَلذَا فَلاَبُدّ قَبْلَ نَقد المَارْكسيَّة فِي هَذِهِ المَسأَلة مِن بَيَان مَبدَإِ التَّنَاقُض ليكُون القَاريء عَلىٰ بَيْنَة مِن مَجَال البَحْث .

١ - التَّنَاقُض :

التَّنَاقُض ٱختلاَف القَضِيَتَين بحَيث يَلزَم ، لذَات الإِختلاَف ، مِن صِدق كُلّ وَاحدَة مِنْهُما كِذب الأُخرىٰ وَبالعَكس .

وَيَتحَقّق هَذَا بأَنْ تَكُون القَضيَة الوَاحدَة فِي مَوضُوعهَا وَمَحمُولهَا ، مَع وحدَة الزَّمَان ، وَالمَكَان ، وَوحدَة الإِضَافة (النِّسبَة) وَوحدَة الشَّرط ، وَالوحدَة فِي الجُزء أَو فِي الكُلّ وَالوحدَة فِي القوّة (الإِمكَانيَّة) أَو فِي الفِعليَّة . أَنْ تَكُون القَضيَّة

الوَاحدَة فِي جَمِيع هَذِهِ الأُمُورِ مَوصُوفَة بالوجُود وَالعَدم مَعاً. مَثَلاً: هَذِهِ القَطرَة مِن المَاء فِي هَذَا الأُنبُوب، بجَمِيع أَجزَائهَا حَارّة فِعلاً بدَرجَة عَشرَة مِن الدَّقيقَة السّتين مِن السَّاعَة الوَاحدَة صَبَاحَاً. وهَذِهِ القَطرَة مِن المَاء بجَمِيع أَجزَائهَا فِي الأُنبُوب وَفي نَفْس الزَّمَان غَير حَارّه بِالفِعل بنِسبَة عَشر دَرجَات.

هَاتَان القَضيتَان مُتنَاقضتَان. والوَاقِعيَّة الإِلٰهيَّة تَقول إِنَّ صِدقهُما مُسْتَحِيل وَأَنَّ كِذب إِحدَاهُما ضَرُوري. وَتَقول المَارْكسيَّة إِنَّ كِذب إِحدَاهُما مُسْتَحِيل وَأَنَّ صِدقهُما ضَرُوري.

٢ ـ الحرَكَة فِي المَارْكسيَّة:

قَالَ إِنْجلز:

«إِنَّ الوَضع يَخْتَلف كُلّ الإِختلاَف إِذْ نَنْظُرُ إِلَىٰ الكَائنَات وَهي فِي حَالَة حَركتها، فِي حَالَة تَغيرهَا، فِي حَالَة تَأثِيرَاتها المُتبَادلَة عَلَىٰ بَعْضهَا البَعْض، حَيث نَجد أَنْفسنَا بِدء هَذِهِ النَّظرَة بأَنّنا مَغمُورُون فِي التّنَاقضَات، فَالحَركَة نَفْسهَا هِي تَنَاقض، إِنَّ أَبسَط تَغَير مِيكَانِيكي فِي المَكَان لاَ يُمكن أَنَّ يَحْدث إِلاَّ بوَاسطَة كَينُونَة جِسمٍ مَّا، فِي مَكَان مّا، فِي لَحظَة مّا، وَفي نَفْس تِلكَ اللَّحظَة كذَلك، وَفي غَير ذَلِكَ المَكَان، أَي كَينُونَته وَعَدمهَا مَعَاً فِي مَكَان وَاحد، فِي نَفْس اللَّحظَة الوَاحدَة، فَتتَابع هَذَا التَّنَاقُض تَتَابعَاً مُستَمرّاً،

وَحَلَّ هَذَا التَّنَاقُض حَلاً مُتوَافقاً مَع هَذَا التَّتابع ، هُو مَا يُسمّىٰ بالحَركَة» .

هَذَا النَّص الأَسَاسي يُصّور بوضُوح طَبيعَة الحَرَكَة فِي الفَلْسَفَة المَارْكسيَّة، أَنَّهَا نَتيجَة الصّرَاع وَالتَّدَافع بَيْن النَّقِيضَين . فكُلّ وَاحد مِنْهُما ـ بحُكم كَونه نَقِيضاً ـ يَمنَع الآخَر مِن التَّحقق المُسْتَمر ، وهَذَا التَّمانع يَنْتج الحَرَكَة وَالتَّغير .

٣ ـ الحَرَكَة فِي الوَاقِعيَّة الإِلٰهيَّة :

تَنْطَلق الوَاقِعيَّة الإِلٰهيَّة فِي فَهْمهَا لطَبِيعَة الحَركَة حِقِيقَة أَنَّ التَّنَاقُض مُسْتَحِيل ، وَأَنّه لاَ يَنْتُج الحَرَكَة بَل يَنْتُج السّكُون وَالثَّبَات كمَا سَنَرىٰ .

إِنَّ الحَرَكَة فِي الوَاقِعيَّة الإِلٰهيَّة هِي تعَانق مُسْتَمر بَيْن الفِعليَّة وَبَيْن القوّة (الإِمكَانيَّة) ، والحَرَكَة تَنْتُج مِن تَحول إِمكَانيَّة الشَّيء إِلَىٰ وجُود فِعلي ، ولَيْسَت صِرَاعاً بَيْن فِعلَيتِين مُتنَاقضَتَين كمَا تَزْعم المَارْكسيَّة . فكُلّ شَيء مَوجُود يَمْتَلك ـ إِلَىٰ جَانب مُستوىٰ الوجُود المُعَيّن الَّذي يَمتَلكهُ فِعلاً ـ إِمكَانيَات للنّمو وَالتّقدم ، أَو للتَّغيِّر بكَشلٍ عَام . إِذَا ٱحْتَفظ هَذَا الشَّيء بفِعليتهِ المُعَينَة وَلَم يَكْتَسب فِعليَة جَدِيدَة أُخرىٰ فهُو سَاكن وَثَابت ، أَمّا حِين يَنْتَقل مِن فِعلِيَته القَائِمَة إِلَىٰ فِعلِية جَدِيدَة غَير تِلك الَّتي كَان عَلَيهَا فهُو يَتحرك وَيَكسب وجُوداً أَكْثَر قوّةً وَثرَاءً . إِنَّ حَرَكتَه هِي تَحول إِمكَانيَاته المُسْتَكنّة فِيهِ إِلَىٰ فِعليَات ظَاهرَة عَلَيه ، فَحَركَة الشَّيء هِي ٱنْتقَال مُسْتَمر مُتَدرج مِن القوّة إِلَىٰ الفِعليَّة . مَثَلاً بَذرَة الوَرد هِي فِعلاً بَذرَة جَافّة ذَات حَجمٍ ، وَشَكلٍ مُعَينَين وَلكنّها تَملك فِي الوَقت عَيْنَه إِمكَانيَّة أَنْ تَتحَوّل عَبر مرَاحل مِن النّمو إِلَىٰ شَجرَة وَرد زَاهيَة اللَّون عَابقَة بالعَبِير . فَإِذَا

غَرَست وَتَهيَأَت لهَا ظُرُوف النّمو ٱنْتقلَت مِن كَونها بالفِعل بَذرَة جَافّة إلَىٰ مَرحلَة فِعليَّة جَدِيدَة هِي ٱنْبثَاقها عَن (سَمخ)[1] . لَقَد تَحَركَت البَذْرَة إلَىٰ الأَمَام بإكْتسَابهَا الفِعليّة الجَدِيدَة ، وَهي تَملك إمكَانيَّات أُخرىٰ فَإذَا تَحولَت إلَىٰ نَبْتَة خَضرَاء فَوق التُّربَة تَكُون قَد تَحَركَت أَيْضاً بإكْتسَابهَا فِعليّة جَدِيدَة ، وَهَكذَا تَسْتَمر فِي الحَرَكَة إلَىٰ أَنَّ تَصل إلَىٰ غَايتهَا وَتَستَنْفذ جَمِيع إمكَانَاتهَا ، وَحِينَئذٍ تَتَوقّف عَن النّمو ، لأَنَّهُما لَمْ يَعد لَدَيها مَا تُعطِيه ، لَمْ تَعد قَادرَة عَلىٰ إثرَاء وجُودهَا بمُستويَات جَدِيدَة لأَنّهَا حَقّقَت جَمِيع إمكَانَاتهَا .

وَمِثَال آخر ، المَاء ، إنّه يَكُون بَارداً تَمَاماً . فِي دَرجَة الصِّفر . فَهُو بَارِد بالفِعل وَفي الوَقت نَفْسَه يَملك « إمكَانيَّة » الحرَارَة مِن أَبسَط مُستويَاتهَا إلَىٰ أَعْلىٰ مُستَويَاتهَا حَيْث يَتَحول المَاء إلَىٰ غَاز . فإذَا عَرَّضنَا المَاء للنَّار تَبدَأ حرَارَته ، الَّتي كَانَت قوّة فَقَط ، بالتَّحول والحَرَكَة نَحو الفِعليّة ، وَهَكذَا تَكُون « إمكَانيّة » الحرَارَة قَد تَحَولّت إلَىٰ « فِعليّة » الحرَارَة بدَرجَة مُعَينَّة وَلنَفرضهَا (٥٠) دَرجَة مَثَلاً ، وَلاَ تَزَال فِيه «إمكَانيَّة» أَنْ يَتَجاوَز هَذِهِ الدَّرجَة إلَىٰ دَرجَة أَعلىٰ مِنْهَا ، فَإذَا بَلَغ دَرجَة الغَليَان تَكُون « إمكَانيَّة » الغَليَان قَد تَحَولَت إلَىٰ «فِعليَّة» الغَليَان ، وَلاَ تَزَال مَع ذَلِكَ « إمكَانيَّة » أَنْ تَشْتَد حَرَارَته فَيَتحوّل إلَىٰ غَاز . . . .

وَإذَن فَثَّمة حرَارَة وَاحدَة مُسْتَمرَة الوجُود « تَتَحرك » وَتَنمو بإسْتمرَار وذَلِكَ بتَحولهَا مِن مَرحَلة القوّة وَالإمكَان إلَىٰ الفِعليَّة وَالإنجَاز ، وَكُلّما تَحَقّقت بالفِعل إحدىٰ الإمكَانيَّات أَفْسَحت المَجَال لتُحَقق إمكانيَّة أُخرىٰ أَعْلىٰ مِنْهَا .

---

(١) السَّمْخ : الثَّقْب . أُنظر ، النّهايَة فِي غَرِيب الحَدِيث : ٢/٣٩٨ .

هَذَا هُو مَفهُوم الفَلْسَفي للحَركَة لدَىٰ الوَاقِعيَّة الإلٰهيَّة . فَمَاذَا لَدىٰ المَارْكسيَّة ؟

إنَّ الحَرَكَة فِي المَفْهُوم المَاركسيّ تَقُوم ـ كمَا عَرَفت ـ عَلىٰ أَسَاس الإيمَان بمَبدإِ التَّنَاقُض وَوجُود التَّنَاقُض بأَجمعهَا بالفِعل ، وَيَترتَب عَلىٰ ذَلِكَ صِرَاع بَيْنهَا بحُكْم كَونهَا مُتنَاقضَات ، وَنَتِيجَة الصّرَاع هِي الحَرَكَة ، بخِلاَف مَفهُومنَا الَّذي يَرىٰ فِي الحَرَكَة تَعبِيرَاً عَن سَير الشَّيء مِن مَرحَلَة الإمكَان إِلَىٰ مَرحلَة الفِعليَّة .

لقَد تَوَرّط مَارْكس وَأَشيَاعه فِي خَطَأ جَسِيم نَتيجَة جَهلِهِم بحَقِيقَة التَّنَاقُض فَاعْتبَرُوا أَنَّ وجُود الفِعليَّة وَالقوّة فِي الشَّيء مِن بَاب إجتمَاع النّقِيضَين ، وأَنْ تَحول الشَّيء وتَحركهُ مِن الإمكَانيَة إِلَىٰ الفِعليَّة نَتِيجَة الصّرَاع بَيْن هَذَين النّقِيضَين ، (وَقَد عَرَفت إنَّ هَذَا لَيْسَ مِن التَّنَاقُض فِي شَيء) فَإنَّ المَاء لَيْسَ بَارداً بدَرجَة الصِّفر بِالفِعل ، وَحَارّاً بالفِعل (فِي اللَّحظَة عَينهَا) بدَرجَة (٥٠) مَثلاً ، وإنَّمَا هُو بَارد بدَرجَة الصّفر بالفِعل ، وَحَار بدَرجَة (٥٠) بالقوّة ، وهَذِهِ القوّة تَتَحول إِلَىٰ الفِعل لَيْسَ فِي اللَّحظَة عَيْنهَا وإنَّمَا فِي لَحظَة أُخرىٰ تَتَحوّل فِيْهَا الإمكَانيَّة إِلَىٰ فِعليَّة جَدِيدَة تَتجَاوز الفِعليَّة السَّابقَة عَلَيهَا إِلَىٰ دَرجَة أَعْلىٰ مِن الوجُود الحرَاري . وَإلاَّ فَلو آمنَّا بمَفهُوم المَارْكسيَّة عَن الحَرَكَة وَإنّها صِرَاع بَيْن المُتنَاقضَات الفِعلِيَّة بأَجْمعهَا ، لأَدّىٰ بنَا ذَلِكَ إِلَىٰ نَتِيجَة أُخرىٰ هِي السّكون وَالثّبَات المُطلَقَين ، وَعَدم الحَرَكَة . بَيَان ذَلِكَ :

أَنّه إِذَا وَجَدت دَرجتَان مِن الحَرَكَة بالفِعل فِي زَمنٍ وَاحد فَهل يَتْغَيَّر الشَّيء أَو لاَ يَتْغَيَّر ؟! إِنْ أَجَابَت المَارْكسيَّة بأَنَّه لاَ يَتْغَيَّر يَلزَم مِن ذَلِكَ الجمُود وَالثَّبَات ، وَهُما ضِدّ الحَرَكَة . وَإِنْ أَجَابت أَنّه يَتْغَيَّر فَلنَا أَنْ نَسأَل : مَن أَين جَاء التَّغيّر ؟ وإِلَىٰ أَيّة حَالَة يَحصَل التَّغيّر مَا دَامَت جَمِيع المُتنَاقضَات مَوجُودَة بِالفِعل وَلَم يَكن بَيْنهَا

تَمَانُع وَتعَارُض ؟ إنَّ النَّتيجَة هِي الثّبَات لأَنّه فِي هَذَا الفرض لاَ تُوجد حَالَة مُنْتَظرَة للشّيء لأَنَّ جَمِيع حَالاَته نَاجزَة وَفِعليَّة الوجُود وَإِنْ أَجَابَت بالاعتراف بالتّعارض بَيْن المُتنَاقضَات فَلاَ بُدّ مِن الإعْترَاف بأَنّها لاَ يُمكن إذَن أَنْ تكُون بأَجمَعها موجُودَة بالفِعل ، وَلاَ بُدّ حِينَئذٍ مِن الرجُوع إِلَىٰ المَفْهُوم الوَاقِعي الإلٰهي عَن الحَركَة وَهُو قَائِم عَلىٰ مَبدَإ عَدَم التّنَاقُض ، وَانْتقَال الشّيء مِن القوّة إِلَىٰ الفعليّة .

وَهَكذَا يَسقط مَفهُوم المَاركسيّة عَن طَبِيعَة الحَركَة ، وَيَنكَشف مَدىٰ خَطَأهُ عَلىٰ هَذَا الضّوء :

نُدرك أَنَّ الحَركَة بَعد أَنْ كَانَت خُرُوجاً تَدرِيجيّاً للشّيء مِن القوّة « الإمكَانيَّة » إِلَىٰ الفِعليَّة ، ولَيْسَت صرَاعاً بَيْن المُتنَاقضَات المَوجُودَة كُلّهَا بالفِعل ـ كمَا تَزْعم المَاركسيَّة ـ فَلاَ بُدّ لنَا مِن الإذعَان بأَنَّ الحَركَة لاَ تُوجد بذَاتها نَتيجَة لعَامل دَاخلي فِي الطَبِيعَة ، بَل لاَ بُدّ لهَا مِن مُحرّك خَارجي ، لاَ بُدّ مِن سَبب خَارج عَن الشّيء يَنْقلهُ مِن مَرحلَة الإمكَان إِلَىٰ مَرحَلَة الفِعليَّة . وَلاَ بُدّ أَنْ يَكُون هَذَا السَّبب الخَارجي فَوق الطَبِيعَة ، لأَنَّ كُلّ مَا هُو مِن الطَبِيعَة فهُو مُتَغيّر وَمُتَحرك ، وَمَن ثَمّ فهُو بحَاجَة إِلَىٰ مُحرّك ، وهَذَا السَّبب الخَارجي فَوق الطّبيعة هُو الله تَعَالىٰ .

ب ـ مَجَال الحَركَة :

خِلاَفاً للوَاقعيّة الإلٰهيّة ، تُعمّم المَاركسيّة قَانُون التّطَوّر والحَركَة إِلَىٰ عَالَم الأَفكَار وَلاَ تَقف بهَذَا القَانُون عِندَ حدُود الوَاقِع المَوْضُوعي للطّبِيعَة . فَالفِكر ـ كَالمَادّة ـ مَجَال لقوَانِين الحَركَة فِي الطَبِيعَة .

وعَلىٰ خِلاَف ذَلِكَ مَوقف الوَاقِعيّة الإلٰهيّة مِن هَذِهِ المَسأَلَة ، فَإِنَّ مَجَال قَانُون

الحَرَكَة فِيْهَا مَقصُور عَلىٰ المَادّة فَقَط وَلاَ يَتَجاوزهَا إِلَىٰ الفِكْر البَشري.

وهَذَا المَوقف المَاركسي بالنّسبَة إِلىٰ مجَال الحَرَكَة يُلغي صِفَة الثَّبَات عَن أَي شَيء فِي عَالم الطَبِيعَة وَعَالَم الفِكْر عَلىٰ السَّواء، وَهُو مَا لاَ يُمكن لأَي عَقل سَلِيم التَّسلِيم بهِ، فَإِنَّنا إِذَا التَزمنَا بأَنَّ التَّغير والحَرَكَة سَمَة للفِكر كمَا هُو سمَة للطَّبيعَة لَم يَعد فِي مَقدُورنَا الوثُوق بأَي نَتِيجَة بَل لاَ يَعُود ثمَة عِلم لأَنَّ التَّغير يُلغي كُلّ الحقَائِق الَّتي تَكُون قَد تَوصلنَا إِلَيهَا. فَلاَ بُدّ مِن الإِلتزَام بأَنَّ ثَمّة فِي عَالَم الطَبِيعَة وَعَالَم الفِكْر حقَائِق ثَابتَة يَنْطَلق مِنْهَا الفِكْر نَحو المَجهُول فَيَكتَشفه وَمِن هَذِهِ الحقَائِق قَانُون الحَرَكَة فَهُو قَانُون ثَابت. وَيَقضي عَلَينَا رَأي المَارْكسيَّة فِي مجَال الحَرَكَة أَنْ نَقُول إِنّه مُتغير، وَإِذَا كَان كَذَلك فَثمَّة إِذاً وَاقع مَوضُوعي لاَ يَسري عَلَيه قَانُون الحَرَكَة والمَارْكسيَّة عَلىٰ الحَالَين لاَبُدّ لهَا مِن الإِلتزَام بوجُود حقَائق ثَابتَة لاَ يَجري عَلَيهَا قَانُون الحَرَكَة.

وَقَد قَامَت المَارْكسيَّة بمُحَاولاَت للبُرهَان، عَلىٰ مَذْهبهَا فِي هَذِهِ المَسأَلَة وَسَنَرىٰ أَنَّهَا فَشَلت فِي تَقدِيم بُرهَان صَحِيح.

المُحَاولَة الأُولىٰ:

أَنَّ الفِكْر إِنْعكَاس للوَاقع المَوْضُوعي، وَلذَا فَلاَبُدّ أَنْ يَكُون مُطَابقَاً لهُ وَإِلاَّ لَم يَكُن إِنْعكَاسَاً لهُ، وَحَيث أَنَّ الحَرَكَة ظَاهرَة طَبِيعيَّة فِي عَالم الفِكْر.

وَلَكن هَذَا التَّصوِير خَاطيء، فَإِنَّ كَون الفِكْر ـ الَّذي يَجْعل مِن الوَاقِع المَوْضُوعي مَوضُوعَاً لهُ ـ إِنْعكَاسَاً لهَذَا الوَاقِع لاَ يَعْني أَنَّ الفِكْر يَشْتَمل عَلىٰ جَمِيع الخَصَائِص الخَارجيَّة للوَاقع المَوْضُوعي.

فَأَنَّ الفِكْـر يُـدرك الوَاقِـع المَـوْضُوعي المُـتحرّك ، مُـجرداً عَـن خَـصَائِصهِ المَوضُوعيَّة فِي الخَارج إِذْ يَشْتَمل إِنتقَالهَا إِلَىٰ دَاخل الفِكْر . أَنَّ الفِكْر يُدْرك الشَّيء بإِعتبَارَه مَفهُومَاً عَقليَّاً لاَ بـإِعْتبَاره كُـتلَة خَـارجـيَّة ، وَلذَا فَأَنَّ الفِكْـر الفِكْـر لاَ يَستَوعب فِي دَاخلهِ حَرَكَة لشَيء ، إِلاَّ إِنَّ هَذَا لاَ يَعْني أَنّه يُدرك الشَّيء فِي حَالَة مُعَينَة ثُمَّ يَجْمَد عِندهَا فَلاَ يَتعدَاهَا ، بَل يُدرك إِنَّ هَذَا المَوضُوع غَير ثَـابت عَـلىٰ حَالَة وَاحدة بَل هُو مُتَغيّر ، وَيُتَابعهُ فِي تَغيرَه فَيُكوّن عَن كُلّ حَـالَة مِـن حَـالاَته مَفُهومَاً مُطَابقَاً لهَا .

مَثَلاً: ميكرُوب الجُدري لهُ خَصَائِص مُعَينَة فِي وَاقعهِ الخَارجي ، فهُو يَـتَكوّن بطَريقَة مُعينَة ، وَيَشتَمل عَلىٰ أَجزَاء مُعينَة وَيُؤدي وَظِيفَته فِي نَشر المَرض بطَريقَة مُعينَة هَذَا فِي وجُودهِ الخَارجي : أَمَّا فِي وجُودهِ الذّهني فالأَمر يَخْتَلف عَن ذَلِكَ . إِنَّ العَالَم يُمْكنهُ أَنْ يُدرك جَميع هَذِهِ الخوَاصّ فِي المُختَبر ، وَلَكن هَذِهِ الخوَاصّ لاَ تَنْتَقل إِلَىٰ الذّهن البَشري ، و (فِكرَة) المِيكرُوب مَهمَا كَانَت مُفصّلَة وَدَقِـيقَة ، لاَ يُمكن أَبَدَاً أَنَّ تَكُون مُشتَملة عَلىٰ خصَائِص (وَاقع) مِيكرُوب فِي الخَارج .

فَالمكرُوب يَخْضَع لقَانُون الحَرَكَة فِي الخَارج : يَتَكوّن ، وَيَنمُو ، وَيَتفَاعل مَع جِسم الإِنْسَان ، وَيُصِيبَه بالمَرض ... هَذِهِ الخَصَائِص المَوجُودَة فِي الخَـارج أَو الَّتي تَتولّد عَن حَرَكَة المِيكرُوب فِي سَبِيل النّمو لاَ تَنْعَكس فِي الفِكْر .

نَحنُ بالفِكر نُتَابع مَرَاحل نمُو المِيكرُوب . فَنَأخذ فِكرَة عَن تَكوينَهِ ، وَفِكـرَة عَن عَنَاصره ، وَفِكرَة عَن تَفَاعلهِ ، وَفِكرَة عَن طَبيعَة المَرض الَّذي يُسَببهُ ، وَمِن مَجمُوع هَذِهِ الأَفكَار نُكوّن « مَفهُومنَا » عَن المِيكرُوب :

أَنَّ الفِكْر يُسَجّل مرَاحل حَرَكَة المَادّة فِي الطَبِيعَة ، وَلاَ تَتولّد هَذِهِ المَرَاحل فِي

دَاخلهِ كمَا تَتَولّد فِي الطَّبِيعَة. فلنَتَصَور إنْسَانَاً يَركض وَإنّ كَامِيرا تَلفزيُونيّة تُسَجّل حَرَكَته. أنّها تُسَجّل حَركَته وَلاَ تَتَحرك مَعَهُ، حِيْنَما يُعْرَض عَلَينَا الشَّرِيط المُصَوّر نَدك أنَّ الشَّرِيط يُسَجّل حَرَكَة الرَّكض فِي مَرَاحلهَا وَلاَ يَركض مَع الرَّاكض فِي الشَّرِيط. كَذَلِكَ الفِكْر يُسَجّل حَرَكَة المَادّة فِي الطَّبِيعَة، وَلاَ تَجري حَرَكَة المَادّة فِي الفِكْر، وَمَا ذَلِكَ إلاَّ لأَنَّ الحَرَكَة تَتوَقف عَلَىٰ وجُـود خَـصَائِص مَـوضُوعيَّة للمَادّة لاَ تَتوفر إلاَّ فِي الخَارج، وهَذِهِ الخَصَائِص لاَ تُوجَد فِي دَاخل الفِكْر لتَـتّم الحَرَكَة فِي دَاخل الفِكْر.

الخُلاَصَة: الفِكْر يُتَابع الطَّبِيعَة فِي حَركتهَا وَلاَ تَـتَحرك الطَّـبِيعَة فِـي دَاخـله، وَمَعنىٰ أنَّ الفِكْر يُتَابع الطَّبِيعَة فِي حَركتهَا هُو أنَّ الفِكْر عِندَ الإِلٰهي ـ لاَ يَتَوقّف عِندَ مَرحَلَة مِن مَراحل المَوجُود الخَارجي لاَ يَتَعداهَا، بَل يُتَابع نـمُو هَـذَا المَـوجُود الخَارجي، وَحَركَته، وَتَطوره، وَالتَّغيرَات الَّتي تَطرَأ عَلَيه.

وَالمَسأَلَة مِن الوضُوح وَالبدَاهَة بحَيث لاَ تَحتَاج إلَىٰ مَزِيد مِن البَيَان.

المُحَاولَة الثّانِيَة:

أنَّ الفِكْر جُزء مِن الطَّبِيعَة وَالوَاقِع المَادِيّ المَوْضُوعي فهُو كمَا يَقولُون إنْـتَاج عَال للمَادّة، وَإذَا كَان جُزءً مِن الطَّبِيعَة فَلاَبُدّ أَنْ تَجري عَلَيه قوَانِينهَا ومِنْهَا قَانُون الحَرَكَة.

وَنُجِيب أوّلاً: أنَّ الفِكْر لَيْسَ مَاديَّاً، وإنَّمَا هُو نَشَـاط للـجَانب الرُّوحِـي مِـن الإنْسَان. وذَلِكَ لأَنَّ كَون الشَّيء مَاديَّاً يَعْني أحد أَمرَين: إمَّا أَنّه بالذَات مَادّة، أو أَنّه ظَاهرَة قَائِمَة بالمَادّة. وَالإدرَاك (الفِكْر) لَيْسَ بذَاته مَادّة وَلاَ هُو ظَاهرَة قَائِمَة

بعضُو مَادِيّ كَالدّمَاغ، لأَنَّه يَخْتَلف فِي القوَانِين الَّتي تُسيطر عَلَيه عِن المَادّة نَفْسهَا كمَا يَخْتَلف عَن الصُّورة المَادِيَّة المُنْعَكسَة عَلىٰ العُضو المَادِيّ أو القَائِمَة فِيهِ.

وهَذَا الفَهْم للإِدرَاك يَقوم عَلىٰ أَمرَين يُميزَان الفِكْر عَن المَادّة وَعَن الظَّوَاهر القَائِمَة فِيْهَا:

الأَوّل: أَنَّ إِدرَاكنَا للوَاقع المَوْضُوعي مُخْتَلف فِي خصَائِصهِ الهَندسيَّة عَن الوَاقِع المَوْضُوعي نَفْسه؛ فَنَحنُ نُدرك الوَاقِع المَوْضُوعي بكُلّ اتّسَاعَه، وَشمُوله وَتَنوعه، وَأَبعَاده، دُون أَنْ يَتّسع المُخّ لكُلّ هَذِهِ الأَبعَاد، وَالأَشكَال، وَالتّنوعَات. وَبَدِيهي أَنّه مِن المُسْتَحِيل مَادِيّاً عَكْس صُورَة حَدِيقَة مَسَاحتهَا كِيلُومتر مُربع عَلىٰ لَوحَة مَسَاحتهَا مرتْر مُرَبع مَع احتفَاظ الحَدِيقَة بكُلّ مسَاحتهَا الخَارجيَّة وَاقْتصَار اللَّوحَة عَلىٰ مَسَاحتهَا الخَارجيَّة، مَع أَنّنَا بالفِعل نُدرك الحَدِيقَة بكُلّ مسَاحتهَا وَتنوع مَوجودَاتها وَيَستَحِيل مَاديَّاً أَنْ يَكُون ذَلِكَ إِنْعكَاسَاً عَلىٰ جُزء ضَئِيل مِن المُخّ. وَإِذَن فَالفِكر لَيْسَ مَادّة، ولَيْسَ ظَاهِرَة قَائمَة بالمَادّة. وَمَهمَا كَان التَّفسِير العِلميّ لإِدرَاك الخَصَائِص الهَندسيَّة فِي الصُّورَة العَقليَّة فَإِنّه لاَ يُجِيب عَلىٰ السُّؤال الفَلسَفي عَن مَكَان وجُود هَذِهِ الصُّورَة الكَاملَة للوَاقع المَوْضُوعي للحَدِيقَة. وَيَستَحِيل الجوَاب عَلىٰ هَذَا السُّؤال بأَنّها صُورَة مَادِيّة كمَا يَسْتَحِيل الجوَاب بأَنّها قَائِمَة بالمَادّة، بِالمُخّ، وَيَتعَيّن الجوَاب عَلَية بأَنّها صُورَة لاَ مَادِيّة وَلاَ قَائمَة بالمَادّة أَنَّها صُورَة مُجرّدَة عَن المَادّة قَائمَة بالجَانب الرُّوحِي، الإِنْسَاني مِن الإِنْسَان.

الثَّانِي: أَنَّ الفِكْر يَتّسم بظَاهِرَة الثَّبَات، بَيْنَما الصُّوَر الحسّيَّة مُتَغيرَة. فَالصُّورَة الَّتي نُدركهَا للحَدِيقة وَنَحنُ عَلىٰ مَقربَة مِنْهَا تَبقىٰ عَلىٰ حَالهَا فِي إِدرَاكنَا مُحْتَفظَة

بجَمِيع خَصَائِصهَا فِي حَال نَظرنَا إِلَىٰ الحَدِيقَة مِن بَعِيد حَيث تَبدو للبَصَر أَصغَر مِمَّا هِي فِي الوَاقع ، فبالرَّغم مِن أَنَّ المَرْئيّ البَصري قَد تَغَيَّر إِلاَّ أَنَّ الْإِدرَاك الفِكْري بَقي ثَابتَاً عَلَىٰ حَالهِ . وَإِذَن فَالفِكر لَيْسَ مَادّة ، ولَيْسَ ظَاهرَة قَائمَة بـالمَادّة وَإِلاَّ لمَـا تَمَتّع بخَاصّة الثَّبَات مَع طُروء التَّغيِّر عَلَىٰ المَادّة وعَلَىٰ إِنْعكَاسَاتها . وَمَـهمَا كَـان التَّفسِير العِلميّ لظَاهرَة الثَّبَات فَإِنّه لاَ يُجِيب عَلَىٰ السُّؤال الفَلْسَفي ، إِذْ أَنَّ الصُّوَرة لاَ يُمكن أَنْ تَكُون هِي الصُّوَرة المُنْعكسَة عَن الوَاقِع المَوْضُوعي عَلَىٰ مَادّة الجِهَاز العَصبي وَإِلاَّ لطَرَأت عَلَيهَا نَفْس التَّغيرَات . إِنَّ هَذَا يَكشف عَن أَنَّ الْإِدرَاك لَـيْسَ مَادّة وَلاَ ظَاهرَة قَائمَة بالمَادّة وإِنَّمَا هُو نَشَاط للجَانب الرُّوحِـي الْإِنْسَـاني مِـن الْإِنْسَان .

وَنُجِيب ثَانيَاً : أَنَّ الفِكْر البَشَري وَاحد ، فَيَجب أَنْ يَخْضع لنَفس القوَانِين وَلذَا فَلَيس ثَمّة فَوق بَيْن أَفكَار المُؤْمِنين بالدّيالكتِيك وَغَيرهِم مِن هَذِهِ الجِـهَة ، وَلذَا فَيَجب أَنْ يُؤْمِن المَاركسيُون بأَنَّ أَفكَار البَشر جَمِيعَاً مُتطورَة ـ لْأَنّهَا جَمِيعَاً نَتَاج للطَّبيعَة ـ فَلمَاذَا يَتهمُون أَفكَار غَيرهم بالجمُود وَالتَّحجر وَيَسبغُون فَضِيلَة التَّطَوّر عَلَىٰ أَفكَارهم وَحدهَا . وَيَنبغي أَنْ يَتطور الفِكْر البَشري لدَىٰ جَمِيع النَّـاس فِـي جَمِيع الْأَزمَان وَالْأَمكنَة بدَرجَة مُتسَاويَة أَو مُـتقَاربَة ، فـلمَاذَا تَـفَاوَتت أَفكَـار النَّاس عَلَىٰ مَدىٰ التَّأرِيخ ؟

المُحَاولَة الثَّالثَة :

ٱعْتبَار التَّكامُل العِلميّ فِي شَتىٰ المَيَادِين دَلِيلاً عَلَىٰ الحَرَكَة الدّيالكتيكيَّة فِي الفِكْر .

وَالحَقّ أَنَّ التَّكامُل العِلميّ وَتَقدم العُلُوم أَمر لاَ يُمكن إِنْكَاره ، وَلكنّه لاَ يَصحّ

دَليلاً عَلىٰ الدّعوىٰ المَارْكسيَّة. فَتَقدّم العُلُوم وَتَكاملهَا جَاء نَتِيجَة لزيَادَة فِي كَميَّة الحَقَائق المُكتَشفَة يَنْتج عَنْهَا تَقَلص فِي كَميَّة الأَخْطَاء المُترَاكمَة، نَتِيجَة لعَمل العُلمَاء الدَّائب جِيلاً بَعد جِيل، ولَيْسَ نَتِيجَة لنمُو فِي دَاخل كُلّ حَقِيقَة عِلميَّة. إنَّ الحَقِيقَة تَبدأ بإِفترَاض. إِذَا بَقي هَذَا الإِفترَاض مَلاَيِّين السّنِين فَإِنّه لاَ يَتحوّل إِلَىٰ حَقِيقَة، وإِنَّمَا يَبقىٰ ٱفْترَاضاً. الّذي يَحْدث أَنَّ العُلمَاء يُجرُون تَجَاربهم عَلىٰ أَسَاس هَذَا الإِفترَاض الّذي يَطْرح جَانبَاً حِين لاَ تُؤيده التَّجَارب، فَإِذَا مَا أَيَدَته يَنْتَقل إِلَىٰ دَرجَة مِن التَّرجِيح تَحتَاج إِلَىٰ مَزِيد مِن التّجَارب إِلَىٰ أَنْ يَأخذ صِفَة الحَقِيقَة العِلميَّة. إِنَّ الّذي جَعَل الإِفترَاض حَقِيقَة لَيْسَ نمُو الإِفترَاض وَإِنّما مَا أَضَافَته التّجارب مِن خُبرَات مُكْتَشفة. وَإِذَا غَدا الإِفترَاض حَقِيقَة فِي مَيدَان العُلُوم فَقَد يوَاجه أَثنَاء تَطبِيقه مَا يَجْعَله أَكثَر وَثُوقَاً، أَو يَدخُل عَلَيه تَعديلاَت مُعَينطة، أَو يُلغِيه مِن دَائرَة العُلُوم نهَائيَّاً، إِنَّ كُلّ هَذَا يَعْني أَنَّ زيَادَة فِي كَميَّة الحَقَائِق وَتَقلصاً فِي كَميَّة الأَخطَاء هُو مَا حَصَل، وتَأرِيخ العُلُوم هُو تَأرِيخ المُحَاولاَت الّتي تَزِيد فِي كميَّة الحَقَائِق وَتَقلص مِن كَميَّة الأَخْطَاء.

تَنَاقُضَات التَّطَوّر

بَعْد أَنَّ آمَنَت المَارْكسيَّة ـ كَالوَاقعيَّة الْإِلٰهيَّة ـ بمَبدَأ الحَرَكَة فِي الطَبِيعَة وَتَطوّر الطَبِيعَة مِن خلاَل حَركتهَا العَامّة ـ بَعد أَنْ آمَنَت بهَذَا وَاجَهت السُّؤال الكَبِير : مِن أَينَ جَاءَت الحَرَكَة فِي الطَبِيعَة ؟ .

أَجَابَت عَلىٰ ذَلِكَ الوَاقِعيَّة الْإِلٰهيَّة بأَنَّ هَذِهِ الحَرَكَة مَعلُولَة لسَبب فَوق المَادّة وَالطَبِيعَة وَهُو الله تَعَالىٰ .

أَمَّا المَادِيَّة الدّيالكتِيكيَّة فَقَد رَفَضت الْإِيمَان بحَقِيقَة المَبدإ الْأَوّل وَمِن هُنا كَان عَلَيهَا أَنْ تَجد جوَاباً عَلىٰ هَذَا السُّؤال الكَبِير . وَقَد تَوهّمَت أَنَّهَا وَجَدته فِي تَبني مَبدإ التَّنَاقُض ، برَفضهَا لمَبدإ عَدَم التَّنَاقُض وَالهويَة . فالمَادّة تَحْتَوي فِي دَاخلهَا عَلىٰ الْأَضدَاد وَالنَّقَائض ، وَهي لاَبُدّ تَتصَارع لْأَنَّهَا نقَائض وَأَضدَاد ، وهَذَا الصّرَاع يُولّد الحَرَكَة الَّتي تُؤدّي إِلَىٰ التَّغير والتَّطَوّر ، فَالتّطوّر نَتِيجَة لصرَاع المُتنَاقضَات فِي دَاخل المَادّة ، فهُو نَاشيء مِن سَبب مَاديّ ذَاتي ولَيْسَ مِن مَبدإٍ خَارجي فَوق المَادّة والطَبِيعَة كمَا هُو مَذْهَب الوَاقِعيَّة الْإِلٰهيَّة .

وَقَد أَدّىٰ إِنكَار مَبدَإ عَدَم التَّنَاقُض وَتَبني مَبدإ التَّنَاقُض إِلَىٰ إِنْكَار مَبدَإ آخر وَهُو مَبدَأ الهويَة أَي أَنَّ الشَّيء عبَارَة عَن عَين ذَاته ولَيْسَ عِبَارَة عَن شيء آخر ، فَذَهبَت المَارْكسيَّة ـ نَتِيجَة لتَبني مَبدَإ التَّنَاقُض ـ إِلَىٰ أَنّه يَجْب أَنْ يَكُون الشَّيء غَير نَفْسه ؛ لْأَنَّه مَا دَام الشَّيء مُحتويَاً لنَقِيضَه ، وَنَفيه وَمَا دَام هَذَا النَّقِيض نَافيَاً لْإِثبَاته وَمُنْتَفيَاً فِي ذَات الوَقت فِي حَرَكَة نَفي مُسْتَمرة وَٱنْتفَاء مُسْتَمر فَلاَبُدّ أَنْ

تَنْقَلب القَضيَة (آ ـ هي ـ آ) إِلَىٰ (لَيْسَت آ ـ هي ـ آ) دَائِمَاً .

وَالحَقّ أَنَّ التَّنَاقُض كمَا بَيْنَّاه فِي حَدِيثنَا عَن حَرَكَة التَّطَوّر مُسْتَحِيل إِطلاَقَاً بحَيث لاَ نَتَصوّر أَنَّ عَقلاً بشَرِيَّاً سَويّاً يُؤْمِن بمَا تَدّعي المَارْكسيَّة الْإِيمَان بِهِ مِن كَون التَّنَاقُض ـ لاَ مُمكنَاً فَقَط ـ وإِنَّمَا ضَرُوري الوجُود . فَمِن المُسْتَحِيل قَبُول فِكرَة أَنَّ شَيئَاً بعَينهِ مَوجُود بالفِعل وَأَنّه بعَينَه مَعدُوم بالفِعل فِي زَمَان وَاحد وَمكَان وَاحد وَشرُوط مُتّحدَة وَظرُوف مُتّحدَة فِي حَالي الوجُود وَالعَدم .

وإِنكَار المَارْكسيَّة لمَبدإ عَدَم التَّنَاقُض نَاشيء مِن أَنَّ مَارْكس وَأَشيَاعه لَم يَفهمُوا هَذَا المَبدأ ، أَو فَهمُوه وَلكنّهُم أَنْكرُوه تَوصلاً إِلَىٰ غَايَات سيَاسيَّة فِي نضَالهم للْإِستيلاَء عَلىٰ السُّلطَة . كمَا بَيْنَّا ذَلِكَ فِيمَا تَقَدّم وَلذَا فَأَنَّ المَارْكسيَّة لَم تُقَدّم بُرهَاناً عَلىٰ مَبدإِ التَّنَاقُض ، وَإِنّما قَدّمت أَمثلَة مِن الطَبِيعَة والمُجْتَمع زَعَمت أَنَّهَا مظَاهر للتّنَاقض فِي صَمِيم المَادّة وَلَدىٰ مُرَاجعَة مَا قَدّمه كُتّاب المَارْكسيَّة مُنذ مَارْكس وَإِنْجلز مِن أَمثلَة وَتَحلِيه يَتَبيَّن أَنّه لَيْسَ مِن التَّنَاقُض المُدعىٰ فِي شَيء .

* * *

وَخِتَامَاً نُلاَحظ أَنَّ المَارْكسيَّة نَفْسهَا تُقدّم دَلِيلاً عَلىٰ أَنَّ التَّنَاقُض مُسْتَحِيل وأَنَّهَا في مَوْقِفهَا هَذَا تَدْعَم مَوقف الوَاقِعيَّة الْإِلٰهيَّة فِي تَمسكهَا بمَبدإِ عَدَم التَّنَاقُض . وهَذَا الدَّلِيل نَاشيء مِن تَمسك المَارْكسيَّة بمَبدإِ التَّنَاقُض الَّذي أَدّىٰ بهَا إِلَىٰ رَفض مَبدَإِ عَدَم التَّنَاقُض فَالمَاركسيَّة مِن إِيمَانها بمَبدَإِ التَّنَاقُض وَرَفضهَا لمَبدإِ عَدَم التَّنَاقُض تَنْسَاق لاَ شعُوريَّاً إِلَىٰ مَبدإِ عَدَم التَّنَاقُض ، وَإِلاَّ فَعَليهَا أَنْ تُؤْمِن بأَنَّ الكَون يَحتَوي المَبدَأين مَعَاً . التَّنَاقُض وَعَدَمه .

﴿وَمَا دُعَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ﴾[1] .

---

(١) ٱلرَّعد : ١٤ .

قفزات التَّطَوّر

هَذَا القَانُون يَتَكوّن مِن النّقَاط التَاليَة :

١ ـ إنِّ حرَكَة التَّطَوّر هِي إِنْتقَال مِن التَّرَاكُم الكَمّي إِلَىٰ التَّغِير النَّوعي .

٢ ـ إنَّ هَذَا الْإِنْتقَال لَيْسَ تَدْرِيجيّاً وَإِنّما هُو دَفعي يَحْدث فُجأَة وَبقَفزَات .

٣ ـ إنَّ التَّغِيرَات النَّوعيَّة الفُجَائيَّة لَيْسَت دَائرِيّة ، وإِنَّمَا هِي «حرَكَة تَقَدّميَّة صَاعدَة ، وَإِنْتقَال مِن الحَالَة الكَيفيَّة القَدِيمَة إِلَىٰ حَالَة كَيفيَّة جَدِيدَة» .

تَرىٰ المَارْكسيَّة أَنَّ هَذَا القَانُون حَتمي فِي الطَبِيعَة وَالمُجْتَمع .

وَالمَارْكسيَّة ـ كمَا هُو شَأنّها فِي قَانُون تَنَاقُضَات التَّطَوّر ـ لاَ تُقَدّم دَلِيلاً فَلْسَفيّاً عَلىٰ دَعوَاها ، وإِنَّمَا تُقَدّم جُملَة مِن الْأَمْثلَة تَدّعي أَنَّهَا نمَاذج لمَا يَحْدث فِي الطَبِيعَة وَالمُجْتَمع عَلىٰ نطَاق مُستَوعب شَامل .

وَتَرىٰ الوَاقِعيَّة الْإِلٰهيَّة أَنَّ هَذَا القَانُون بَاطل ، وَأَنَّ المَارْكسيَّة وَضَعتهُ لخِدمَة أَهدَافهَا السِّيَاسيَّة ، كمَا شَرحنَا ذَلِكَ فِيمَا مَضىٰ ـ وأَنَّ المَبَاديء الَّتي يَتَأَلّف مِنْهَا هَذَا القَانُون غَير صَحِيحَة ، ويَتّضح ذَلِكَ فِيمَا يَأتي :

فِي طَرِيقَة البُرهَان :

تَعْمد المَارْكسيَّة هُنا ـ كمَا هُو الشّأن فِي قَانُون تَنَاقُضَات التَّطَوّر ـ إِلَىٰ البُرهَان

عَلىٰ مَوْقِفهَا بسَرد جُملَة مِن الأَمْثلَة كمَا ذَكرنَا. وَلَو سَلّمنَا بصحَة هَذِهِ الأَمْثلَة فِي دَلاَلتهَا فَإِنّها لاَ تَدل عَلىٰ أَنَّ مَضمُونهَا قَانُون عَام فِي الطَبِيعَة وَالمُجْتَمع، وَإِنّمَا غَايَة مَا تَدل عَلَيه هُو صحَة مَضمُونهَا فَقط ـ فمثَال المَاء حِين يَتَحول ـ بالحَرَارَة ـ دُفْعَةً إِلَىٰ غَاز حِين تَبلغ دَرجَة الحرَارَة (١٠٠) هَذَا المثَال ـ لَو سَلّمنَاه، وَهُو غَير مُسَلّم ـ إِنَّمَا يَدل عَلىٰ صِدق قَانُون قفزَات التَّطَوّر بالنّسبَة إِلَىٰ المَاء فَقط، وَلاَ يُمكن الاْنْتقَال مِنْهُ إِلَىٰ جَمِيع المَوجودَات الطَّبيعيَّة. وَهكَذَا الحَال بالنّسبَة إِلَىٰ جَمِيع الأَمْثلَة الأُخرىٰ.

وعَلىٰ هَذَا الضَّوء، فقَانُون قَفزَات التَّطَوّر مُجَرّد دَعوىٰ فَلسفيَّة ولَيْس حَقِيقَة فَلسَفيَّة، لأَنَّه لَمْ يَقم عَلَيه بُرهَان صَحِيح.

فِي مَبَاديء القَانُون:

أ ـ تَحوّل التَّغير الكَمّي إِلَىٰ تَغيّر كَيفي:

وَالمِثَال المُتدَاول هُو المَاء وَالحرَارَة فَإِنَّ المَاء إِذَا اْرْتَفَعت حرَارَته (كَميَّات الحرَارَة) إِلَىٰ أَنْ تتَراكم وَتَبلغ دَرجَة (١٠٠) يَنْقَلب مِن حَالَة السَّيلاَن إِلَىٰ حَالَة الغَاز، فَتكُون التَّغيّرَات (الكَميَّة ـ الحرَارَة فِي المِثَال) قَد أَدّت إِلَىٰ تَغيّرَات نوعيَّة (الحَالَة الغَازيَّة فِي المِثَال).

وَلَكن تَصوِير المِثَال غَير صَحِيح فَإِنّه مَبني عَلىٰ اْعْتبَار الحرَارَة شَيئاً كَميّاً فِي المَاء وَهي فِي الحَقِيقَة لَيْسَت كَذَلِكَ، بَل هِي كَيفيَّة، فَالتَّغيّر الكَيفي ـ الحرَارَة ـ أَدّىٰ إِلَىٰ تَغيّر كَيفي هُو الحَالَة البُخاريّة أَو الغَازيّة.

وَنُلاَحظ أَنَّ هَذَا المِثَال بالأُسلُوب الَّذي يَفْرضَه المَاركسيُون يَحتَوي عَلىٰ

التَّضلِيل فَإِذَا ٱفْتَرضنَا أَنَّ الحرَارَة فِي الأُسلُوب العِلميّ ـ ظَاهِرَة كَميَّة تُقَاس بالدّرجَات. وَالبُخَار أَو الغَاز ظَاهِرَة كَميَّة تُقَاس بموَازِين الضّغط أَو بعِلاَقَات الذّرّات فَهُنا إِذَن كَميّتَان ـ فزيَادَة كميَّة الحرَارَة أَدّت إِلَىٰ تَغيّر كمّي فِي المَاء ـ أَمّا إِذَا قُلنَا إِنَّ الحَالَة البُخَاريّة أَو الغَازيّة حَالَة كَيفيَّة؛ لأَنَّ «كَيفِيَّة» المَاء فِي حسّنَا تَتغيّر، فَإِنَّ الحرَارَة أَيْضاً حَالَة كَيفيَّة لأَنَّ حَالَة إِحْسَاسنَا بهَا تَخْتَلف عَن كَيفيَّة إِحْسَاسنَا بالبُرُودَة.

فَهُنا إِذَن كَيفِيتَان، أَدّىٰ تَغيّر كَيفيّة الحرَارَة إِلَىٰ تَغيّر كَيفيَّة المَاء ـ والمَارْكسيَّة تُجَافي الدّقة العِلميَّة لأَجل أَنْ تَجْعل مِن المِثَال مُطَابقاً لدَعوَاها فَتَنْظر إِلَىٰ الحرَارَة بأُسلُوب القِيَاس العِلميّ، وَتَنظر إِلَىٰ الحَالَة البُخَاريَة أَو الغَازيَة عَلىٰ أَسَاس حِسّي.

ب ـ الإِنْتقَال بِالقَفْزَة وَالدُّفعَة:

إِنَّ الوَاقِعيَّة الإِلٰهيَّة لاَ تُجَادل فِي وجُود التَّطَوّر الدَّفعي فِي الطَبِيعَة وَلكنّها لاَ تَعْتَبر ذَلِكَ قَانُوناً كَونيّاً شَاملاً لأَنَّه كمَا تَشْتَمل الطَبِيعَة عَلىٰ مَظَاهر للتّطور الدَّفعي تَشْتَمل كَذَلك عَلىٰ مَظَاهر للتَّطور التَّدرِيجي.

فَكمَا نُلاَحظ أَنَّ المَاء يَتطوّر مِن الحَالَة السَّائلَة إِلَىٰ الحَالَة البُخَاريَّة أَو الغَازيَّة دُفْعَة، نُلاَحظ أَيْضاً أَنَّ تَطوّر الجُرثُومَة الحَيّة فِي البَيضَة إِلَىٰ فَرخ، وَالفَرخ إِلَىٰ دَجَاجَة إِنَّمَا هُو تَطور تَدْرِيجي ولَيْسَ تَطوّراً دفعيّاً. وَكَذَلك الحَال فِي تَطوّر البَذّرَة إِلَىٰ شَجرَة فَإِنّه تَطوّر تَدْرِيجي ولَيْس تَطوّراً دفعيّاً.

ج ـ إنَّ التَّطوّر ليْسَ دائِريّاً، وَإنَّمَا هُو تقَدّمي صَاعِد أَبَداً

لاَ تَنْكر الوَاقِعيَّة الإِلٰهيَّة أَنَّ التَّطَوّر فِي الطَّبِيعَة تَكَامُلي وَتَقدمي، وَلكنّها تُنْكر أَنّه دَائِماً كَذَلِك، وَأَنّه لاَ يَكُون دَائِرِيّاً فِي حَالَة مِن الحَالاَت بل تُلاَحظ الوَاقِعيَّة الإِلٰهيَّة أَنَّ التَّطَوّر فِي كَثِير مِن الحَالاَت يَكُون دَائِرِيّاً.

وَمِن أَبرَز الأَمْثلَة عَلىٰ ذَلِكَ مِثَال المَاء الَّذي يَتحوّل إِلَىٰ بُخار ليَعُود إِلَىٰ مَاء، فَالحَركَة التَّطَوّريّة هُنا دَائِريّة ولَيْسَت تَقَدّميّة.

هَذِهِ المُلاَحظَات عَلىٰ طَريقَة البُرهَان وعَلىٰ مَبَادِيء القَانُون تَكْشف عَن زَيف قَانُون قَفْزَات التَّطَوّر.

وَتَبقىٰ مُلاَحظَات إِضَافيَّة عَلىٰ مِثَال المَاء.

١ ـ أَنَّ الحَرَكَة فِي المَاء لَيْسَت دِيَالكتِيكيَّة، لأَنَّهَا ـ كَمَا نَعْلَم ـ لَيْسَت نَاشِئَة عَن تَفَاعل ذَاتي فِي دَاخل المَاء، بَل هِي بوَاسطَة الحـرَارَة الخَـارجـيَّة، وَإِذَا كَـانَت ظَاهِرَة التَّبخر فِي المَاء نَمُوذجَاً لمَا يَحْدث فِي الطَّبِيعَة والمُجْتَمع فَلاَبُدّ لنَـا مِـن القَول بأَنَّ كُلّ الحَرَكَات التَّطَوّريّة الدَّفعيَّة، وَالتَّدريجيَّة تَحْدث بوَاسطَة عـوَامـل خَارجيَّة، وَحِينَئذٍ لاَ يَكُون التَّطَوّر حَتميّاً لأَنَّه نَاشيء مِن حَرَكَة ذَاتية فِي دَاخل المَادّة إِذْ نُلاَحظ أَنّه لاَ تُوجد حَرَكَة ذَاتيَة فِي دَاخل المَادّة، وإِنَّمَا هِي حَرَكَة تَنْشَأ مِن عَامل خَارجي فَتَتوقّف الحَرَكَة التَّطَوّريّة عَلىٰ وجُود العَـوَامـل الخَـارجـيَّة المُؤاتيَة فِي الطَّبِيعَة، والمُجْتَمع عَلىٰ حَدٍ سوَاء.

٢ ـ أَنَّ القَفْزَة التَّطَوّريّة فِي المَاء لاَ تَستَوعبهُ دُفْعَة وَاحدَة، وإِنَّمَا يَتبَخر المَـاء عَلىٰ دُفعَات لتَستَوعب الكميَّة كُلّهَا أَو لاَ تَستَوعبهَا كُلّهَا ـ حَسَب تَوفّر العَوَامـل الخَارجيَّة للتَّبخر ـ وَإِذَن، فَلاَ وَجْه للقَول بأَنَّ هَذَا القَانُون فِي الحَيَاة الإِجتمَاعيَّة

يَقضي بقَلب النّظَام الإِجْتمَاعي دُفْعَة وَاحدَة وَلمَاذَا لاَ يُـقَال إِنَّ القَـانُون يَـقضي بالتَّطوّر المَرحلي الإِصْلاَحي فِي المُجْتَمع كمَا هُو الحَال فِي الطَـبِيعَة، فَـيتنَاول التَّطَوّر قَفزَات جُزئيَّة تَتنَاول المُؤسّسَات الَّتي تَوَفرَت لهَا الظُّرُوف الإِجْـتمَاعيَّة القَاضيَة بحدُوث إِنْقلاَب فِيْهَا ؟

الْإِرْتبَاط العَامّ

قَالَ ستَالِين :

« إِنَّ الدّيَالكتِيك ـ خِلاَفَاً للمِيتَافِيزيَّة ـ لاَ يُعْتَبر الطَبِيعَة تَرَاكمَاً عَرضيَّاً للْأَشْيَاء ، أَو حوَادث بَعْضهَا مُنْفَصل عَن بَعْض ، أَو أحَدَهَا مُنْعَزل مُسْتَقل عَن الْآخَـر ، بَـل يُعْتَبر الطَبِيعَة كُلًّا وَاحدَاً مُتمَاسكَاً ، تَرتَبط فِيهِ الْأَشْـيَاء وَالحَـوَادث فِـيمَا بَـيْنَهُما اَرتبَاطَاً عُضويَّاً ، ويَتَعلّق أحَدَهَا بالْآخر ، ويَكُون بَعْضهَا شَـرطَاً لبَـعض بـصُورَة مُتقَابلَة » . هَذِهِ هِي دَعوىٰ المَارْكسيَّة وَهي تُرِيد أَنْ تَنْسب إِلَـىٰ نَـفْسهَا فَـضِيلَة اَكتشَاف هَذَا القَانُون دُون سوَاها مِن الفَلْسفَات المِيتَافِيزيَّة .

وَلَكن الحَقِيقَة عَلىٰ خِلاَف ذَلِكَ تَمَامَاً ، وَقَد تَورّط أَئِمّة المَارْكسيَّة ـ مَارْكس وَإِنجلز وَسوَاهُما ـ فِي هَذِهِ الدّعوىٰ إِمّا لجَهلهِم بمَوقف المِيتَافِيزيّة ـ والوَاقِـعيَّة الْإِلٰهيَّة بوَجْه خَاصّ ـ وَإِمّا بدَافع مِن النّيّة السَّيئَة .

فَإِنَّ الوَاقِعيَّة الْإِلٰيهَة تُؤْمِن بقَانُون الْإِرْتبَاط قَبْلَ أَنْ يَكُون للدّيالكتِيك فِي دُنيَا الفَلْسَفَة وجُود ، بَل أَنَّ قَانُون الْإِرْتبَاط العَامّ فِي الوَاقِعيَّة الْإِلٰهيَّة رُكن أَسَـاس لاَ يُمكن تَكوِين نَظرَة مُتكَاملَة عَن الكَون ، وَالحَيَاة إِلاَّ مِن خلاَله .

وَلَكنَّ الوَاقِعيَّة الْإِلٰهيَّة لاَ تَبني مَوْقِفهَا مِن قَانُون الْإِرْتبَاط العَامّ عَـلىٰ أَسَـاس الدّيَالكتِيك الَّذي تُؤْمِن بهِ المَارْكسيَّة ـ والَّذي عَرفَت زَيفَه وَبُـطلاَنه فِـي بَـحْث

سَابق. وَإِنّما تَبني مَوْقِفهَا مِن هَذَا القَانُون عَلىٰ أَسَاس مَبدَإِ العِلّيَّة الَّذي لاَ يُمكن فَهْم الوجُود إِلاَّ مِن خلاَلهِ، وَقَد تَقَدَّم بَحْثَه فِي فَصلٍ سَابق مِن هَذِهِ المَقَالاَت.

فَالوَاقعيَّة الْإِلٰهيَّة تَرْفُض مَبدَأ وجُود الكَون بالصّدفَة كمَا تَرْفُض مَبدَأ وجُود الكَون نَتِيجَة لضَرورَة ذَاتيَة مُحتَواة فِي دَاخل عَنَاصُره، وَإِذَا بَطَل هَذَان الْإِحتمَالاَن تَعَيَّن أَنْ يَكُون العَالَم مَوجُوداً نَتِيجَة لنظَام العِلّيَّة المُتَسَلسل إِلَىٰ نهَايَته وَهي العِلَّة العُليَا والنّهَائِيَّة وَهي الله سُبحَانهُ وتَعَالىٰ.

فَكُلّ جُزء مِن أَجزَاء الكَون فِي الطَبِيعَة والْإِنْسَان يَدخُل فِي سِلسلَة مِن النَّتَائِج لغَيرهِ كمَا يَدخُل فِي سِلسلَة مِن الْأَسْبَاب لغَيرهِ، وَإِذَن، فَمِن وجْهَة نَظَر الوَاقِعيَّة الْإِلٰهيَّة، لاَ يُمكن فَهْم شَيء مَا لَم يُربَط بعِلّلهِ وَأَسبَابه، وَشُروطَه، وَبالْإِجمَال جَمِيع الظُّرُوف المُؤثّرَة فِي وجُودهِ وَصَيرُورَته.

وعَلَينَا أَنْ نُعَلّق ـ قَبْلَ إِنْهَاء هَذَا البَحْث ـ عَلىٰ كَلِمَة مَارْكس الْآنْفَة الَّتي يَقُول فِيْهَا عَن الْأَشْيَاء وَالحَوَادث: (... ويَتَعلّق أحَدَهَا بالْآخر، ويَكُون بَعْضهَا شَرطَاً لبَعْض بصُورَة مُتقَابلَة).

إِنَّ الوَاقِعيَّة الْإِلٰهيَّة تَرْفُض فَهْم الْإِرْتبَاط العَامّ عَلىٰ هَذَا الْأَسَاس، فَإِنَّ قَانُون الْإِرْتبَاط عَلىٰ ضَوء هَذِهِ العِبَارَة ـ يَكُون دَائِريّاً، أَي أَنَّ العُنْصرَين المُترَابطَين أَحدهُما سَبَب فِي وجُود الْآخَر وَمُسَبب عَنْهُ فِي الوَقت نَفْسَه، وهَذَا مُسْتَحِيل؛ لْأَنَّه يَفْتَرض وجُود الشَّيء وَعَدمه، فِي آنٍ وَاحد وَهُو بَاطل؛ لْأَنّه مُسْتَحِيل. بَل إِنَّ نظَام العِلّيَّة يَعْمل أَمّا بصُورَة أُفقيَّة أَو بصُورَة عَموديَّة، وَمَجمُوع العِلَّل والْأَسْبَاب فِي الكَون يَتّجه اتّجَاهَاً عَمُوديّاً يَنْتَهي فِي الْآخَر إِلَىٰ العِلَّة الْأُولَىٰ وَالعُليَا وَهي الله تَعَالىٰ فَمَا يَكُون سَبَباً لوجُود شَيء أَو حَالَة لاَ يَكُون مُسبباً عَن

ذَلِكَ الشَّيء أَو تِلكَ الحَالَة وَإِلاَّ لكَان الدَّور البَاطِل المُسْتَحِيل[١].

(١) اَعْتَمدنَا فِي معْظَم الْأَفْكَار الوَاردَة فِي هَذَا الفَصْل عَلىٰ كتَاب فَلسَفَتنَا، السَّيِّد الصَّدر، وَيُحسِن بمَن يُرِيد التَّوسع فِي الْأَبحَاث المُتعَلقَة بالرَّكَائز الْأُسّس فِي المَارْكسيَّة أَنْ يَرجَع إِلَىٰ الكِتَاب المَذكُور .(مِنْهُ ﷺ).

﴿رَبَّنَا لَاتُؤَاخِذْنَآ إِنْ نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَاتَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَاتُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآ أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾[1]

(١) ٱلْبَقَرَة: ٢٨٦.

الفَهارِس الفَنيّة العَامّة

١ ـ فَهْرَس الآيَات

٢ ـ فَهْرَس الأَحَادِيث

٣ ـ فَهْرَس المَصَادر

فَهْرِس الْآيَات

الآيَة	رَقْمهَا	الصَّفحَة
ٱلْبَقَرَة		
﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِنْ نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا﴾	٢٨٦	٢٤٤
﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ﴾	٨	١٩٩
﴿ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾	١٥	١٩٩
﴿فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُواْ عَلَيْهِ بِمِثْلِ﴾	١٩٤	١٩٢
﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَىٰ﴾	٣٠ـ٣٣	١٦٨
﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ﴾	٢٩	١٠٨ و ١٦٨
﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِأَدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ﴾	٣٤	١٥٢
﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾	٣٠	١٠٨
﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا﴾	١١٧	١٠١
﴿إِن تَرَكَ خَيْرًا﴾	١٨٠	٢٠
﴿ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾	٣ـ٥	١٢٦
﴿ٱسْجُدُواْ لِأَدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ﴾	٣٤	١٥٤

الآيَة	رَقْمهَا	الصَّفحَة
﴿وَإِذَا لَقُوا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوٓا ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا﴾	١٤ـ١٦	١٩٩

آل عِمْرَان

﴿وَلَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَـٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ﴾	١٧٦ـ١٧٩	٢٠٠
﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا أَنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ خَيْرٌ﴾	١٧٨	٢٠٠
﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ﴾	١٤٢	١٧٤
﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ﴾	٥٩	١٠١
﴿قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ﴾	٤٧	١٠١
﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَـٰفِ ٱلَّيْلِ﴾	١٩٠ـ١٩١	٦٧
﴿عَـٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا﴾	٤٤	١٢٦
﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَـٰذَا بَـٰطِلًا﴾	١٩١	١٤٩
﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّـٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾	١٨٢	١٤٤

النِّسَاء

﴿ٱلَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ ٱللَّهِ﴾	١٤٠ـ١٤١	٢٠٦
﴿إِنَّ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ يُخَـٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَـٰدِعُهُمْ﴾	١٤٢	٢٠٦ و ٢٠٧
﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلْكِتَـٰبِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ﴾	١٤٠	٢٠٦

المَائِدَة

﴿تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ﴾	١٩	١٩٢

الآيَة	رقمها	الصفحة
﴿يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا﴾	١٥ـ١٦	٢٤
﴿يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ﴾	٦٤	١٤٤

ٱلْأَنعَام

الآيَة	رقمها	الصفحة
﴿مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَـٰبِ مِن شَىْءٍ﴾	٣٨	٩٨
﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ﴾	٧٣	١٠١

ٱلْأَعْرَاف

الآيَة	رقمها	الصفحة
﴿قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ﴾	٢٨	٢٠٥
﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّىَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾	٣٣	٢٠٥
﴿وَمَكَرُوا۟ وَمَكَرَ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَـٰكِرِينَ﴾	٥٤	١٨٦ و ١٩٣
﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم﴾	٩٦ـ٩٩	١٨٧
﴿قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ﴾	١٣ـ١٧	١٥٧
﴿قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾	١٦	١٥٦
﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ﴾	١٢	١٥٣
﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَـٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَـٰكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ﴾	١١	١٥٢
﴿قَالَ إِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ﴾	١٥	١٥٤
﴿أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ﴾	١٢	١٥٣
﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ﴾	١٧٩	٢٠١

الآيَة	رَقْمهَا	الصَّفحَة
الأنفال		
﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾	٣٠	١٨٧ و ١٩٧
﴿وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَـٰكِرِينَ﴾	٣٠	١٩٥
﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ﴾	٣٠	١٨٧ و ١٩٧
﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَبَقُوٓا۟ إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ﴾	٥٩	١٣
التَّوْبَة		
﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتِ جَنَّـٰتٍ﴾	٧٢	٢٥
يُونُس		
﴿وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً مِّنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُمْ﴾	٢١	١٨٩ و ١٩٥
يُوسُف		
﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَخَرُّوا۟ لَهُۥ سُجَّدًا﴾	١٠٠	١٦١
الرَّعد		
﴿وَمَا دُعَآءُ ٱلْكَـٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَـٰلٍ﴾	١٤	٢٣٤
﴿وَقَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ ٱلْمَكْرُ جَمِيعًا﴾	٤٢	١٨٩
﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ﴾	٢٥	١٨٩
﴿زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مَكْرُهُمْ﴾	٣٣	١٨٩

الآية	رقمها	الصفحة
﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا﴾	٢ ـ ٤	٦٧
إبراهيم		
﴿إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾	٣٤	١٧٠
الحجر		
﴿إِنِّى خَـٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَـٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾	٢٨ ـ ٢٩	١٥٢ و ١٥٩
﴿قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ وَإِنَّ عَلَيْكَ ٱللَّعْنَةَ﴾	٣٤ ـ ٤٠	١٥٦
﴿قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾	٣٩	١٥٥
﴿قَالَ يَـٰٓإِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ ٱلسَّـٰجِدِينَ﴾	٣٢ ـ ٣٣	١٥٢
﴿قَالَ إِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ﴾	٣٧ ـ ٣٨	١٥٤
النحل		
﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ﴾	١٢٦	١٩٢
﴿مَنْ عَمِلَ صَـٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾	٩٧	٢٥
﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَىْءٍ إِذَآ أَرَدْنَـٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾	٤٠	١٠١
﴿وَٱللَّهُ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ﴾	٦٥ ـ ٦٩	٦٧
﴿وَٱلْأَنْعَـٰمَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَـٰفِعُ﴾	٥ ـ ١١	٦٧

الآيَة	رَقْمهَا	الصَّفحَة
ٱلْإِسْرَاء		
﴿وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا۟ فِيهَا﴾	١٦	٢٠٢
﴿مَّنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا﴾	١٥	٢٠٢
﴿قَالَ أَرَءَيْتَكَ هَـٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ لَـِٔنْ أَخَّرْتَنِ﴾	٦٢	١٥٨ و ١٦٣
﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ﴾	١٨	١٥٤
ٱلْكَهْف		
﴿فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُۥ﴾	٧٧	٢٠٤
﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِأَدَمَ فَسَجَدُوٓا۟﴾	٥٠	١٥١
مَرْيَم		
﴿مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ سُبْحَـٰنَهُۥٓ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا﴾	٣٥	١٠١
طٰه		
﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِىَ وَلَمْ نَجِدْ﴾	١١٥	١٧٤
﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ﴾	١٢١	١٧٠
ٱلْحَجّ		
﴿لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَـٰنُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم﴾	٥٣	١٥٤
﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلْفُلْكَ﴾	٦٥	٦٧

الآيه	رقمها	الصفحة
المؤمنون		
﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن سُلَـٰلَةٍ مِّن طِينٍ﴾	١٢ ـ ١٤	١٢٧
النور		
﴿لَاتَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾	٥٧	١٣
الفرقان		
﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا﴾	٢	١١٦
النمل		
﴿فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ مَكْرِهِمْ﴾	٥١	١٨٧ و ١٩٤
﴿وَكَانَ فِى ٱلْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾	٤٨	١٩٤
القصص		
﴿فَالْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾	٨	٢٠١
﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْأَخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَايُرِيدُونَ عُلُوًّا﴾	٨٣	٥٧
العنكبوت		
﴿وَٱلَّذِينَ جَـٰهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾	٦٩	١٥٩

الآيَة	رَقْمهَا	الصَّفحَة
الرُّوم		
﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُواْ فِيٓ أَنفُسِهِم مَّا خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ﴾	٨	٦٧
لُقمَان		
﴿أَلَمْ تَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ﴾	٢٠	٦٧
فَاطِر		
﴿وَأَقْسَمُواْ بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَـٰنِهِمْ لَـئِن جَآءَهُمْ نَذِيرٌ﴾	٤٢-٤٣	١٩٧
﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ﴾	٤٣	١٩٧
﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَـٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾	٦	١٧٤
﴿وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّـٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾	١٠	١٤٩
يَس		
﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾	٨٢	١٠١ و ١٤٧
﴿وَجَعَلْنَا مِن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا﴾	٩	١٨٧
الصَّافَّات		
﴿فَلَمَّآ أَسْلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ وَنَـٰدَيْنَـٰهُ أَن يَـٰٓإِبْرَٰهِيمُ﴾	١٠٣-١١١	١٧٨
﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ قَالَ يَـٰبُنَىَّ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ﴾	١٠٢	١٧٨
﴿وَفَدَيْنَـٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ﴾	١٠٧	١٧٧

الآية	رقمها	الصفحة
ص		
﴿فَسَجَدَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ إِلَّآ إِبْلِيسَ﴾	٧٣ـ٧٦	١٥٣
﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ﴾	٨٢ـ٨٣	١٥٨
﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ إِنِّى خَـٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ﴾	٧١ـ٧٢	١٥٢
غافر		
﴿هُوَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ فَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا﴾	٦٨	١٠١
فصلت		
﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَـٰمُوا۟﴾	٣٠ـ٣١	١٥٨
الشورى		
﴿وَجَزَٰٓؤُا۟ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾	٤٠	١٩٢
الأحقاف		
﴿يَـٰقَوْمَنَآ أَجِيبُوا۟ دَاعِىَ ٱللَّهِ وَءَامِنُوا۟ بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم﴾	٣١ـ٣٢	٢٥
الفتح		
﴿لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾	٢	١٧٠

الآيَة	رَقْمهَا	الصَّفحَة
اَلنَّجْم		
﴿إِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا﴾	٢٨	٦٩
اَلقَمَر		
﴿إِنَّا كُلَّ شَىْءٍ خَلَقْنَـٰهُ بِقَدَرٍ﴾	٤٩	١٤٣ و ١٧٠
اَلرَّحْمَـٰن		
﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِن صَلْصَـٰلٍ كَالْفَخَّارِ﴾	١٤ـ١٥	١٥١
اَلحَشْر		
﴿نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْ﴾	١٩	١٩٢
اَلْجِنّ		
﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ﴾ ٢٦ـ٢٧		١٢٦
اَلإِنفِطَار		
﴿إِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَـٰفِظِينَ كِرَامًا كَـٰتِبِينَ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾	١٠	١٢٥
اَلفَجْر		
﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ﴾	٦ـ١٤	٢٠٣

فَهْرِس الْأَحَادِيث

طَرَف الحَدِيث	الصَّفْحَـة
لعَلّك تَرىٰ أَنَّ الله لَمْ يَخلُق بشَرَاً غَيركُم؟	١٠٨
أَنَّ الله تَعَالىٰ خَلَق مِئَتي أَلف آدَم	١٠٨
لَقَد خَلَق الله فِي الْأَرْض مُنْذُ خَلقهَا سَبعَة عَالمَين	١٠٨
الشَّمْسُ، وَالْقَمَرُ دَائِبَانِ فِي مَرْضَاتِهِ	١١١
يُبْلِيَانِ كُلَّ جَدِيدٍ، وَيُقَرِّبَانِ كُلَّ بَعِيدٍ	١١١
مَنْ كَانَتْ مَطِيَّتُهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ؛ فَإِنَّهُ يُسَارُ بِهِ	١١١
لاَ جَبْر ولاَ تَفوِيض بَل أَمْر بَيْنَ الْأَمرِين	١٤١
ٱسْتِتْمَاماً لِلْبَلِيَّةِ	١٥٤
مَا أُبتلي أَحَدٌ بِمِثْلِ الْإِمْلاَء لهُ	١٥٥
وَٱسْتَأْدَىٰ اللهُ سُبْحَانَهُ الْمَلاٰئِكَةَ وَدِيعَتَهُ لَدَيْهِمْ	١٥٤
خَير مَا جِئتُ بهِ أنَا، وٱلنَّبِيُّونَ مِن قَبلي كَلِمَة لاَ إِله إلّا الله	١٦٧
كلّ مَوْلُود يُوْلَد عَلَىٰ الْفِطْرَة	١٧٠
يَا مُوسىٰ مَن زَنَا زنىٰ بهِ، ولَو فِي العَقب مِن بَعدهِ	١٩٠
وَٱسْتَرَاحَ قَوْمٌ إِلَىٰ الْفِتَنِ	٢٠٠

فَهْرَسُ المصَادِرِ المَطْبُوعَة وَالمَخْطُوطَة

١. الْقُرْآن الْكَرِيم، كِتَاب الله تَبَارَك وتَعَالىٰ الحَيّ القَيُّوم.

حَرْف الألف

٢. الأَخْبَار الطّوَال، لأَحمَد بن دَاود الدّينوريّ (أَبُو حَنِيفَة ت ٢٨٢ هـ) تَحْقِّيق: عَبدالمُنعم عَامر. طَبْعَة دَار المَسِيرة ـ بَيْرُوت، طَبْعَة دَار إِحيَاء الكُتْب العَربِية سَنَة (١٩٦٠ م).

٣. الإِختصَاص، المَنْسُوب لِمحَمَّد بن مُحَمَّد بن النُّعمان العَكْبريّ المَعرُوف بِالشَّيخ المُفِيد، نَشر جَمَاعة المُدرسِين. قُم: إِيرَان.

٤. الإِستِيعَاب فِي مَعْرِفَة الأَصْحَاب، يُوسُف بن عَبدالله بن مُحَمَّد القُرطبي أَبُو عُمْر المَشهُور بِآبن عَبد البر النّمري، (ت ٤٦٣هـ). تَحْقِّيق: عَليّ مُحَمَّد مُعوض دَار الكُتُب العِلْمِيَة. بَيْرُوت ـ لُبْنَان. وتَحْقِّيق عَليّ البَجَاوي. طَبْعَة القَاهرَة وَبِهَامش الإِصَابَة.

٥. أُسّس اللّينِينيَّة. أُخذ بالوَاسطَة.

٦. الإِتحَافَات السَّنيَة فِي الأَحَادِيث القُدسيَّة. أُخذ بالوَاسطَة.

٧. أُسد الغَابَة فِي مَعْرِفَة الصَّحَابَة، لِأَبِي الحَسَن عِزِّ الدّين عَليّ بن أَبِي الكَرَم مُحَمَّد ٱبن مُحَمَّد بن عَبد الكَرِيم الشّيبَانيّ المَعْرِوف بِٱبن الْأَثِير الجَزْريّ (ت ٦٣٠ هـ ق)، تَحْقِيق: مُحَمَّد إِبرَاهِيم، طَبْعَة ـ القَاهرَة ١٣٩٠ هـ، وَطُبع بِالأُفست فِي المَكْتَبَة الْإِسْلاَمِيَّة للحَاج رِيَاض، وَطَبع المَطْبَعَة الوَهبِية بِمَصْر.

٨. أَضْوَاء عَلىٰ السُّنَّة الُمحَمَّدِيَة، أَو دِفَاع عَن الحَدِيث، مَحْمُود أَبُو رَيَّه، مِنْشُورَات مُؤَسَّسَة الْأَعْلَمي للمَطبُوعَات بَيرُوت، الطَّبعَة الخَامسَة. وَطَبْعَة دَار المَعَارف بِمَصْر.

٩. الْإِصَابَة فِي تَمييز الصَّحَابة، مُحَمَّد بن حَبِيب البَغْدَادِي. طَبْعَة مَولاىٰ عَبدالحَفِيظ. القَاهرَة (١٣٢٨ هـ).

١٠. الْإِصَابَة فِي تَمييز الصَّحَابة، (بهَامش الْإِستِيعَاب لِابْن عَبدالبَر). أَحْمَد ٱبن حَجر العَسْقلاَني (٧٧٣ ـ ٨٥٢ هـ). دَار العُلوم الحَدِيثة. وَطَبعات أُخرىٰ لاَحقَة.

١١. ٱلإِنْسَان... ذَلِكَ المَجهُول، لِلطَّبِيب الفَرنسِي الشَّهِير «الكسِيس كَارِيل».

١٢. الْأَعلاَم، قَاموس تَرَاجم لِأَشهر الرِّجَال... خَير الدِّين بن مَحمُود بن مُحَمَّد ٱبن عَليّ بن فَارس، أَيلول سبتَمبر ١٩٩٢ م دَار العِلم بَيْرُوت ـ لُبْنَان.

١٣. أَمَالِي المُرتضىٰ. عَليّ بن الحُسَيْن العَلوي. طَبْعَة مَصْر عَام ١٣٢٥ هـ / ١٩٠٧ م بتَحْقِيق / مُحَمَّد أَبُوالفَضْل إِبرَاهِيم. دَار الكِتَاب العَربي ـ بَيْرُوت. لُبْنَان.

١٤. أَمَالي الشّيخ الطّوسي، لِأَبي جَعْفر مُحَمّد بن الحَسن الطّوسي مَنشُورَات المَكتَبة الْأَهليَة، اوفسَيت مَكتَبة الدّاوري، قُم ـ إِيرَان، وَالمَطبعَة الْإِسلاَميّة، طَهرَان ١٤٠٤ هـ وَطَبعَة مُؤسّسة البِعثَة دَار الثّقافَة قُم ١٤١٤ هـ.

١٥. الْإِمَامَة وَالسِّيَاسَة، لِأَبِي مُحَمَّد عَبد الله ٱبن مُسْلِم المَعْرُوف بِٱبن قُتَيبة

الدّينوريّ (ت ٢٧٦ هـق)، مَكْتَبَة ومَطْبَعَة مُصْطَفىٰ بَابي الحَلبي، مَصْر ١٣٨٨هـ.

١٦. السِّيرة الحَلبِية (إِنْسَان العُيُون فِي سِيرة الْأَمِين المَأْمُون)، عَليّ بن بُرهَان الشَّافعي الحَلبي، دَار الفِكر العَربِي بَيْرُوت ١٤٠٠ هـ.

حَرْف البَاء

١٧. البدَاية والنّهاية، لْأَبِي الفدَاء إِسْمَاعِيل بن كَثِير الدّمشقي، تَحْقِّيق: عَليّ شِيري، دَار الكُتْب العِلْمِيَة، الطَبْعَة الخَامسَة، (١٤٠٩) هـ، مَطْبَعَة السّعادة مَصْر عَام ١٣٥١ هـ.

١٨. البدَاية والنّهَايَة، مُحَمَّد بن عَبدالحرّ الكنَاني (ت ١٣١٢ هـ). طَبْعَة القَاهرَة (١٣٥١ ـ ١٣٥٨ هـ).

١٩. البِحار، للعَلاَّمة الَمجْلسي. طَبْعَة سَنَة (١٤١٢ هـ). مُؤسَّسَة الوَفَاء بَيْرُوت: لُبْنَان، وأيضاً طَبْعَة إِيرَان، طَبْعَة سَنَة (١٣٩٤ هـ) إِيرَان.

٢٠. بَيْن الجَاهليَّة وَالْإِسلاَم، مُحَمَّد مَهْدي شَمْس الدِّين، دَار الكِتَاب اللُّبنَاني، دَار الكِتَاب المَصْرِي (١٣٩٠ هـ).

٢١. البَيَان الشُّيوعي. أُخذ بالوَاسطَة.

حَرْف التَّاء

٢٢. تَأرِيخ اليَعقُوبيّ، أَحْمَد بن أَبِي يَعْقُوب بن جَعْفَر العَبَّاسي المَعْرُوف بِاليَعقُوبيّ، طَبْعَة النَّجَف الْأَشْرَف ١٣٥٤ هـ.

٢٣. تَأرِيخ بَغْدَاد، لْأَحمد بن عَليّ الخَطِيب البَغداديّ، طَبْعَة دَار السَّعادة مَصْر.

٢٤. التَّأرِيخ الكَبِير لُمحَمَّد بن إِسْمَاعِيل البُخاريّ، طَبْعَة حَيدر آبَاد الدّكن.

٢٥. تَأرِيخ آبْن خُلدُون، المُسمىٰ التَّأرِيخ أَو العِبر ودِيوَان المُبتَدأ أو الخَبر. عَبد الرَّحْمَن بن مُحَمَّد المَشهُور بآبن خُلدُون (ت ٨٠٨ هـ)، طَبْعَة دَار الكِتَاب العَربيّ بَيْرُوت ١٩٧١ هـ.

٢٦. تَأرِيخ دِمشق، حَمْزَة بن أَسد القَلانسي (ت ٥٥٥ هـ). طَبْعَة بَيْرُوت عَام (١٩٠٨ م).

٢٧. تَأرِيخ دِمَشق، عَليّ بن الحُرّ بن عَسَاكر (ت: ٥٧١ هـ). طَبْعَة دِمشق ١٩٥١ ـ ١٩٥٤ م. طَبْعَة (١٩٨٢ م).

٢٨. تَأرِيخ الْإِسْلاَم، مُحَمَّد بن أَحْمَد بن عُثمان الذّهبيّ، (ت ٧٤٨ هـ) مَكْتَبَة القُدسي القَاهرَة (١٣٦٨ هـ تَحْقِّيق بَشَار عوَاد مَعْرُوف طَبْعَة القَاهرَة (١٩٧٧ م).

٢٩. تَأرِيخ الطَّبريّ تَأرِيخ الرُّسل والأُمم وَالمُلوك، لْأَبِي جَعْفَر مُحَمَّد بن جَرِير الطَّبريّ (... ـ ٣١٠ هـ)، تَحْقِّيق مُحَمَّد أَبُو الفَضل إِبرَاهِيم دَار المَعَارِف القَاهرَة (١٩٦٠ م) طَبْعَة أُوربا، طَبْعَة الإِستقَامة مَصْر.

٣٠. تَأرِيخ آبْن عَسَاكر (تَأرِيخ دِمشق)، الْأَجزَاء الَّتي حَقَّقَّها الَمحمُودي، تَرجمَة الْإِمَام عَليّ والْإِمَام الحَسَن والْإِمَام الحُسَيْن.

٣١. تَأرِيخ المَدِينَة المُنورَة (أَخْبَار المَدِينَة)، لعُمر بن شَيبَة. تَحْقِّيق: فَهِيم مُحَمَّد شَلتُون. دَار التُّراث والدَار الْإِسْلاَمِيَّة ١٩٩٠ م بَيْرُوت: لُبْنَان.

٣٢. تَأرِيخ اليَعقُوبيّ، أَحْمَد بن أَبِي يَعْقُوب بن جَعْفَر العَبَّاسي المَعْرُوف بِاليَعقُوبيّ، طَبْعَة النَّجَف الْأَشْرَف ١٣٥٤ هـ.

٣٣. تَأرِيخ اليَعْقُوبي، لِابْن وَاضح. طَبْعَة دَار صَادِر بَيْرُوت. وأيضاً النَّجَف.

٣٤. تَفْسِير الكَشّاف، لأَبي القَاسم جَار الله مَحمُود بن عُمر بن مُحَمّد بن

٣٥. تَرجَمة الإمَام عَليّ بن أَبِي طَالب عليه السلام، مِن تَأرِيخ دِمشق الكَبِير، لعَليّ بن هِبة الله المَعْرُوف بِآبن عسَاكر، طَبْعَة دِمشق.

٣٦. تَفْسِير القُرآن العَظِيم، (تَفْسِير آبْن كَثِير)، لإِسمَاعِيل بن عُمر بن كـثرير البَصريّ الدّمشقيّ، (ت ٧٧٤ هـ). طَبْعَة بَيْرُوت دَار المَعْرِفَة ١٤٠٧ هـ، طَبْعَة دَار إحيَاء التُّراث العَربيّ، طَبْعَة دَار صَادِر.

٣٧. تَنْزِيه ٱلأَنْبِيَاء لِلشَّرِيف المُرتضىٰ. أُخذ بالوَاسطَة.

٣٨. تَفْلِيس إِبْلِيس، المَقدسي. أُخذ بالوَاسطَة.

٣٩. تَفْسِير الكَشّاف، لأَبي القَاسم جَار الله مَحمُود بن عُمر بن مُحَمّد بن أَحمَد الزّمَخشري (ت ٥٣٨ هـ)، طَبعَة دَار المَعرفَة بَيرُوت، قُم، دَار البَلاغَة.

٤٠. تَفسِير الثَّعلبي (الكَشف وَالبيَان فِي التَّفسِير)، لأَحمَد بن مُحَمّد بن إِبرَاهِيم النّيسابُوري، (ت ٤٣٧ هـ)، مَطبُوع الجُزء الأَوّل عَلىٰ الحَجر، وَ(مَخطُوط) فِـي مَكتبَة المَرعَشي النّجفي العَامَّة.

حَرْف الثّاء

٤١. الثُّقَات، لأَبِي حَاتِم مُحَمَّد بن حَبَّان بن أَحْمَد التّمِيمِي البَستي، (٣٥٤ هـ) الطَبْعَة الأُولىٰ، مَطبَعَة مَجلس دَائِرَة المَعَارف العُثْمانِيَّة بحَيدر آبَاد الدّكن، الهِند، عَام ١٣٦٩ هـ.

حَرْف الجيم

٤٢. جَامع البَيَان عَن تَأوِيل القُرآن، أَبِي جَعْفَر مُحَمَّد بن جَرِير الطَّبري (المُتوفَّىٰ ٣١٠ هـ).

٤٣. الجَامع الصَّحِيح (سُنن التِّرمذي)، لأَبِي عِيْسَىٰ مُحَمَّد بن عِيْسَىٰ بن سَورَة التِّرمذي (ت ٢٩٧ هـ) تَحْقِيق: أَحْمَد مُحَمَّد شَاكر، دَار إِحيَاء التُّرَاث، بَيْرُوت.

٤٤. الجَامِع الصَّحِيح (صَحِيح مُسْلِم) بشَرْح النّووي، لمُسلم بن الحَجَّاج بن مُسْلِم القُشِيري النّيشابوري (ت ٢٦١ هق)، تَحْقِيق: مُحَمَّد فُؤَاد عَبد البَاقي، دَار الحَدِيث، القَاهرَة، الطَبْعَة الأُولىٰ ١٤١٢ هـ.

٤٥. الجَامِع الصَّغِير، فِي أَحَادِيث البَشِير النَّذير جَلاَل الدِّين عَبد الرَّحْمَن بن أَبِي بكر جَلاَل الدّين السّيوطي (ت ٩١١ هق)، الطَبْعَة الأُولىٰ ـ القَاهرَة ١٣٦٥ هـ.

٤٦. الجَامِع لأَحكَام القُرآن، لأَبِي عَبد الله مُحَمَّد بن أَحْمَد القُرطبيّ (ت ٦٧١ هـ)، طَبْعَة الفَجَّالة القَدِيمة مَصْر.. والطَبْعَة الأُولىٰ، دَار إِحيَاء التُّرَاث العَربي، تَصحِيح أَحْمَد عَبد العَلِيم البَرْدُوني.

٤٧. جَرِيدَة النَّهار البَيْرُوتيّة فِي حَلقَات أُسبُوعيَّة فِيمَا بَيْنَ (٢٢ شُبَاط سَنَة ١٩٧٠ و ١٧ أَيَار سَنَة ١٩٧٠ م)

٤٨. جَرِيدَة الأَخبَار المَصرِيَة العَدَد / ٦٠٥١ ـ ٦٠٥٢ ـ ٦٠٥٣. أُخذ بالوَاسطَة.

٤٩. جَرِيدَة الجمُهورِيَة المَصْرِية تأرِيخ /٢ آذار سَنَة ١٩٦٢ م. أُخذ بالوَاسطَة.

٥٠. جَرِيدَة النَّهار بتَأرِيخ /١٤ / ١٢ / ١٩٧٢ م. أُخذ بالوَاسطَة.

٥١. جَمْهَرَة أَنْسَاب العَرْب، عَلِيّ بن أَحْمَد بن جَزم (ت: ٦٥٥هـ). تَحْقِيق: عبدالسَّلام هَارُون. طَبْعَة القَاهرَة (١٩٦٢ م).

حرف الحاء

٥٢ . حُجّيَة السُّنَّة للشَّيخ عِبد الْغَنِيّ عبد الْخَالِق بعُنوَان (المُقدّمة الثَّانِيَة) فِي عِصْمَة ٱلْأَنْبِيَاء .

٥٣ . الحَدَائِق الوَردِيَّة فِي منَاقِب الْأَئِمَّة الزَّيدِيَّة ، لأَبِي عَبدالله الشَّهيد حُمَيد ٱبن أَحْمَد المَحَلي التِّميمي الوَادعِي ، مَطْبُوع ، ومَخْطُوط فِي مَكْتَبَة آل كَاشف الغِطَاء بِرَقم «٧١٣» ، ومُصَوَّرَة عن مَخْطُوطة نُسخَت سَنَة (١٣٥٧ هـ). دَار أُسَامة . دِمَشْق ١٤٠٥ هـ.

٥٤ . حليَة الأَولِيّاء وطَبَقَات الأَصفيَاء ، أَحْمَد بن عَبدالله . أَبُو نَعِيم الْإِصبهَانِي (المُتوفّىٰ ٤٣٠ هـ).

حرف الخاء

٥٥ . الخِصَال ، لأَبي جَعْفَر مُحمَّد بن عَليّ بن الحُسَين بن بَابويَه القُمّي المَعرُوف بِالشَّيخ الصَّدُوق ، مُؤسّسَة الأَعلَمي بَيرةوت ، الطَّبعَة الخَامسَة (١٤٠٠ هـ) تَصوِير دَار صَادر بَيرةوت ، بدُون تَأرِيخ وَطَبعَة الْأَعْلَمي بَيرُوت (١٤١٠ هـ) .

٥٦ . خوَاطر مِن الدِّين وَالحَيَاة ، الأُستَاذ الدُّكتُور عَبدالمُنعم النّمر مُدِير البحُوث الْإِسلاَميَّة فِي الْأَزْهَر الشَّرِيف الطَّبعَة الأُولىٰ (١٩٧٣ م ـ دَار الكِتَاب اللُّبنَاني ـ بيرُوت ـ لُبنَان: ٢١٠ ـ ٢١٢) .

حرف الدّال

٥٧ . الدُّر المَنثُور فِي طَبَقَات رَبَّات الخدُور ، العَاملي ـ زَينَب (ت ١٣٣٢ هـ) .

طَبْعَة القَاهرَة (١٣١٢ هـ).

٥٨ . الدُّر المَنْثُور فِي التَّفسِير بِالمَأثُور، جَلاَل الدِّين السّيوطي (ت ٩١١ هـ). دَار الفِكر بَيْرُوت: لُبْنَان.

٥٩ . دُول الإِسلاَم، مُحَمَّد بن أَحْمَد بن عُثْمان الذَّهَبي: (ت ٧٤٨ هـ). تَحْقِّيق: فَهِيم مُحَمَّد شَلتُوت ومُحَمَّد مُصْطَفىٰ إِبرَاهِيم. طَبْعَة القَاهرَة (١٩٧٤ م).

حَرْف الهَاء

٦٠. الهِدَايَة الكُبْرَىٰ، لحُسِين بن حَمدَان للخُصيبي «٣٥٨ هـ»، طُبع سَنَة ١٤٠٦ هـ، مُؤسَّسَة البَلاَغ.

حَرْف السِّين

٦١. سُبل السّلام شَرْح بلُوغ المَرَام مِن جَمْع أَدلة الأَحكَام، لمُحَمَّد بن إِسمَاعِيل الكَحلاني ثُمَّ الصّنعاني اليَمني، مَطْبعَة مُصطَفىٰ البَابي الحَلبي وَأَوْلاَده بِمَصر، الطّبعَة الرّابعَة ١٣٧٩ هـ.

٦٢. سُنن ٱبْن مَاجه، لأَبِي عَبد الله مُحَمَّد بن يَزيد بن مَاجه القَزوِينيّ (ت ٢٧٥ هـ ق)، تَحْقِّيق: فُؤاد عَبد البَاقي، دَار إِحيَاء التُّراث، بَيْرُوت، الطَبْعَة الأُولىٰ ١٣٩٥ هـ. ونَشْر دَار الفِكر، طَبْعَة ـ بَيْرُوت ١٣٧١ هـ.

٦٣. سُنن التّرمذي، لأَبِي عِيْسَىٰ مُحَمَّد بن عِيْسَىٰ بن سَورة التّرمذي (ت ٢٩٧ هـ) تَحْقِّيق: أَحْمَد مُحَمَّد شَاكر، دَار إِحيَاء التُّرَاث، بَيْرُوت.

٦٤. سُنن النّسائِي، الحَافظ المُتوفّىٰ سَنَة (٣٠٣ هـ). طَبْعَة دَار الكُتُب العِلْمِيَة.

بَيْرُوت ـ لُبْنَان.

٦٥. سُنن أَبي دَاود، لأَشعث السّجستانيّ الأَزديّ (ت ٢٧٥ هـ ق)، إعدَاد وَتعلِيق: عِزّت عَبد الدّعاس، طَبْعَة دَار الْحَدِيث الطَّبْعَة الأُوْلىٰ ـ حِمص ١٣٨٨ هـ وطَبْعَة مُصطَفىٰ البَابيّ ـ مَصْر ١٣٩١ هـ.

٦٦. سِير أَعْلاَم النُّبلاء، مُحَمَّد بن أَحْمَد بن عُثْمان الذَّهَبي (ت ١٣٧٤ م). تَحْقِيق: مَجْمُوعة مِن البَاحثِين تَحت إِشرَاف: شُعِيب الأَرنَاؤط. مُؤسَّسَة الرِّسَالة بَيْرُوت ـ لُبْنَان.

٦٧. السِّيرة النَّبوِّية، لأَبِي مُحَمَّد عَبد المَلك بن هِشام بن أَيُوب الحمْيَري، (ت ٢١٣ أو ٢١٨ هـ ق)، تَحْقِيق: مُصْطَفىٰ السّقا، وإِبرَاهِيم الأَنْبَاري، وعَبد الحَفِيظ شَلبي، مَكْتَبَة المُصْطَفىٰ، قُم، الطَبْعَة الأُولىٰ ١٣٥٥ هـ.

٦٨. الشَّافِي ـ فِي الجوَاب عَلىٰ الرِّسَالة الخَارقة للفَقِيه عَبدالرَّحِيم بن أَبِي القَبَائل، تَأْلِيف الإِمَام عَبدالله بن حَمْزَة الحَسَني (٥٦١ ـ ٦١٤). الطَبْعَة الأُولىٰ ١٩٨٩م. مَنْشُورات مَكْتَبَة اليَمَن الكُبرىٰ، اليَمَن ـ صَنْعَاء.

حَرْف الشِّين

٦٩. شَرْح البَحر الرَّائق، لزَين الدّين بن إِبرَاهِيم بن مُحَمّد المَعرُوف بِابن نُجِيم المَصْري الحَنفي.

٧٠. شَرْح نَهْج البَلاَغة، للشَّيخ مُحَمَّد عَبده، طَبْعَة دَار الكِتَاب العَربيّ ١٤٠٦ هـ، طَبْعَة الفَجَّالة الجَدِيدَة ـ مَصْر ١٤٠٣ هـ.

٧١. شَرْح نَهْج البَلاَغَة؛ للخُوئيّ، طَبْعَة دَار الفِكر بَيْرُوت ١٤٠٦ هـ.

٧٢. شَرْح نَهْج البَلاَغة، لِابْن أَبِي ٱلْحَدِيد المُعتَزليّ (ت ٦٥٦ هـ ق)، تَحْقِّيق: مُحَمَّد أَبُو الفَضل، طَبْعَة ـ بَيْرُوت ١٤٠٩ هـ.

٧٣. شَرْح نَهْج البَلاَغَة، ٱبْن أَبِي ٱلْحَدِيد، عَبدالحَمِيد بن هِبة الله(ت: ٦٥٥ هـ). طَبْعَة بَيْرُوت (١٣٧٤ هـ). وبتَحْقِّيق: مُحَمَّد أَبُو الفَضل إبرَاهِيم. طَبْعَة دَار إحيَاء الكُتْب العَربِية ـ مَصْر.

٧٤. الشِّيعَة فِي المِيْزَان مُحَمَّد جَوَاد مُغْنِيَّة، بتَحقِّيقنَا.

حَرْف الصَّاد

٧٥. صَحِيح البُخَاري، لأَبِي عَبدالله مُحَمَّد بن إسْمَاعِيل بن إبرَاهِيم بن المُغِيرة الجَعفي البُخَاري ،(ت ٢٥٦ هـ)، تَحْقِّيق: مُصْطَفَىٰ دِيب البَغا، دَار ٱبْن كَثِير، بَيْرُوت، الطَبْعَة الرّابعَة ١٤١٠ هـ، ومطَبْعَة المُصطفَائِي ١٣٠٧ هـ.

٧٦. شَرْح صَحِيح البُخَاريّ، عَبد الله مُحَمَّد بن إسْمَاعِيل، لَمحمُود بن أَحْمَد العَينيّ (ت ٨٥٥ هـق)، مطَبْعَة الفَجَّالة الجَدِيدَة ـ مَصْر ١٣٧٦ هـ.

٧٧. صَحِيح التّرمذيّ، لعِيسىٰ بن سَورة التّرمذيّ، (ت ٢٩٧ هـ ق)، طَبْعَة بَيْرُوت ١٤٠٥ هـ. مطَبْعَة المَكْتَبَة السّلفِية بِالمَدِينة المُنورَة.

٧٨. صَحِيح مُسْلِم، لأَبِي الحُسَيْن مُسْلِم بن الحَجَّاج القُشِيري النّيسابُوري، (ت ٢٦١ هـ ق)، تَحْقِّيق: مُحَمَّد فُؤاد عَبد البَاقي، طَبْعَة ـ بَيْرُوت ١٣٧٤ هـ. دَار الحَدِيث ـ القَاهرَة، الطَبْعَة الأُولىٰ ١٤١٢ هـ، ودَار إحيَاء التُّرَاث العَربِي، بَيْرُوت.

٧٩. صحِيفَة (المَناشستر جَارديَان فِي عَدَدهَا الصَّادر فِي ١٩/ ١٠/ ١٩٥٥م).

٨٠. صَحِيفَة (لُومُوند الفَرنسيَّة فِي عَدَدهَا الصَّادر فِـي ٢٢/١٠/ ١٩٥٥م).

أُخذ بالوَاسطَة .

حَرْف الطَّاء

٨١. الطّبقات الكُبرىٰ ، لُمحَمَّد بن سَعد الوَاقدي الزُّهـري (ت ٢٣٠ هـ)، دَار صَادِر ، بَيْرُوت ١٤٠٥هـ، طَبْعَة أُوربا ، طَبْعَة لَيدن .

٨٢. الطَّواسِين «طَاسِين الْأَزَل ـ الْأَوّل ـ وَالْإِلتبَاس» . للحَلاَّج .

حَرْف العَين

٨٣. عِصْمَة ٱلْأَنْبِيَاء للسَّيِّد المُرتضىٰ . أُخذ بالوَاسطَة .

٨٤. عِصْمَة ٱلْأَنْبِيَاء للرّازي . أُخذ بالوَاسطَة .

٨٥ . عُيُون أَخبَار الرّضا عليه السلام ، لْأَبي جَعْفر مُحَمّد بن عَليّ بن الحُسَيْن بن بَابوَيه القُمي المَعرُوف بِالشَّيخ الصّدوق (ت ٣٨١ هـ)، ، مَنشُورَات المَكتَبة الحَـيدرِية ، النّجف الْأَشرَف .

٨٦. عُيُون الْأَخبَار وَفنُون الآثَار ، لِابْن قُتِيبة الدّينوري (ت ٢٧٦ هـ)، طَبْع دَار الكِتَاب العَربِي ، وطَبْع قَدِيم .

٨٧. عُيُون الْأَخبَار ، لِابْن قِتِيبة . طَبْعَة المُؤسَّسة المَصْرِيَة العَامة . سَنَة ١٣٩٢ هـ.

حَرْف الغَين

٨٨. الغَارَات ، لْأَبي إِسحَاق إِبرَاهِيم بن مُحَمّد بن سَعِيد المَعرُوف بِٱبن هِلال

الثّقفي، مَنْشُورات أَنجمن آثَار ملّي ـ طَهرَان.

حَرْف الفَاء

٨٩. فَتح البَاري شَرْح صَحِيح البُخَاري، مُحَمَّد بن حَبِيب البَغْدَادِي (ت ٢٤٥ ه‍). طَبْعَة بُولاق (١٣٠١ ه‍). طَبْعَة السَّلفِية (١٣٩٠ ه‍).

٩٠. فَتح البَاري شَرْح صَحِيح البُخَاري، لأَحمَد بن عَليّ بن مُحَمَّد بن حَجر العَسقلاَني، (ت ٨٥٢ ه‍ق)، النّاشر: دَار إِحيَاء التُّرَاث العَربِي، بَيْرُوت، والمطْبَعَة السّلفية مَصْر ١٣٨٠ ه‍، وتَحْقِّيق: عَبد العَزِيز بن عَبدالله بن بَاز ـ القَاهرَة ١٣٩٨ ه‍

٩١. فُتُوح البُلدان، أَحْمَد بن يَحْيَىٰ البَلاَذري (ت ٢٧٩ ه‍). تَحْقِّيق: رَضوَان مُحَمَّد رَضوَان. السَّعَادَة، القَاهرَة (١٩٩ م)، وَكَذا طَبْعَة (١٣١٩ ه‍).

٩٢. فَلْسَفتنَا، السَّيِّد الشَّهِيد مُحَمَّد بَاقر الصَّدر، المَجْمُوعة الكَامِلة لمُؤلّفاته ﷺ الّتي جُمعَت فِي (١٥) مُجلّداً ومِن أشهَرها وأَكْثَرها إِنْتشَاراً «اَقتصَادنا» و «فَلَسفَتنَا» و «البَنك اللّارَبوي».

٩٣. الفَلْسَفَة الإِسلاَميَّة في أَعمَال الفَيلسُوف الإِسْلاَميّ العَظِيم صَدر الدِّين الشِّيرَازي، مُحَمد بن إِبرَاهِيم القَوَامي الشِّيرَازي (٩٧٩ ه‍ـ ١٠٥٠ ه‍).

٩٤. الفِقْه المَنسُوب للإِمَام الرِّضا عليه السلام، مُؤسَّسة آل البَيْت عليهم السلام لإِحيَاء التُّرَاث، قُم، نَشْر المُؤتَمر العَالمي للإِمَام الرِّضا عليه السلام ـ مَشْهد المُقدس طَبْعَة (١٤٠٦).

٩٥. الفَقِيه (مَن لاَ يَحضَره الفَقِيه)، لأَبي جَعْفر مُحَمّد بن عَليّ بن الحُسَيْن بن بَابوَيه القُمي المَعرُوف بِالشَّيخ الصَّدوق (ت ٣٨١ ه‍)، طَبعَة مُؤسَّسة النَّشر

الإسلامي قم. مؤسسة الأعلمي بيروت، الطبعة الخامسة ١٤٠٠هـ.

٩٦. في ظلال نهج البلاغة شرح العلامة الشيخ محمد جواد مغنية، بتحقيقنا.

٩٧. فلسفة التوحيد والولاية، الشيخ محمد جواد مغنية.

حرف القاف

٩٨. الفهرست، لمحمد بن إسحاق بن النديم، تحقيق: ناهد عباس عثمان، نشر دار قطري بن الفجاءة، الطبعة الأولى الدوحة ـ قطر ١٩٨٥ م.

٩٩. القاموس المحيط، لمحمد بن يعقوب الفيروز آبادي، مطبعة مصطفى البابي الحلبي القاهرة، الطبعة الثانية ١٩٥٢ م.

حرف الكاف

١٠٠. الكافي (الأصول)، المطبعة الإسلامية. عام (١٣٨٨ هـ. ق). طهران، ثم طبع سنة (١٣٧٧ هـ. ق) الحيدري. طهران ـ إيران.

١٠١. الكامل في التأريخ، لأبي الحسن علي بن أبي الكرام محمد بن عبدالكريم الشيباني المعروف بابن الأثير (ت ٦٣٠ هـ). عني بمراجعة أصوله: نخبة من العلماء. دار الكتاب العربي. بيروت ـ لبنان.

١٠٢. كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال، لعلاء الدين علي المتقي ابن حسام الدين الهندي (ت ٩٧٥ هـ)، تصحيح صفوة السقا، مكتبة التراث الإسلامي ـ بيروت، الطبعة الأولى ١٣٩٧ هـ، وطبع دار الوعي حلب ١٣٩٦ هـ.

١٠٣. كَشف الغُمَّة فِي مَعْرِفَة الْأَئِمَّة، لعَليّ بن عِيْسَىٰ الْإِربـليّ (ت ٦٨٧ هـ)، تَصحِيح هَاشم الرّسولي المَحلاتي، دَار الكِـتَاب الْإِسْـلاَميّ، بَـيْرُوت، الطَـبْعَة الْأُولىٰ ١٤٠١ هـ، طَبْعَة تَبريز بدُون تأرِيخ.

١٠٤. كَيْفَ يَحيَا ٱلإِنْسَان» تَعْلِيق الفَيْلَفُوس الصِّينِي «لِين يُوتَانج».

حَرْف اللاَّم

١٠٥. لسَان المِيزَان، لْأَبِي الفَـضل أَحْـمَد بـن عَـليّ بـن حَـجر العَسـقلاَنيّ (ت ٨٥٢هـق)، تَحْقِّيق: عَادل أَحْمَد عَبد المَوجُود، وعَليّ مُحَمَّد مُعوض، طَبْعَة دَار الكُتْب العِلْمِيَة بَيْرُوت، الطَبْعَة الْأُولىٰ ١٤١٦ هـ.

حَرْف المِيم

١٠٦. مَجْمَع الزّوَائد وَمَنبع الفوَائد، لعَليّ بن أَبِي بَكْر الهَـيثميّ (ت ٨٠٧ هـق)، تَحْقِّيق: عَبدالله مُحَمَّد دَرويش، طَبْعَة دَار الفِكر، الطَبْعَة الْأُولىٰ ـبَيْرُوت ١٤١٢هـق)، مُصَوَّرَة عن طَبْعَة القُدسيّ ١٣٨٩ هـق، طَبْعَة ـالقَاهرَة الثَّانِيَة بدُون تأرِيخ.

١٠٧. مَجلّة «عَالم الْفِكْر الكوِيتِية»: ج ٢/ العدد/٢.

١٠٨. مَجلّة (الْإِيكُونُومست) الْأُسبُوعيَّة البِريطَانيَّة فِي عَدَدها الصَّادر فِي (١٠ مَارس سَنَة ١٩٧٣ م).

١٠٩. مَجلَّة الْأَحْد اللُّبنَانِيَّة سَنَة (١٩٧٠ م). أُخذ بالوَاسطَة.

١١٠. مَجلَّة العِرفَان عَدَد تَشرِين الثَّانِي (١٩٦٠ م). أُخذ بالوَاسطَة.

١١١. المَحَاسن، لأَبي جَعْفر أَحمَد بن مُحمّد بن خَالد البَرقي (ت ٢٨٠ هـ)، تَحقِيق: السَّيِّد مَهدي الرَّجَائي، المَجْمَع العَالمي لأَهل البَيْت ـ قُم، الطَّبعَة الأُولىٰ ١٤١٣ هـ

١١٢. مُحمّد رَسُول الْحُرِّيَّة لعَبد ٱلرَّحْمَان الشَّرقاوي. أُخذ بالوَاسطَة.

١١٣. مُروج الذَّهَب وَمَعَادن الجَوهر، لأَبِي الحَسَن عَليّ بن الحُسَيْن المَسعُوديّ (ت ٣٤٦ هـ ق)، تَحْقِّيق: مُحَمَّد مُحييّ الدّين عَبد الحَمِيد، مطْبَعَة السّعادة، الطَبْعَة الرّابعة ـ القَاهرَة ١٣٨٤ هـ.

١١٤. مُسْنَد أَحْمَد، لُمحَمَّد بن حَنبل الشّيبانيّ (ت ٢٤١ هـ ق)، تَحْقِّيق: عَبد الله مُحَمَّد الدّرويش، طَبْعَة دَار الفِكر، الطَبْعَة الثَّانِيَة ـ بَيْرُوت ١٤١٤ هـ، طَبْعَة جَامعة أُم القُرىٰ السّعودية، طَبْعَة دَار العِلم ١٤٠٣ هـ.

١١٥. مُسْنَد ٱبْن مَاجه، لُمحَمَّد بن يَزيد القَزوينيّ (ت ٢٧٥ هـ ق)، تَحْقِّيق: فُؤاد عَبد البَاقي، نَشْر دَار الفِكر، طَبْعَة ـ بَيْرُوت ١٣٧١ هـ، دَار إِحيَاء التُّرَاث، بَيْرُوت، الطَبْعَة الأُولىٰ ١٣٩٥ هـ.

١١٦. المُصنَّف، عَبدالرَّزاق بن هَمَّام الصَّنعاني (٢١١ هـ). تَحْقِّيق: حَبِيب الرَّحمن الأَعظمي. مَنْشُورات المَجلس العِلمي، طَبْعَة بَيْرُوت سَنَة (١٣٩٠ هـ) وَمَا بَعدها.

١١٧. المَعَارف، لأبي مُحَمّد عَبد الله بن مُسْلم المَعَرُوف بِٱبن قُتَيبَة الدّينوريّ (ت ٢٧٦ هـ ق)، حَقَّقه وَقَدمَّ لهُ ثَروت عُكَاشه: مَنشورَات الشَّرِيف الرّضيّ الطّبْعَة الأُولىٰ ١٤١٥ هـ.

١١٨. مُعْجَم البُلدَان، لأَبي عَبدالله شَهاب الدّين يَاقُوت بن عَبدالله الحَمويّ الرّوميّ (ت ٦٢٦ هـ)، طَبعَة دَار إِحيَاء التّراث العَربيّ بَيرُوت الطّبعة

الأُولىٰ ١٣٩٩ هـق.

١١٩. المُعجَم الصَّغِير، لأَبِي القَاسم سُليَمان ٱبن أَحْمَد بن أَيُوب بن مُطير اللَّخمي الشّامي الطّبراني (ت ٣٦٠ هـ)، تَحْقِيق: مُحَمَّد عُثْمان، دَار الفِكر، بَيْرُوت، الطَبْعَة الثَّانِيَة ١٤٠١ هـ.

١٢٠. المُعْجَم الأَوسَط، أَبُو القَاسم سُليمان بن أَحْمَد الطَّبري (٣٦٠ هـ). مَكْتَبَة المَعَارِف - الرِّيَاض. الطَبْعَة الأُولىٰ (١٤٠٧ هـ). قَام بإِخرَاجه: إِبرَاهِيم مُظفر وآخرُون. تَحت إِشرَاف: مَجْمَع اللُّغة العَربِية ـ مَصْر.

١٢١. المُعْجَم الكَبِير، لأَبِي القَاسم سُليَمان بن أَحْمَد اللَّخمي الطّبراني (ت ٣٦٠ هـ)، تَحْقِيق: حَمدي عَبد المَجِيد السّلفي، دَار إِحيَاء التُّرَاث العَربِي، بَيْرُوت الطَبْعَة الثَّانِيَة ١٤٠٤ هـ

١٢٢. المُعْجَم الأَوسط، لأَبِي القَاسم سُليَمان ٱبن أَحْمَد بن أَيُوب بن مُطِير اللَّخمي الشّامي الطّبراني (ت ٣٦٠ هـ)، تَحْقِيق: طَارق بن عُوض الله، وعَبد الحَسَن بن إِبرَاهِيم الحُسَيْنيّ، دَار الحَرمِين، القَاهرَة، ١٤١٥ هـ.

١٢٣. مَجْمَع البَيَان فِي تَفْسِير القُرْآن، لأَبِي عَليّ الفَضل بن الحَسَن الطّبرسيّ (ت ٥٤٨ هـق)، طَبْعَة دَار المَعْرِفَة ـ بَيْرُوت ١٤١٩ هـ، طَبْعَة دَار إِحيَاء التُّرَاث العَربِي.

١٢٤. مقَاتل الطَّالبِيين، أَبُو الفَرج عَليّ بن الحُسَيْن بن مُحَمَّد القَرشي الإِصبهَانِي الأُموري (٢٨٤ ـ ٣٥٦ هـ). شَرْح وتَحْقِيق: السَّيِّد أَحْمَد صَقر. مُؤسَّسَة الأَعلمي. بَيْرُوت ـ لُبْنَان.

١٢٥ . المُوطأ ، مَالك بن أَنس بن مَالك الأَصبحي الحِمْيَري . تَحْقِيق : مُحَمَّد فُؤاد عَبدالبَاقي . المَكْتَبَة الثَّقافِية . بَيْرُوت ـ لُبْنَان بِالإِضَافة إِلىٰ طَبعَات أُخرىٰ ، وَكَذا طَبْعَة القَاهرَة .

١٢٦. مُنْتَقىٰ الأُصول ، تَقرِيرَات بَحْث السَّيِّد الرَّوحَاني تَقرِيرَات السَّيِّد الحَكِيم .

١٢٧. المِيزَان فِي تَفْسِير القُرْآن ، لُمحَمَّد حُسين الطَّباطَبائِي ، دَار الكُتب الإِسْلاَمِيَّة ، طَهران ، الطَبْعَة الثَّالِثة ١٣٩٧ هـ.

حَرْف النُّون

١٢٨. النّهاية فِي غَرِيب الحَدِيث والأَثر ، لأَبِي السّعادات مُبَارك بن مُبَارك الجَزري المَعْرُوف بآبن الأَثِير الشَّيبَاني الشَّافِعي (ت ٦٠٦ هـ)، تَحْقِّيق : طَاهر أَحْمَد الزّاوي ، مُؤسَّسَة إسمَاعِيليان ، قُم ، الطَبْعَة الرّابعة ١٣٦٧ هـ.

١٢٩. نُزهَة المَجَالس وَمُنتَخب النّفَائس ، لعَبدالرّحمَن بن عَبد السّلام الصّفوري الشّافعي ، القَاهرة .

١٣٠ . نَقْد الفِكْر الدِّينيّ ، الدّكتُور صَادِق جَلاَل العَظْم . أُخذ بالوَاسطَة .

حَرْف الوَاو

١٣١ . الوَافِي ، لُمحَمَّد مُحسِن بن مُرْتَضىٰ الفَيض الكَاشَانيّ ، نَشر مَكْتَبَة الإِمَام أَمِير المُؤْمِنِين عَليّ عليه السلام إصفهَان ١٤٠٦ هـ.

١٣٢ . الوَافِي بالوَفِيّات ، لصَفيّ الدّين خَلِيل بن أَيبك الصّفدي ، دَار النّشر

فرانزشتانيز ـ قيسبادان .

١٣٣ . وَفِيَّات الْأَعْيَان وَأنبَاء أَبْنَاء الزّمان ، لشَّمْس الدّين أَبِي العَبَّاس أَحْمَد بن مُحَمَّد البَرمكيّ المَعْرُوف بِٱبن خِلِّكان (ت ٦٨١ هـ ق) ، تَحْقِّيق : الدّكتور إِحسَان عَبَّاس ، طَبْعَة دَار صَادِر ـ بَيْرُوت ١٣٩٨ هـ .

حَرْف اليَاء

١٣٤ . يَنَابِيع المَوَدَّة لذَوي ٱلْقُرْبَىٰ ، لسُلَيمان ٱبن إِبرَاهِيم القَندُوزيّ الحَنفيّ (ت ١٢٩٤ هـ) ، تَحْقِّيق : عَليّ جَمَال أَشْرَف الحُسَيْنيّ ، طَبْعَة أُسوة الطَبْعَة الْأُولىٰ ـ قُم ١٤١٦ هـ ، وَالطَّبْعَة الحَيْدَرِيَّة فِي النَّجَف الْأَشْرَف .

١٣٥ . اليوَاقِيت وَالجوَاهر فِي بيَان عقَائد الْأَكابر ، القُطب الشَّعرَاني ، طَبعَة مَصْر .